فرانز فانون

معذبو الأرض

ترجمة

د . سامي الدروبي

د . جمال اتاسي

المقدمة

بقلم الفيلسوف الفرنسي: جان بول سارتر.

منذ زمن غير بعيد جداً كان عدد سكان الارض مليارين، منهم خمسمائة مليون من البشر، ومليار وخمسمائة مليون من " السكان الاصليين " . فالأولون يملكون " الكلمة "، والآخرون يستعيرونها. وبين هؤلاء وأولئك يقوم بدور الوسطاء ملوك صغار مشترون، وإقطاعيون، وبورجوازية زائفة ملفقة تلفيقاً . وكانت الحقيقة في المستعمرات تبدو عارية ، وكانت عواصم " البلاد المستعمِرة " تؤثرها مكسوة ، وكان على السكان الاصليين في البلاد المستعمَرة أن يحبوا هذه العواصم، كما يحبون أمهاتهم إن صح التعبير . وشرعت الصفوة الأوروبية تصنع صفوة من السكان الاصليين. أخذت تصطفي فتياناً مراهقين وترسم على جباههم بالحديد الاحمر مبادىء الثقافة الاوروبية، وتحشو أفواههم باشياء رنانة، بكلمات كبيرة لزجة تلتصق بالأسنان، ثم تردهم الى ديارهم بعد اقامة قصيرة في العاصمة وقد تزيفوا. ان هؤلاء الافراد الذين هم أكاذيب حية تسعى، قد أصبحوا لايملكون ما يقولونه لاخوتهم ، لأنهم لا يزيدون على أن يرجّعوا ما يسمعون ؛ فمن باريز ولندن وأمستردام كنا نحن نهتف قائلين:" بارتينون ، اخوّة " فاذا بشفاه تنفرج في مكان من الأمكنة بافريقيا أو آسيا لتقول " بتينون ! .. خوّة .. " وكان ذلك هو العهد الذهبي .

واتتهى ذلك العهد، وأخذت الأفواه تنفتح من تلقاء ذاتها. وظلت الأصوات الصفراء والسوداء نتحدث عن نزعتنا الانسانية ، ولكنها أصبحت تفعل ذلك لتأخذ علينا أننا غير أنسانيين. وأصبحنا نصغي الى تلك الآراء اللبقة التي تعبّر عن المرارة، دون أن نشعر بالاستياء. لقد أحسسنا في أول الامر بدهشة يمازجها كبشر: كيف؟ أيتكلمون من تلقاء أنفسهم؟ انظروا مع ذلك ماذا خلقنا منهم ؟ وكنا لا نشك في أنهم يقبلون مثلنا الاعلى، ما داموا يتهموننا بأننا لسنا أوفياء له . وآمنت أوروبا عندئذ برسالتها : لقد حملت الثقافة الاغريقية الى الآسيويين، لقد خلقت هذا النوع الانساني الجديد، نوع الزنوج الاغريق- اللاتين. وكنا نضيف الى ذلك سراً فيما بيننا : دعوهم يعووا، فذلك يسرّي عنهم . ان الكلب الذي ينبح لا يعض .

وجاء جيل جديد نقل المسألة الى أفق آخر. لقد حاول كتاب هذا الجيل وشعراؤه أن يشرحوا لنا، في كثير من الصبر، ان قيمنا لا تناسب حقيقة حياتهم، وأنهم لا يستطيعون أن

ينبذوها نبذاً كاملاً، ولا أن يهضموها. وكان معنى ذلك على وجه الاجمال هو هذا: إنكم تشوهوننا، فالمذهب الانساني الذي تأخذون به يدعي أننا وسائر البشر سواء ، وأعمالكم العرقية تفرق بيننا وبين غيرنا. وكنا نصغي الى كلامهم في كثير من الاسترخاء: ان حكام المستعمرات لا تدفع لهم أجور من أجل أن يقرؤوا (هيجل) ، وهم لذلك لا يقرؤونه كثيراً ، ولكنهم ليسوا في حاجة الى هذا الفيلسوف لكي يعرفوا أن هذه الضمائر الشقية المعذبة تربكها تناقضاتهم. ولا جدوى. فلنجعل شقاءهم إذاً يستمر، فلن يخرج من ذلك الا هواء. وكان الخبراء يقولون لنا: اذا كان في تأوهاتهم هذه ظل من مطمح، فهو التوق الى الانضمام. ولا مجال طبعاً لمنحهم هذا الانضمام: والا كنا نهدم النظام الذي يقوم على زيادة الاستغلال كما تعلمون. ولكن يكفي أن ندع هذه الجزرة ماثلة أمام أعينهم حتى يركضوا. أما أن يثوروا فذلك ما كنا مطمئنين الى أنه لن يكون: أي واع من هؤلاء السكان الاصليين يمكن أن يمضي الى قتل أبناء أوروبا الحسان لأن غايته الوحيدة هي أن يصير أوروبياً مثلهم؟ لقد كنا اذاً نشجع تلك الألوان من الأسى ؛ وفي ذات مرة لم نجد ضيراً في أن نمنح أحد الزنوج جائزة جونكور: وكان ذلك قبل عام ,٣٩

١٩٦١ . اسمعوا هذا الكلام : " علينا ألا نضيع الوقت في ثرثرات عقيمة أو في لغو يبعث على الاشمئزاز. فلنترك هذه (الأوروبا) التي لا تفرغ من الكلام على الانسان وهي تقتله جماعات حيثما تجده، في جميع نواصي شوارعها، وفي جميع أركان العالم. لقد انقضت قرون... وهي تخنق الانسانية كلها تقريباً باسم (مغامرة روحية) مزعومة ". ان هذه اللهجة الجديدة. من ذا الذي يجرؤ أن يتكلم بهذه اللهجة إنه إفريقي، انسان من " العالم الثالث " كان مستعَمراً . وهو يضيف الى ذلك قوله: " ان أوروبا قد بلغت من الجنون والاضطراب في سرعتها أنها ماضية الى الهاوية... التي يحسن الابتعاد عنها. " وبتعبير آخر : إنها قد أفلست.. هذه حقيقة لا يجمل قولها- أليس كذلك يا أعزائي أهل أوروبا ؟- ، ولكنها حقيقة نحن جميعاً مقتنعون بها في قرارتنا بين اللحم والجلد منا.

على أن هناك تحفظاً لا بد من ذكره. حين يقول فرنسي لفرنسيين مثلا: " لقد أفلسنا "- وهذا ما أعرف أنه يحدث كل يوم تقريباً منذ عام ١٩٣٠- فهو انما يلقي خطاباً يفيض بالعاطفة، خطاباً تضطرم فيه نيران من الحنق والحب، والخطيب هنا يضع نفسه في المغطس مع جميع أهل وطنه. ثم انه يضيف على وجه العموم قوله: " اللهم الا أن... ". ومعنى ذلك واضح، فهو يريد أن يقول: علينا ألا نقترف بعد الآن خطيئة واحدة. فاذا لم تتبع وصاياه بحذافيرها، فعندئذ، عندئذ فقط ، تنهار البلاد. ومعنى ذلك أن هنا وعيداً يعقبه نصح ، وكلام الخطيب لا يؤذي

سامعيه ما دام يصدر عن الذاتية القومية المشتركة . أما حين يقول (فانون) ان أوروبا ساعية الى حتفها، فهو لا يصيح صيحة من ينبه الى الخطر، وإنما هو يشخص الداء. ان هذا الطبيب لا يدعي أن أوروبا مائتة لا محالة - فقد رأى الناس معجزات- لا ولا يقدم لها وسائل الشفاء، و إنما هو يلاحظ أنها تحتضر. يلاحظ ذلك من خارج ، معتمداً على الأعراض التي استطاع أن يجمعها . أما ان يعالجها فلا . ان في رأسه هموماً أخرى. انه لا يعنيه أن تفطس أو أن تعيش. وكتابه لهذا السبب يبعث على الفضيحة. واذا همستم ساخرين منزعجين: " يا لهذا الذي يقدمه لنا! " غابت عنكم الطبيعة الحقيقية للفضيحة: ذلك ان (فانون)، لا " يقدم " إليكم شيئاً البتة. ان كتابه الذي يراه الآخرون كاوياً يظل عندكم صقيعاً. ان مؤلف هذا الكتاب يتحدث عنكم في كثير من الأحيان، ولكنه لا يتحدث اليكم أبداً . انتهى عهد جوائز جونكور السوداء وجوائز نوبل الصفراء. لن يعود زمن الحائزين على الجوائز من المستعَمرين انخرين: " أيها السكان الأصليون في جميع البلاد المتخلفة، اتحدوا " . يا له من سقوط لقد كان الآباء لا يتحدثون الا الينا، فاذا بالأبناء أصبحوا يرفضون حتى أن يعدونا أهلا لأن يخاطبونا. والكلام يدور علينا. صحيح ان (فانون) يذكر في عرض الحديث جرائمنا المشهورة: صطيف ، هانوي، مدغسقر، ولكنه لا يضيع وقته في استنكارها، وانما هو يستعملها. واذا كان يفضح أساليب الاستعمار، ويحلل ما هنالك من حركة معقدة في العلاقات التي تجمع وتفرق بين المستوطنين وبين " سكان العاصمة الأوروبية "، فهو انما يفعل ذلك- لأخوته ، لأن هدفه هو أن يعلمهم كيف يحبطون مؤامراتنا.

وخلاصة القول ان "العالم الثالث "يكتشف نفسه ويخاطب نفسه بهذا الصوت. ويعلم الناس أن هذا العالم ليس متجانساً، فما نزال نجد فيه شعوباً مستعبدة، ! وأخرى نالت استقلالا كاذباً، وأخرى تقاتل من أجل أن تحصل على سيادتها، وأخرى فازت بحرية كاملة ولكنها تحيا مهددة بعدوان استعماري تهديداً دائماً . ان هذه الفروق قد نشأت من التاريخ الاستعماري، أي نشأت من الاضطهاد. ففي بلد من البلدان اكتفت العاصمة الأوروبية بأن تشتري عدداً من الاقطاعيين ، وفي بلد آخر خلقت من هنا وهناك طبقة بورجوازية من المستعَمرين، عاملة على أن تفرق لتسود ، وفي بلد ثالث ضربت ضربة مزدوجة،- فجعلت المستعَمرة استثماراً وإسكاناً في آن. وهكذا أكثرت أوروبا الانقسامات والتعارضات، وصنعت طبقات، وخلقت في بعض الأحيان نزعات عرقية، وحاولت، بجميع الحيل أن توّلد وأن تزيد انقسامات المجتعات المستعمَرة الى طبقات . وان (فانون) لايخفي شيئاً : ان على المستعمرة أن تناضل ضد نفسها من أجل أن تناضل ضدنا.، أو قل ان هذين النضالين ليسا الا نضالاً واحداً . ينبغي لجميع الحواجز الداخلية أن تنصهر في نار المعركة، وعلى

البورجوازية العاجزة التي تتألف من أصحاب أعمال ومن مستخدمين لدى الأوروبيين ، وعلى عمال المدن الذين ينعمون دائماً ببعض الامتيازات، وعلى العمال المتكدسين في المعسكرات، على هؤلاء جميعاً أن يصطفوا في مواقع الجماهير القروية التي هي الينبوع الحقيقي للجيش الوطني الثوري . فإن الفلاحين في هذه المناطق التي تعمّد الاستعمار أن يعطل فيها التقدم، سرعان ما يكونون هم الطبقة الراديكالية اذا هم ثاروا، ذلك أنهم يعرفون الاضطهاد عارياً ، ويقاسون عنه أكثر مما يقاسي عمال المدن، و من أجل أن تحول بينهم وبين الموت جوعاً لا يكفيك الا أن تهدم جميع الأنظمة . ومتى انتصرت هذه الطبقة كانت الثورة القوية اشتراكية. ومتى أمكن وقف اندفاعتها فتسلمت البرجوازية المستعمَرة زمام السلطة، بقيت الدولة الجديدة في أيدي الاستعماريين رغم السيادة الصورية . وذلك ما يدل عليه مثال (كاتانجا) دلالة واضحة. وهكذا فان وحدة العالم الثالث لم تتحقق، وانما هي مشروع يمضي في سبيله الى التحقق ماراً باتحاد جميع المستعَمرين تحت قيادة طبقة الفلاحين في كل بلد من البلدان بعد الاستقلال أو قبله على السواء . وذلك ما يشرحه (فانون) لإخوته بأفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية . إما ان نحقق الاشتراكية الثورية معاً في كل مكان ، وإما ان يصرعنا ، واحداً بعد واحد ، الطغاة الذين كانوا يحكموننا . ان (فانون) لا يخفي شيئاً : لا يخفي ضروب الضعف ، ولا أنواع الشقاق ، ولا ألوان التزييف : هنا انطلقت الحركة انطلاقة سيئة، وهناك أخذت تفقد سرعتها بعد انتصارات مدوية ، وهنالك توقفت، فاذا أريد لها أن تُستأنف كان لا بد للفلاحين من أن يلقوا بورجوازيتهم في البحر. ويحذر المؤلف قارئه من أخطر أنواع الضياع : الزعيم ، عبادة الشخص ، الثقافة الغربية ، وكذلك عودة الماضي البعيد من الثقافة الأفريقية : ان الثقافة الحقة هي " الثورة " . ومعنى هذا أن هذه الثقافة تنشأ والنار حامية . ان (فانون) يتحدث بصوت عال . وفي وسعنا نحن الأوروبيين أن نسمعه : والدليل على ذلك أنكم تمسكون الآن بأيديكم هذا الكتاب . ترى ألا يخشى أن تستفيد الدول الاستعمارية من صراحته ؟

لا ، انه لا يخشى شيئاً . لقد أصبحت أساليبنا رثة بالية : قد تستطيع أن تؤخر التحرر في بعض الاحيان، ولكنها لن توقفه. ولا نتخيلن أن في وسعنا أن نعدّل طرائقنا : ان الاستعمار الجديد، هذا الحلم الكسول الذي تحلمه عواصم أوروبا، ليس الا هواء . ان " القوى الثالثة " لا وجود لها ، أو هي البورجوازيات العميلة التي جعلها الاستعمار في الحكم. ان أساليبنا المكيافلية ليس لها كبير سلطان على هذا العالم الذي تيقظ تيقظاً قوياً وفضح اكاذيبنا واحدة بعد أخرى. وليس للمستوطن المستعمِر الا ملجأ واحد هو القوة، حين يبقى له من القوة شيء. وليس للساكن

الاصلي الا اختيار واحد، هو الاختيار بين العبودية والسيادة. هل ينفع (فانون) أو يضره أن تقرؤوا كتابه أو لا تقرؤوه ؟ ا نه لإخوته انما يفضح أساليبنا الماكرة العتيقة، موقناً بأننا لانملك لها بديلاً . لإخوته هؤلاء انما هو يقول: ! لقد وضعت أوروبا أرجلها على أراضينا، فينبغي لنا أن نظل نجرحها إلى أن تسحبها. واللحظة مواتية، فما من شيء يحدث في بيزرت أو في أليزابت فيل أو في مجاهل الجزائر الا و تعلم به الارض قاطبة. والكتل متعارضة، ويتهيب بعضها بعضاً ، فلنستفد من هذا الشلل، ولندخل في التاريخ، وليكن دخولنا المفاجىء هذا عاملا لجعل التاريخ عاماً لأول مرة. لنقاتل . وحسبنا الخنجر الصابر سلاحاً اذا أعوزتنا أسلحة أخرى .

أيها الاوروبيون، اقرؤوا هذا الكتاب، ادخلوا فيه. فبعد أن تسيروا بضع خطوات في الظلام ستجدون أناساً أجانب قد تحلقوا حول النار . اقتربوا منهم ، وأصغوا اليهم : إنهم- يبحثون في المصير الذي يهيئونه لوكالاتكم- وعملائها الذين يحمونها . قد- يرونكم، ولكنهم سيستمرون في التحدث حتى دون أن يخفضوا أصواتهم . إن عدم اكتراثهم هذا يحز في القلب: إن آباءهم الذين كانوا مخلوقات تعيش في كنفكم، مخلوقات أنتم خالقوها، إن آباءهم أولئك كانوا نفوساً ميتة. كنتم تغدقون عليهم النور، وكانوا لا يتجهون بالحديث إلا إليكم، وكنتم لاتكلفون أنفسكم عناء الرد على هؤلاء البدائيين. ولكن الأبناء يجهلونكم: إنهم يستضيئون ويستدفئون بنار ليست ناركم. ولسوف تشعرون، وأنتم منهم على مسافة تهيباً ، أنكم متخفون متسللون في الظلام خائفون: لكل دوره.. وفي هذه الظلمات التي سينبجس منها فجر جديد ستكونون أنتم البدائيين.

لعلكم قائلون: ما دام الامر كذلك فلنرم هذا الكتاب من النافذة . لماذا نقرؤه إذا لم يكن مكتوباً لنا؟ الحق أن هناك باعثين يجب أن يدفعاكم إلى قراءة هذا الكتاب : أولهما أن (فانون) يشرح أمركم لإخوته ويحلل لهم أنواع الضياع التي نعيشها: فاستفيدوا من ذلك لتكشفوا لأنفسكم عن أنفسكم من حيث أنكم في حقيقتكم أشياء. ان ضحايانا يعرفوننا بواسطة جراحهم واغلالهم: وهذا مايجعل؟ شهادتهم صادقة لا ترد. يكفي أن تظهرونا على ما صنعناه بهم حتى نعرف ماصنعناه بأنفسنا. أهذا مفيد ؟ نعم، لأن اوروبا مهددة أن تموت تهديداً كبيراً . قد تقولون أيضاً : ولكننا نعيش في أوروبا ونستنكر الإفراط . صحيح: إنكم لستم مستوطنين في البلاد المستعمَرة. ولكنكم لستم خيراً من أولئك المستوطنين. إنهم روادكم، أنتم أرسلتموهم الى ما وراء البحار، وقد أغنوكم. لقد أنذرتموهم. قلتم لهم إنكم ستنكرون أعمالهم من أطراف الشفاه اذا هم أسرفوا في سفك الدماء. " مثلكم في ذلك مثل دولة- أية كانت هذه الدولة- تغذي في الخارج جمهرة من المثيرين والمحرضين والجواسيس، فاذا قبض عليهم انكرتهم. انكم وأنتم من أنتم !

تحررية وانسانية وحباً للثقافة الى حد التصنع ، تتظاهرون بانكم تنسون أن لكم مستعمرات وان هناك اناساً يقومون باعمال القتل الجماعي باسمكم . ان (فانون) يكشف لرفاقه- لعدد من رفاقه خاصة، هم الذين ظلوا مغالين بعض المغالاة في غربيتهم- يكشف لهؤلاء الرفاق تضامن " سكان أوروبا " مع عملائهم في المستعمرات . تسلحوا بالجرأة وأقدموا على قراءة هذا الكتاب ، لهذا السبب الأول وهو الذي سيشعركم بالخجل ، والخجل كما قال (ماركس) عاطفة ثورية . ها أنتم أولاء ترون أنني أيضاً لا أستطيع أن اتخلص من الوهم الذاتي . أنا أيضاً أقول لكم : " لقد ضاع كل شيء ، اللهم إلا أن ... " أيها الأوروبي ، انني اسرق كتاب عدو ، فأتخذه وسيلة لشفاء أوروبا من دائها . انتفع بهذا الكتاب .

وإليكم السبب الثاني : اذا تركتم جعجات سوريل الفاشية وجدتم أن (فانون) هو أول من يعيد مولّدة التاريخ الى النور بعد انجلز. ولا يذهبن بكم الظن الى أن دماً مسرفاً في الغليان أو الى أن شقاء الطفولة هو الذي جعله يحب العنف حبا خاصاً : ان (فانون) يشرح الموقف لا أكثر من ذلك. ولكن هذا يكفي لأن يصوّر، مرحلة مرحلة، ذلك الديالكتيك الذي يخفيه عنكم النفاق الليبرالي، والذي أنتجنا كما أنتجه.

لقد كانت البورجوازية، في القرن الماضي، تعد العمال أناساً حاسدين قد أفسدتهم شهوات فظة، ولكنها كانت تحرص على أن تحشر هؤلاء الجفاة المتوحشين في عداد نوعنا الانساني: وإلا فكيف يمكنهم أن يبيعوا قدرتهم على العمل بيعاً حراً اذا هم لم يكونوا بشراً ؟ كانت النزعة الانسانية في فرنسا وانكلترا تدعي أنها تساوي بين جميع أفراد البشر.

وليس الأمر كذلك في العمل الإكراهي . ان العمل الإكراهي لا يقوم على تعاقد . ولا بد عدا ذلك من التخويف. وهكذا ظهر الاضطهاد. ان جنودنا فيما وراء البحار ينبذون فكرة المساواة بين البشر، و يطبقون على النوع الانساني مبدأ " العدد المغلق " : اذ لما كان لا يستطيع أحد أن يسلب رزق أخيه الانسان أو أن يستعبده أو أن يقتله الا ويكون قد اقترف جريمة ، فقد أقروا هذا المبدأ وهو أن المستعمر ليس شبيه الانسان . وعهد الى قوتنا بمهمة احالة هذا اليقين المجرد الى واقع : صدر الأمر بخفض سكان البلاد الملحقة الى مستوى القرود الراقية، من أجل تسويغ أن يعاملهم المستوطن معاملته للدواب. ان العنف الاستعماري لا يريد المحافظة على إخضاع هؤلاء البشر المستعبدين، وانما هو يحاول أن يجردهم من انسانيتهم. انه لن يدخر جهداً من أجل أن يقضي على تقاليدهم، ومن أجل أن يحل لغتنا محل لغاتهم ، ومن أجل ان يهدم ثقافتهم دون أن

يعطيهم ثقافتنا . لسوف يصعقهم تعباً . فإذا ظلوا يقاومون رغم الجوع والمرض ، فلسوف يتولى الخوف القيام بالمهمة : لسوف تصوّب إلى الفلاح بنادق . ويأتي مدنيون فيستقرون على أرضه ، ويكرهونه بالسياط على ان يزرعها لهم . فإذا قاوم أطلق الجنود النار ، فأصبح ميتاً ، واذا خضع انهار ولم يبق انساناً . لسوف يمزق العار والخوف خلقه، لسوف يحطمان شخصه . ويتم تحقيق هذه المهمة على أيدي خبراء اختصاصيين، والطبول تقرع : ان الدوائر السيكولوجية " ليست حديثة العهد ، لا ولا غسل الدماغ . ومع ذلك ، رغم هذه الجهود كلها، لم يتحقق الهدف في أي مكان: لم يتحقق في الكونغو حيث كانوا يقطعون أيدي الزنوج، ولا تحقق في أنجولا حيث كانوا ، منذ زمن قصير جداً ، يثقبون شفاه المتذمرين ليقفلوها بأقفال . لست أدعي أن من المستحيل أن تبدل انساناً فتجعله بهيمة، وانما أقول إنك لا تصل الى ذلك الا بإضعافه اضعافاً كبيراً ؛ واللطمات لا تكفي أبداً ، ولا بد من المبالغة في التجويع . وهذه هي المشكلة المزعجة : انك حين تجعل فرداً من أفراد نوعنا الانساني أشبه بدابة ، تقلل انتاجه، والانسان الذي يصبح حيواناً أهلياً يكلف من النفقات أكثر مما يعطي من أرباح . ولهذا السبب يضطر المستوطنون الى وقف الترويض في منتصف الطريق ، وتكون النتيجة ألا يكون هذا المستعمر انساناً ولا بهيمة، وانما يكون من نوع " السكان الأصليين " انه وقد أحيط بالضرب والتجويع والمرض والتخويف ، ولكن الى حد محدود، يتصف خلقه دائماً بصفات واحدة، سواء أكان أصفر أم أسود أم أبيض ، وهذه الصفات هي انه كسول ماكر لص يعيش بالقليل ولا يعرف الا القوة .

مسكين هذا المستوطن: لقد عرّي تناقضه. ان عليه أن يقتل أولئلا الذين ينهبهم ، كما يفعل الجني فيما يقال. ولكن ذلك غير ممكن: أليس عليه أيضاً أن يستغلهم ؟ وهكذا، فلأنه لا يستطيع أن يمضي في التقتيل الى حد ابادة النوع ، ولا يستطيع أن يمضي في الاستعباد الى حد جعل البشر بهائم ، يفقد مواطىء قدميه ، وينقلب الأمر، فاذا بمنطق محتوم يؤدي الى زوال الاستعمار.

ليس فوراً . ان الاوروبي يسيطر. صحيح انه خسر ، ولكنه لا يدرك ذلك. انه لا يعلم بعد أن " السكان الاصليين " ليسوا كما يتصور " السكان الاصليين " هو يقول انه يلحق بهم شراً من أجل أن يهدم أو يكبح الشر الذي فيهم، فبعد ثلاثة أجيال لن تولد فيهم غرائزهم الفاسدة من جديد.. أية غرائز؟ أهي تلك التي تدفع العبيد الى قتل سيدهم ؟ فكيف لا يرى في هذه الغرائز قسوته هو و قد انقلبت عليه ! كيف لا يرى في وحشية هؤلاء الفلاحين المضطهدين وحشيته هو وقد امتصوها بجميع المسام و أصبحوا لا يستطيعون أن يبرؤوا منها ؟ سبب ذلك بسيط : ان هذا

الشخص المتجبر الذي أطاش صوابه ما يتمتع به من سلطة كاملة وما يشعر به من خوف عليها، أصبح لا يتذكر جيداً أنه كان انساناً ، وانما هو يحسب نفسه سوطاً أو بندقية، حتى بلغ من ذلك الى الاعتقاد بأن ترويض " العروق المنحطة " انما يكون باخضاع منعكساتهم للربط الشرطي . انه ينسى الذاكرة الانسانية ، ينسى الذكريات التي لا تمّحي. وهناك، خاصة، هذا الشيء الذي لعله لم يعلمه يوماً : أننا لا نصبح ما نحن الا بالانكار الداخلي الجذري لما صنع بنا . ثلاثة أجيال؟ ان الابناء، منذ الجيل الثاني، ما كادوا يفتحون اعينهم حتى رأوا آباءهم يضربون. وبذلك تكونت فيهم صدمات ، على حد تعبير علم الامراض النفسية ، مدى الحياة . وهذه العدوانات التي ما تنفك تتكرر لا تحملهم على الخضوع، وانما تلقيهم في تناقض لايطاق سيدفع الاوروبي ثمنه عاجلا أو آجلاً - لك بعد ذلك أن تروضهم هم أيضاً ، وأن تعلمهم العار والألم والجوع، فلن تثير في أجسامهم الا حنقاً يغلي غليان البراكين وتساوي قوته قوة الضغط الذي يقع عليهم. قلتم: انه لا يعرف الا القوة ؟ طبعاً هي أولا قوة المستوطن، وهي بعدئذ قوتهم ، انها قوة واحدة بعينها ترتد إلينا كإقبال خيالنا علينا من قرارة مرآة . لا يخدعنكم أمر هذه القوة. انهم بهذا الحنق المسعور، وهذا الغيظ وهذه المرارة، وبرغبتم الدائمة هذه في أن يقتلونا، وبهذا التقبض المستمر في العضلات القوية التي تخاف أن تسترخي، انهم بهذا كله بشر. لقد أصبحوا كذلك بسبب المستوطن الذي أراد لهم أن يكونوا أناساً معذبين، كما أصبحوا كذلك من أجل أن يقاوموه . ان الكره الذي ما يزال أعمى، وما يزال مجرداً ، هو كنزهم الوحيد : ان " السيد " هو الذي يثير فيهم هذا الكره لأنه يريد ان يجعلهم كالبهائم ، وهو لا يظفر بتحطيم هذا الكره ، لأن مصالحه تجعله يتوقف في منتصف الطريق ، وهكذا يظل " السكان الأصليون " بشراً ، بما للمضطهِد من قوة وعجز يستحيلان عندهم الى رفض عنيد للمصير الحيواني . أما ما عدا ذلك فواضح. انهم كسالى ، طبعاً . ذلك منهم تخريب مقصود. وهم ما كرون لصوص: مرحى! إن سرقاتهم الصغيرة تدل على بداية المقاومة التي لم تنتظم بعد . لا هذا فحسب : ان منهم من يؤكد ذاته بأن يلقي بنفسه عاري اليدين على البنادق. هؤلاء هم أبطالهم . ومنهم من يجعلون أنفسهم رجالاً بقتل أوروبيين. وتقتلونهم: لصوصاً وشهداء فإذا بعذابهم يوري النيران في نفوس الجماهير المذعورة.

المذعورة : نعم : ففي هذه اللحظة الجديدة يصير العدوان الاستعماري في نفوس المستعمرَين الى ذعر. ولست أعني بالذعر ما يشعرون به من خوف ازاء أساليبنا في القمع، هذه الأساليب التي لا ينضب معينها ! لست أعني هذا فحسب ، وإنما أعني أيضاً ذلك الخوف الذي يثيره في نفوسهم حنقهم هم . انهم محاصرون بين اسلحتنا المصوبة اليهم وبين تلك الاندفاعات

الرهيبة وتلك الرغبة في القتل التي تصعد من أعماق قلوبهم والتي لا يتعرفونها دائماً ، لأنها ليست في أول الأمر عنفهم هم ، وانما هي عنفنا نحن وقد انقلب واشتد وأصبح يمزقهم. والحركة الاولى التي تقوم في نفوسهم هي أن يدفنوا دفناً عميقاً ذلك الغضب المكتوم الذي تستنكره أخلاقهم وأخلاقنا معاً ، والذي ليس مع ذلك الا آخر ملجأ تفزع إليه إنسانيتهم. اقرؤوا (فانون) تعلموا أن جنون القتل انما هو اللاشعور الجمعي للمستعمرين في زمن عجزهم .

أن هذا الحنق المكتوم يظل يلوب في صدور المضطهدين فيفسدهم هم أنفسهم حين لا يستطيع أن ينطلق. وهم ينتهون من أجل التحرر منه الى أن يقتل بعضهم بعضاً ، فالقبائل تقتتل فيما بينها لأنها لا تستطيع أن تجابه العدو الحقيقي- وفي وسعكم أن تعتمدوا على السياسة الاستعمارية لتغذية خصوماتهم- . ان الاخ الذي يشهر السكين على أخيه يحسب أنه يهدم تهديماً نهائياً تلك الصورة الكريهة لفسادهما المشترك. غير أن هذه الضحايا التكفيرية لا تروي ظمأهم الى الدم . ولن يمتنعوا عن أن يسيروا إلى الرشاشات إلا إذا تواطؤوا معنا : وهذا التخلي عن الانسانية ، هذا التخلي الذي ينفرون منه ، تراهم يعجّلون تقدمه بإرادتهم نفسها . وهم يحمون أنفسهم من أنفسهم بسياجات غيبية يراها المستوطن فيتسلى بها : فتارة يحيون خرافات عتيقة فظيعة ، وتارة يكبلون أنفسهم بطقوس دقيقة . هكذا يهرب المصاب بمرض الحصار من اللجاجة العميقة التي تلح عليه ، بأن يفرض على نفسه لوثات تطارده في كل لحظة . انهم يرقصون : ذلك يشغلهم ، وذلك يرخي عضلاتهم المتقبضة تقبضاً مؤلماً ، ثم أن الرقص يحاكي ، سراً ، على غير علم منهم في كثير من الأحيان ، كلمة " لا " التي لا يستطيعون أن يقولوها ، ويحاكي أعمال القتل التي لا يستطيعون أن يقترفوها.. وفي بعض المناطق يعمدون الى هذا الملجأ الاخير: المس .- فالأمر الذي كان في المضي هو الظاهرة الدينية في بساطتها، الأمر الذي كان في الماضي نوعاً من الاتصال بين المؤمن وبين المقدس ، يتخذونه سلاحاً يحاربون به اليأس والمذلة: فأشخاص وما شابهها تنزل فيهم ، وتسيطر على عنفهم وتبعثره تشنجات تمضي الى حد استنفاد القوى . و هذه الشخوص السامية تحميهم في الوقت نفسه: ان المستعمرين يحمون انفسهم من الضياع الاستعماري بالمغالاة في الضياع الديني ، مع هذه النتيجة الوحيدة آخر الأمر ، وهي انهم يجمعون الضياعين ، وان كلا من هذين الضياعين يعزز الضياع الآخر . هكذا في بعض أمراض الذهان، نرى المصابين بالهلوسة يقررون ذات صباح، وقد تعبوا من الإهانات التي تصب عليهم كل يوم، أن يسمعوا صوت ملاك يمدحهم . ولا تنقطع الشتائم بسبب ذلك، وانما هي تتناوب بعد الآن مع الغبطة والهناءة . ذلك دفاع، وهو نهاية مغامرتهم: لقد انقسم الشخص، وهو يسير الآن نحو

الجنون. أضيفوا الى ذلك، بالنسبة الى بعض التعساء المصطفين اصطفاء صارماً ، أضيفوا ذلك المس الآخر الذي تحدثت عنه منذ قليل: أعني الثقافة الغربية . رب قائل يقول: لو كنت في مكانهم لظللت أوثر حفلات الزار على معبد الأكروبول . اذاً لقد فهمتم . ولكنكم مع ذلك لم تفهموا فهماً كاملاً ، لأنكم لستم في مكانهم . وإلا ادركتم انهم لا يستطيعون أن يختاروا : انهم يجمعون . ان لهم عالمين ، وهذا يجعلهم ممسوسين مسين : انهم يرقصون طوال الليل ، حتى إذا طلع الفجر هرعوا الى الكنائس يسمعون الصلاة . ويتفاقم الصدع يوماً بعد يوم . ان عدونا يخون اخوته ويتواطأ معنا . ويفعل اخوته مثل الذي فعل . ان صفة " السكان الأصليين " عصاب ادخله المستوطن على المستعمرين وغذّاه ، بموافقتهم .

وأن تطالب بالمصير الانساني وان تنكره في آن واحد ، فذلك تناقض انفجاري . وهو لذلك ينفجر ، تعلمون هذا مثلما أعلمه . اننا نعيش في زمن الانفجار : زيادة الولادات تزيد العوز ، وعلى المواليد الجدد أن يخشوا الحياة أكثر قليلاً مما يخشون الموت ، لذلك يجرف العنف جميع الحواجز . ففي الجزائر ، وفي آنجولا يقتل الأوربيون علناً . هذه لحظة الانفجار ، هذه هي المرحلة الثالثة من مراحل العنف : ان العنف يرتد الينا ، ويضربنا ، ثم نحن لا نفهم ان هذا العنف هو عنفنا نحن أكثر مما فهمنا ذلك في المرات الأخرى . ان الليبراليين يظلون مشدوهين انهم يعترفون أننا لم نكن على قدر كاف من الكياسة في معاملة " السكان الاصليين " ، وانه كان أدنى الى العدل والتعقل أن نمنحهم بعض الحقوق في حدود الإمكان، فلقد كانوا لا يطمعون في أكثر من أن نسمح لهم بدخول هذا النادي المحكم الإغلاق : نوعنا الانساني، أن نقبلهم في هذا النادي أفواجاً بلا مزكّين : وها هم أولاء يجتاحهم ذلك الانفجار الوحشي المسعور كما يجتاح أشرار المستوطنين. واليسار في العواصم الاوروبية منزعج : انه يعرف القدر الحقيقي المفروض على " السكان الاصليين " ، ويعرف ما يقع عليهم من إضطهاد لا يرحم، وهو لا يستنكر تمردهم، عالماً باننا فعلنا كل شيء من أجل تحريضهم على هذا التمرد ، ولكنه يقول: ان هنالك حدوداً مع ذلك : لقد كان ينبغي لهؤلاء المقاتلين أن يحرصوا على أن يتحلوا بروح الفروسية، فتلك خير وسيلة يبرهنون بها على أنهم بشر . وهو يؤنبهم في بعض الأحيان قائلاً : " لقد اسرفتم . ولن ندعمكم بعد الآن . " ولكنهم لا يكترثون بهذا التهديد ، ذلك لأنهم يعرفون قيمة هذا الدعم الذي يمن به عليهم ، ويستخفون به . لقد ادركوا هذه الحقيقة الصارمة منذ بدؤوا حربهم ، وهي : اننا جميعاً سواء ، لقد استفدنا جميعا منهم ، وليس عليهم أن يبرهنوا لنا على شيء ، ولن يشكروا لأحد منة . ان هناك واجباً واحداً يقع على عاتقهم ، ان هناك هدفاً واحداً يجب ان يحققوه ، هو ان يطردوا

الاستعمار بجميع الوسائل . والمتبصرون منا مستعدون ، عند الضرورة ، لأن يقبلوا هذا ، ولكنهم لا يستطيعون الامتناع عن أن يعدوا هذا العنف وسيلة غير انسانية البتة يعمد اليها جماعة هم دون البشر من أجل أن تمنحوا حقوق الانسانية، فامنحوهم هذه الحقوق بأقصى سرعة ، وليحاولوا عندئذ بأعمال سلمية أن يستحقوها: الا ان فضلاءنا لعرقيون .

وسيستفيدون من قراءة (فانون): لسوف يوضح لهم (فانون) توضيحاً كاملاً ان هذا العنف الجامح ليس زوبعة سخيفة، ولا هو تيقظ غرائز وحشية ، بل ولا هو ثمرة حقد: انه الانسان نفسه يشكل نفسه تشكيلاً جديداً . هذه الحقيقة ، اعتقد اننا علمناها ونسيناها : ان علائم العنف لا يستطيع أي لين أن يمحوها : ان العنف وحده- يستطيع أن يهدمها. والمستعمر يشفى من عصاب الاستعمار بطرد المستعمِر بالسلاح . انه حين ينفجر حنقه يسترد شفافيته المفقودة، ويعرف نفسه بمقدار ما يصنع نفسه . نحن من بعيد نعد حربه انتصاراً للتوحش ، ولكن هذه الحرب تؤدي بذاتها الى تحرير المقاتل بالتدريج ، فهي تزيل من نفسه ومن خارج نفسه ظلمات الاستعمار شيئاً بعد شيء . انها منذ تبدأ لا ترحم . فإما أن يظل المرء مذعوراً واما ان يجعل غيره مذعوراً . معنى ذلك : إما الاستسلام لانقسامات حياة مزيفة واما الظفر بالوحدة الولادية. حين يقبض الفلاحون على بنادق ، فإن جميع الخرافات تبهت ألوانها ، وان جميع الممنوعات تنهار واحداً بعد آخر : إن سلاح المقاتل هو انسانيته. اذ في أول مرحلة من مراحل الثورة ، يجب عليه ان يقتل . انه حين يقتل أوروبياً يضرب بحجر واحد ضربتين: يزيل مضطهداً ومضطَهداً في آن واحد : اذ يبقى بعد القتل رجل ميت ورجل حر . والذي يبقى حياً يشعر ، لأول مرة ، بأرض قومية تحت قدميه . ففي هذه اللحظة لا تكون (الأمة) بعيدة عنه : انه يراها حيث يمضي ، حيث يكون ، لا أبعد من ذلك أبداً ، انها تتحد بحريته . ولكن ، بعد المفاجأة الأولى ، يتحرك جيش الاستعمار : وعندئذ فإما أن يتحد المستعمَرون واما أن يقتلوا. هكذا تضعف الخلافات القبلية وتجنح الى الزوال: أولا لأنها تهدد " الثورة " بالخطر ، وثانياً (وهذا أعمق) لأنها لم يكن لها من وظيفة الا أن تحرف العنف نحو اعداء ليسوا بأعداء . وحين تبقى هذه الخلافات – كما في الكونغو – فإنما يكون مرد ذلك إلى أن عملاء الاستعمار يغذونها ويعززونها . وتسير الأمة . ويشعر كل أخ أنها موجودة في كل مكان يقاتل فيه إخوة آخرون . ان حبهم الاخوي هو الوجه الآخر للكره الذي يحملونه لكم: هم اخوة بهذا المعنى: أن كلا منهم قد قتل، وانه يمكن بين لحظة وأخرى أن يكون قد قتل . ان فانون يبين لقرائه حدود " العفوية " ويبين ضرورة " التنظيم " وأخطاره . ولكن مهما يكن مدى المهمة فان الوعي الثوري يعمق عند كل نمو في العمل وتزول العقد الاخيرة . دعك من حديثهم عن " عقدة الارتباط " لدى

جندي جيش التحرير الوطني. ان الفلاح، وقد تحرر من العماوة، أصبح يعرف حاجاته لقد كانت تقتله ، ولكنه كان يحاول أن يجهلها. وهو الآن يكتشفها مقتضيات لا نهاية لها. ففي هذا العنف الشعبي- الذي يصمد خمس سنين، وثماني سنين كما فعل الجزائريون- لا يمكن أن تتميز الضرورات الحربية والاجتماعية والسياسية بعضها عن بعض . ان الحرب- - ولو- لم تطرح الا مشكلة القيادة والمسؤوليات- تنشىء بنى جديدة ستكون أولى مؤسسات السلم . هذا هو الانسان اذاً ينشأ حتى في تقاليد جديدة هي بنى مقبلة لحاضر رهيب، هاهو ذا ينال شرعيته، بحق سيولد، بحق يولد كل يوم في نار المعركة: فمتى قتل أو رحل أو ذاب آخر مستوطن مستعمِر، زال نوع الاقلية، وأخلي المكان للاخوة الاشتراكية . وليس هذا بكاف أيضا: ان هذا المناضل يحرق المراحل. انكم لتقدرون جيداً أنه لا يجازف بجلده من أجل أن يجد نفسه في مستوى الانسان القديم، انسان " البلاد المستعمرة " . انظروا الى صبره الطويل : لقد يحلم أحياناً بـ " ديان – بيان – فو " جديدة . ولكن ثقوا أنه لا يعتمد على ذلك حق الاعتماد : انه صعلوك يناضل وهو في الفقر والبؤس ، ضد أناس أغنياء مسلحين تسليحاً قوياً . وهو اذ ينتظر الانتصارات النهائية ، أولا ينتظر شيئاً في كثير من الأحيان ، يثير في أعدائه الحقد ، ولا يتحقق هذا من غير خسارات فظيعة . ان جيش الاستعمار يصبح كاسراً : فهو يقوم بعمليات تطهير ، ويشن حملات انتقامية ، ويقتل النساء والاطفال . والمناضل يعرف ذلك : ان هذا الانسان الجديد يبدأ حياته من نهايتها . انه يعد نفسه ميتاً بالقوة . لسوف يُقتل . انه لا يرتضي أن يعرض نفسه للقتل فحسب ، بل هو موقن بأنه مقتول لا محالة . ان هذا الميت بالقوة قد فقد زوجته وأبناءه . لقد بلغ من فرط رؤيته لاحتضار الآخرين انه لا يريد أن يعيش بقدر ما يريد ان ينتصر . غيره سيستفيد من النصر لا هو . لقد سئم هو . لكن هذه السآمة هي مصدر شجاعة لا تصدق . نحن نجد انسانيتنا سابقة على الموت واليأس ، أما هو فيجدها بعد العذاب وبعد الموت . نحن كنا ننثر هواء ، أما العاصفة فهو . انه ابن العنف يستمد منه في كل لحظة انسانيته : لقد كنا بشراً على حسابه ، وهو يصبح بشراً على حسابنا . يصبح انساناً آخر : انساناً أفضل .

❖❖❖

هنا يتوقف فانون. لقد دل على الطريق: انه وهو الناطق بلسان المناضلين، قد طالب باتحاد القارة الافريقية ضد جميع الخلافات وجميع الانقسامات، ولو شاء أن يصف وصفاً كاملاً هذه الحادثة التاريخية، أعني حادثة الخلاص من الاستعمار، لكان عليه أن يتحدث عنا، وذلك ليس موضوع كلامه. ولكننا بعد أن نقرأ كتابه يظل هذا الكتاب يتتابع فينا رغم مؤلفه. ذلك أننا نشعر بقوة الشعوب الثائرة، ونرد على هذه القوة بالقوة . فهناك اذاً لحظة جديدة من العنف، وإلينا إنما ينبغي الرجوع في هذه المرة، لأن العنف أخذ يبدلنا بمقدار ما يتبدل المستعمَر بواسطته . ان لكل انسان أن يقود أفكاره كما يشاء، ولكن شريطة أن يفكر: ففي أوروبا اليوم، أوروبا، التي أطاشت صوابها الضربات التي تكال لها، في فرنسا وفي بلجيكا وفي انكلترا، يجب أن يعد أقل تغافل فكري تواطؤاً اجرامياً مع الاستعمار. ان هذا الكتاب لم يكن في حاجة الى مقدمة، ولا سيما أنه غير موجه الينا. ومع ذلك كتبت له هذه المقدمة، من أجل أن أمضي بالديالكتيك الى أقصاه: انهم يخلصوننا من الاستعمار،- نحن أيضاً، أهل أوروبا: انهم يجتثون بعملية دامية المستعمر الموجود في كل منا . لننظر في انفسنا ، ولنر ، اذا كانت لنا شجاعة ، ما الذي يحدث لنا .

يجب أولا أن نواجه هذا المنظر غير المتوقع: تعري دعوانا الانسانية . هذه هي دعوانا الانسانية مكشوفة العورات غير جميلة . انها لم تكن الا ايديولوجيا كاذبة . لقد كانت تسويغاً مزوقاً للنهب والسلب . لقد كانت رقتها وغندرتها كفالة وضمانة لعدواننا . ان لهم وجهاً لطيفاً هؤلاء الذين لا يحبون العنف: ليسوا ضحايا ولا هم جلادون! ولكن دعك من هذا الكلام! إن لم تكونوا ضحايا ، حين تقوم الحكومة التي رفعتموها بالاستفتاء، ويقوم الجيش الذي خدم فيه اخوتكم الصغار، بأعمال إبادة للنوع الانساني، بلا تردد، وبلا عذاب ضمير ، فإنكم جلادون ولا شك. واذا اخترتم أن تكونوا ضحايا بتعريض أنفسكم لسجن يوم أو يومين، فأنتم لا تزيدون على أن تنسحبوا. ويجب ألا تنسحبوا، يجب أن تبقوا الى النهاية. افهموا أخيراً هذه الحقيقة: لو أن العنف قد بدأ في هذا المساء، ولو أن الاستغلال والاضطهاد لم يوجدا على الارض، فإن اللاعنف الذي تنادون به قد ينفع في تهدئة الاشجار . أما وأن النظام كله ، وحتى أفكار اللاعنف التي تنادون بها ، هي ثمرة اضطهاد عمره ألوف السنين ، فإن سلبيتكم لا تزيد على أن تضعكم في صف المضطهدين .

انكم تعلمون حق العلم اننا مستغلون . انكم تعلمون حق العلم اننا سلبنا " القارات الجديدة " ذهبها ومعادنها ثم بترولها ، وجئنا بذلك كله الى بلادنا القديمة . ومن حصلنا من ذلك نتائج رائعة : قصوراً وكاتدرائيات وعواصم صناعية . ثم حين كانت الأزمة تهددنا كانت وظيفة أسواق البلاد المستعمرة أن تزيل الأزمة أو أن تحول مجراها . واتخمت اوروبا بالثروات ،

ومنحت صفة الانسانية لجميع سكانها على السواء ، فالانسان في بلادنا شريك في الجريمة ، لأننا أفدنا جميعاً من استغلال المستعمرات . ان هذه القارة الدسمة الصفراء تنتهي الى ما يطلق عليه فانون اسم " النرجسية " بحق ان كوكتو ينزعج من باريز " هذه المدينة التي تتحدث في كل لحظة عن نفسها . " . وأوروبا ، هل تفعل غير هذا ؟ وذلك المسخ الذي فاق أوروبا ، أمريكا الشمالية ؟ يالها من ثرثرة : حرية ، مساواة ، أخوة ، محبة ، شرف ، وطن ، وما لا أدري أيضاً ! وكان هذا الكلام لا يمنعنا من ان نقول في الوقت نفسه كلاماً يعبر عن العصبية العرقية : زنجي قذر ! . وكان بعض الطيبيين ، الليبراليين الليّنين – أي بعض الاستعماريين الجدد - يدعون أنهم يستغربون هذا التناقض. وذلك خطأ أو كذب مقصود : فلا شيء أقرب إلى الانسجام المنطقي عندنا من نزعة انسانية عرقية ، لأن الأوروبي لم يستطع ان يجعل نفسه انساناً إلا بخلق عبيد ومسوخ . ولم تنكشف هذه الخدعة ما ظل هناك اناس يقال لهم " سكان أصليون " لقد كانوا يغطون بهذه الموضوعة المجردة ، موضوعة النوع الانساني العام ، أعمالاً لا تتفق مع هذه الموضوعة : كانوا يرون أن هناك على الجهة الأخرى من البحر كائنات هي دون الانسان ، قد تستطيع بعد ألف عام أن تصل بفضلنا إلى الحالة التي نحن عليها . كانوا إذن يخلطون بين النوع الانساني والصفوة . واليوم يكشف السكان الاصليون عن حقيقتهم ، فيكشف نادينا عن ضعفه . لقد كان نادينا أقلية لا أكثر من ذلك ولا أقل بل هناك ما هو أسوأ من ذلك : ما دام الآخرون يصبحون بشراً بمقاتلتنا ، نحن اذاً أعداء النوع الانساني . ان الصفوة تكشف عن طبيعتها الحقة : انها عصابة . ان قيمتنا الغالية تفقد اجنحتها . فلو نظرت اليها من كثب لم تجد منها واحدة غير ملطخة بالدم . غذا أردتم أمثلة فتذكروا هذه الكلمات الكبيرة : ما أكرم فرنسا ! من ؟ أنحن كرماء ؟ فما قولكم اذاً في حوادث صطيف ؟ ما قولكم في هذه السنين الثماني من حرب كاسرة أزهقت أرواح أكثر من مليون جزائري ؟ ولكن ثقوا انهم لا يأخذون علينا اننا خنا رسالة ما ، لسبب بسيط هو انه لم تكن لنا أية رسالة . ان الكرم هو بعينه موضوع الجدل . فهذه الكلمة الرنانة ليس لها إلا معنى واحد هو منح حقوق ، وهؤلاء البشر الذين نواجههم ، هؤلاء البشر الجدد المتحررون ، ليس لأحد في نظرهم قدرة على ان يمنح شيئاً لأحد ، ولا له هذا الامتياز . ان لكل امرىء جميع الحقوق . وحين سيتاح لنوعنا الانساني يوماً أن يتكون ، فلن يعرّف بأنه مجموع سكان الكرة الأرضية ، وإنما سيعرّف بأنه الوحدة اللانهائية لما بينهم من تبادل وتشارك . وهنا أقف عن الكلام ، ففي وسعكم أن تتموا العمل بغير عناء . انه ليكفيكم أن تنظروا الى فضائلنا الارستقراطية نظرة سديدة ، لأول مرة وآخر مرة ، حتى تدركوا انها تموت . وكيف لها ان تبقى حيّة بعد فناء ارستقراطية الذين أنشؤوها من أناس هم دون الانسان ! ان معلقاً برجوازياً – واستعمارياً – أراد ان

يدافع منذ بضع سنين عن الغرب فلم يجد الا هذا الكلام : " نحن لسنا ملائكة، و لكننا نحن ، نشعر بعذاب الضمير ". يا له من اعتراف " لقد كانت قارتنا تملك في القديم عوّامات أخرى : البارثنون ، شارتر، حقوق الانسان، الصليب المعقوف ونحن نعرف الآن قيمة هذه العوامات. لقد أصبحوا لا يطمعون في انقاذنا من الغرق الا بذلك الشعور المسيحي جداً ، الشعور بإثمنا. ها أنتم ترون اذاً انها النهاية: ان المياه تحف بأوروبا من كل جهة. فما الذي حدث؟ ان الجواب على هذا السؤال بسيط : لقد حدث اننا كنا نصنع التاريخ، فأصبح التاريخ الآن يصنعنا. لقد انقلبت نسبة القوى، والتخلص من الاستعمار ماض في طريقه . وكل ما يستطيع الجشعون ان يحاولوا فعله هو ان يؤخروا اتمامه.

ولا تزال " العواصم الاوروبية " العتيقة تدلي في هذا بدلوها ، وتورط في معركة خاسرة منذ الآن جميع قواها. ان هذه الوحشية الاستعمارية الهرمة التي صنعت (لبيجو) واضرابه ذلك المجد المشكوك فيه، نحن نجدها الآن في نهاية المغامرة مضاعفة وغير كافية. لقد ارسلوا الى الجزائر كل ما يمكن ارساله من قوى ما تزال ترابط هناك بغير نتيجة. لقد غيّر العنف اتجاهه ؛ كنا و نحن منتصرون، نمارسه دون ان يبدو انه يفسدنا: كان هذا العنف يحلل الآخرين ، بينما تظل انسانيتنا، نحن البشر، سليمة لم يمسسها اذى . كان سكان البلاد المستعمِرة ، وقد وحدت بينهم الفائدة، يطلقون على اشتراكيهم في الجرائم اسم الحب والاخوة. ولكن هذا العنف يُدحر اليوم في كل مكان، فيرتد هو نفسه الينا عن طريق جنودنا، فينفذ الى داخلنا، ويخالطنا مخالطة المس. لقد بدأ التراجع: ان المستعَمر يعيد تشكيل نفسه، اما نحن، المتقدمون والليبراليون ، سواء كنا مستوطنين في المستعمرات ام مقيمين في اوروبا، فاننا نتحلل. ان الحنق المسعور والخوف الشديد يتعريان منذ الآن: انهما مكشوفان في " مجازر" مدينة الجزائر. اين هم المتوحشون الآن؟ اين هي البربرية؟ لا شيء ينقص هذه المجازر حتى ولا قرع الطبول : فبينما يحرق الاوروبيون المسلمين أحياء، تصيح أبواق السيارات معلنة أن " الجزائر فرنسية ". يذكر (فانون)، ان جماعة من أطباء الأمراض العقلية أفصحوا في مؤتمر لهم، منذ زمن غير بعيد، عن حزنهم لشيوع الجريمة بين " السكان الاصليين "، وقالوا: ان هؤلاء الناس يقتل بعضهم بعضا، وهو شيء غير سوي فلا بد ان القشرة الدماغية لدى الجزائري متخلفة النمو . وقال آخرون في افريقيا الوسطى ان " الافريقي لا يستعمل الفصين الجبهيين من الدماغ إلا قليلاً جداً " . لقد يهم هؤلاء العلماء اليوم ان يتابعوا بحثهم هذا في أوروبا ، ولا سيما لدى الفرنسيين. اذ لا شك أننا، نحن أيضا، قد أصبحنا منذ زمن مصابين بكسل في الفص الجبهي من الدماغ : فأهل الوطن الواحد يقتل بعضهم بعضاً، ويستغل

بعضهم غياب بعض عن منزله حتى ينسفوا البواب والبيت . وما هذا إلا بداية: فالحرب الأهلية تتوقع ان تنشب في الخريف أو في الربيع القادم . ومع ذلك تظل تبدو الفصوص الجبهية من ادمغتنا سليمة كل السلامة: أليس الأجدر ان نقول اننا، وقد عجزنا عن سحق " السكان الاصليين " ، ارتد العنف الينا ، وتجمع في اعماقنا، وأخذ يبحث عن مخرج؟ ان اتحاد الشعب الجزائري يولد تفكك الشعب الفرنسي : في جميع المستعمرات ترقص القبائل وتتهيأ للمعركة . وترك الارهاب افريقيا ليستقر هنا: ذلك ان هنالك اشخاصا مسعورين يريدون أن ندفع دمنا ثمناً للعار الذي لحق بهم حين غلبهم " السكان الأصليون " ، وهناك أيضاً الآخرون ، جميع الآخرين الذين لا يقلون اجراماً عن غيرهم (من ذا الذي نزل إلى الشارع ، غداة حوادث بيزرت ، وغداة مذابح ايلول ، ليقول : كفى !) ، ولكنهم أكثر هدوءاً منهم : هناك الليبراليون ، والقساة القساة من (اليسار الرخو) . ان الحمى تصعد في هؤلاء أيضا. والسخط . يا له من خوف رهيب ! ان هؤلاء يحجبون حنقهم المسعور بخرافات وطقوس معقدة. فلكي يؤخروا تصفية الحساب ويوم الحقيقة، حكمّوا فينا " ساحرا كبيرا " مهمته أن يبقينا في الظلام بأي ثمن من الاثمان. ولا شيء يجدي. ان العنف الذي يطالب به بعض الناس و يكبحه آخرون يدور الآن في دائرة، ففي يوم تراه ينفجر في " متز " ، وفي الغداة تراه ينفجر في (بوردو). لقد مر من هنا "، وسيمر من هناك : انها لعبة الحلقة. اننا نسير بدورنا في الطريق الذي يؤدي إلى حالة سكان اصليين، نسير في هذا الطريق خطوة بعد خطوة. ولكن لكي نصبح " سكاناً أصليين " تماماً ، يجب ان يحتل ارضنا اولئك الذين كانوا مستعمَرين وان نتضور جوعاً . وهذا لن يكون : لا . ولكن الاستعمار المنهار هو الذي يصبح في نفوسنا مسأص وسرعان ما سوف يمتطينا فارساً مريضاً مختالاً . هذا " زارنا " ولسوف تقتنعون ، حين تقرؤون الفصل الأخير من كتاب فانون ، بأنه خير لمرء أن يكون من السكان الأصليين " في أسوأ لحظة من لحظات البؤس ، من ان يكون مستوطناً مستعمراً . ليس من الخير أن يكون موظف من موظفي الشرطة مضطراً الى التعذيب عشر ساعات في اليوم : انه بهذا معرّض لانهيار الأعصاب ، اللهم الا أن نمنع الجلادين من العمل ساعات اضافية في سبيل مصلحتهم ذاتها . وحين نريد ان نحمي بقوة القوانين روح الأمة والجيش ، ليس من الخير أن يجرد الجيش الأمة من روحها على نحو منظم مطرد ، لا ولا أن تعهد بلاد ذات تقاليد جمهورية ، بمئات الألوف من شبانها الى ضباط عصاة . ليس من الخير ، يا أهل وطني ، وانتم تعرفون جميع الجرائم التي ترتكب باسمنا ، ألا تهمسوا بكلمة لأحد ، حتى ولا لروحكم ، مخافة ان يكون عليكم أن تحكموا على أنفسكم . لقد كنتم في اول الأمر تجهلون – أحب ان أصدق ذلك – ثم اصبحتم ترتابون ، والآن انتم تعلمون ، ولكنكم تظلون صامتين . ثماني سنين من الصمت ، ذلك أمر يدنس . وعبثاً تصمتون : ان شمس التعذيب

التي تبهر الأعين هي اليوم في رابعة النهار تضيء البلاد كلها . وتحت هذا الضياء ، لم تبق ضحكة ترن رنيناً صادقاً ، ولم يبق أحد لا يطلي وجهه اخفاء للغضب أو الخوف ، ولم يبق فعل لا يفضح اشمئزازنا وتواطؤنا . انه ليكفي الآن ان يجتمع فرنسيان حتى توجد بينهما جثة .. بل جثث .. لقد كانت كلمة فرنسا ، في الماضي ، اسما لبلد ، فحذار أن تصبح كلمة فرنسا عام ١٩٦١ اسما لمرض من أمراض العُصاب .

أترانا نشفى ؟ نعم . ان العنف ، كحربة آخيل ، يمكن أن يلأم الجروح التي يحدثها . نحن الآن مكبلون ، مذلون ، مرضى بالخوف ، في الحضيض . ومن حسن الحظ ان الارستقراطية الاستعمارية لا يكفيها هذا " انها لا تستطيع أن تتم رسالتها التأخيرية في الجزائر إلا بعد أن تستعمر الفرنسيين . ونحن نتراجع كل يوم عن خوض المعركة ، ولكن ثقوا أننا لن نستطيع تحاشيها . انهم في حاجة اليها ، هؤلاء القتلة . لسوف يسرقوننا من سررنا الوثيرة ويضربوننا فيمن يضربون . وبذلك ينتهي عهد السحرة والتمائم . فاما ان تقاتلوا واما ان تعفنوا في المعسكرات . هذه آخر لحظات الديالكتيك . انكم تستنكرون هذه الحرب ، ولكنكم لا تجرؤون بعد على اعلان تضامنكم مع المناضلين الجزائريين . لا تخافوا ، اعتمدوا على المستوطنين المستعمرين وعلى أصحاب المصالح الجشعين : لسوف يجعلونكم تثبون الخطوة وثباً . ولعلكم عندئذ ، وقد جعل ظهركم الى الجدار ، تطلقون أخيرا عقال هذا العنف الجديد الذي تبعثه فيكم جرائم يعاد ارتكابها . ولكن هذه قصة أخرى ، كما يقال . هي قصة الانسان . واني لعلى يقين بأن الزمن الذي نلتحق فيه بأولئك الذين يصنعون قصة الانسان ، قريب لا ريب فيه .

ايلول (سبتمبر) ١٩٦١

جان بول سارتر

في العنف

سواء أقلنا تحريراً وطنياً، أم نهضة قومية ، أم انبعاثاً شعبياً ، أم اتحاد بين الشعوب ، وكيف كانت العناوين المستعملة والمصطلحات الجديدة، فإن محو الاستعمار إنما هو حدث عنيف دائماً . ان محو الاستعمار، على أي مستوى درسناه : سواء أكان مستوى لقاء الأفراد بعضهم ببعض، أم مستوى تسمية النوادي الرياضية بأسماء جديدة ، أم مستوى التشكيل الانساني لحفلات الكوكتيل وأجهزة الشرطة ومجالس إدارة المصارف القومية أو الخاصة ، إنما هو إحلال " نوع " إنساني محل " نوع " انساني آخر، إحلالا كلياً ، كاملاً ، مطلقاً ، بلا مراحل انتقال . وفي وسعنا طبعاً أن نبين أيضاً انبثاق أمة جديدة، وقيام دولة جديدة مع علاقاتها الدبلوماسية واتجاهها السياسي والاقتصادي . ولكنني إنما اخترت أن أتحدث عن هذا النوع من المحو الذي يحدد في البداية كل إزالة للاستعمار . والحق أن دليل النجاح انما هو تبديل صورة المجتمع تبديلاً تاماً . وهذا التبديل يستمد خطورته الخارقة من أنه قد أريد إرادة ملحة شديدة . فإن ضرورة هذا التبديل قائمة في وجدان وحياة الرجال والنساء المستعمرين على حالة فجة جارفة قاهرة . ولكن احتمال هذا التبدل يعيشه أيضاً وجدان " نوع " آخر من الرجال والنساء، هو نوع " المستعمرين "، على صورة مستقبل مروّع رهيب .

ان محو الاستعمار ، وهو يستهدف تغيير نظام العالم، انما هو "، كما ترون، برنامج لقلب النظم قلباً مطلقاً . ولكنه لا يمكن أن يكون ثمرة عملية سحرية أو زلزال طبيعي أو تفاهم ودي، أي أنه لا يمكن أن يُفهم ولا يمكن أن يُعقل ، ولا يمكن أن يصبح واضحاً لنفسه، الا بمقدار ادراك الحركة الصانعة للتاريخ التي تهب له شكله ومضمونه . ان محو الاستعمار انما هو نزال بين قوتين متعارضتين أساساً، قوتين تستمد كل منهما صفتها الخاصة من ذلك التكوين الذي يفرزه الظرف الاستعماري ويغذيه. ان التجابه الاول الذي تم بين هاتين القوتين انما تم تحت شعار العنف، كما ان تساكنهما- أو قل استغلال المستعمِر للمستعمَر- انما تلاحق بدعم قوى من الحرب والمدافع. ان المستعمِر والمستعمَر يعرف أحدهما الآخر من زمان طويل. والمستعمِر حين يقول انه " يعرفهم " ، هو على حق فيما يقول. فالمستعمِر هو الذي صنع المستعمَر وما يزال يصنعه ، ان المستعمِر يستمد حقيقته، أي خيراته "، من النظام الاستعماري.

ومحو الاستعمار لا يمكن أن يعبر عبوراً دون أن يلاحظه أحد، لأنه يتناول الوجود، لأنه يغير الوجود تغييراً أساسياً ، لأن أناساً مشاهدين يسحقهم انهم ليس لهم ماهية ، يأتي محو الاستعمار هذا فيحيلهم أناساً فعالين ممتازين يدخلون تيار التاريخ دخولاً رائعاً . إن محو الاستعمار يبث في الوجود ايقاعاً خاصاً يجيء به الرجال الجدد، ويحمل الى الوجود لغة خاصة وانسانية جديدة. ان محو الاستعمار لهو خالق رجال جدد حقاً . ولكن هذا الخلق لا يستمد مشروعيته من ية قوة فوق الطبيعة : ان المستعمر : " الشيء " ، يصبح انساناً بمقدار ما يحققه من عمل لتحرير ذاته .

ففي محو الاستعمار يجب اذاً تغيير الوضع الاستعماري تغييراً كاملاً . ويمكن أن يقوم تعريفه ، اذا أردنا أن نصفه وصفاً دقيقاً ، في هذه العبارة المعروفة : " الأواخر سيصبحون الأوائل ". إن محو الاستعمار تحقيق لهذه الجملة. ولذلك فان كل محو للاستعمار هو من ناحية الوصف نجاح.

إن محو الاستعمار حين يُعرض عارياً ، يكشف من خلال مساماته كلها ، عن رصاصات حمر وخناجر دامية . ذلك أنه إذا كان على الأواخر أن يصبحوا هم الأوائل، فإن هذا لا يمكن أن يتم الا بعد قتال حاسم مميت يخوضه الطرفان المتنازعان . ان هذه الارادة الثابتة التي تريد أن تنقل الأواخر الى طليعة الصف ، وأن تجعلهم يتسلقون (بسرعة مفرطة كما يقول بعضهم) الدرجات المعروفة التي يتألف منها مجتمع منظم ، هذه الارادة لا يمكن أن تنتصر إلا اذا ألقيت في الميزان جميع الوسائل ، ومنها وسيلة العنف طبعاً .

انك لا تستطيع أن تفكك نظام مجتمع من المجتمعات، مهما يكن بدائياً ، ببرنامج كهذا البرنامج ، ما لم تعزم أمرك منذ البداية، أي منذ وضع هذا البرنامج نفسه ، على ان تحطم جميع الحواجز التي ستلقاها في طريقك . والمستعمَر الذي يقرر أن يحقق هذا البرنامج "، أن يكون له المحرك، مهيأ للعنف منذ زمن طويل . لقد أدرك منذ ولادته ادراكاً واضحاً أن هذا العالم المضيّق، المزروع بأنواع المنع ، لا يمكن تبديله إلا بالعنف المطلق .

ان العالم الذي يسوده النظام الاستعماري هو عالم مقسم . ومن نافلة القول طبعاً ، على صعيد الوصف ، ان نذكر ان هناك مدناً للسكان الأصليين ومدناً للأوروبيين ، وأن هناك مدارس للسكان الأصليين ومدارس للأوروبيين ؛ كما أنه من نافلة القول أن نذكر التمييز العنصري في جنوب افريقيا. ومع ذلك فإننا حين ندخل الى صميم هذا التقسيم، نجني فائدة واحدة على

الأقل، هي أننا نستطيع عندئذ أن نبرز بعض خطوط القوى التي يضمها. إن دراستنا للعالم الاستعماري وتنظيمه وترتيبه الجغرافي ستتيح لنا أن نعيق خطوط التداخل التي ستبدأ بها إعادة تنظيم المجتمع الذي تخلص من الاستعمار.

ان العالم المستعمر منقسم الى عالمين . والخط القاسم ، أو الحدود الفاصلة ، انما هي الثكنات ومراكز الشرطة . فالدركي والشرطي في المستعمرات هما المرجع القيم الشرعي الذي يستطيع المستعمَر أن يرجع اليه وأن يخاطبه، وهما الجهة التي تنطق بلسان المستعمِر ونظام الاضطهاد. اننا نرى في المجتمعات التي تنتمي إلى الطراز الرأسمالي، ان التعليم، سواء أكان دينياً أم علمانياً ، وتكوين المنعكسات الاخلاقية التي يأخذه الأبناء عن الآباء ، والشرف المثالي الذي يسند الى عمال يمنحون الأوسمة بعد خمسين عاماً أنفقوها في القيام بخدمات طيبة مستقيمة ، وتشجيع حب الاتزان والتعقل ، هذه الأشكال الجمالية لاحترام النظام القائم تخلق حول المستغل جواً من الخضوع والامتنان يخففان عبء قوى الأمن تخفيفاً كبيراً اننا نرى في البلاد الرأسمالية طائفة كبيرة من أساتذة الأخلاق، والموجهين ، " والمصلحين " تقف حائلا بين المستغَل والسلطة الحاكمة. أما في المناطق المستعمَرة فان الدركي والشرطي ، بحضورهما المباشر وتدخلاتهما السريعة الكثيرة، يظلان على اتصال بالمستعمَر وينصحانه بالعصا أو بالمواد المحرقة، ألا يتحرك . و هكذا ترون أن وسيط السلطة الحاكمة يستعمل هنا لغة هي عنف صرف . ان الوسيط لا يخفف هنا الاضطهاد ولا يسدل على السيطرة حجاباً... انه يعرضهما انه يظهرهما. ان الوسيط يحمل العنف هنا الى بيوت المستعمَر والى أدمغته.

والمنطقة التي يسكنها المستعمَرون لا تكمّل المنطقة التي يسكنها المستعمِرون . ان هاتين المنطقتين تتعارضان ، ولكن لا في سبيل وحدة أعلى. انهما تخضعان لمنطق أرسطي صرف، انهما تخضعان لمبدأ التنافي المتبادل، فلا سبيل الى مصالحة : ان أحد الطرفين زائد يجب أن يزول. ان مدينة المستعمِر (المستوطن) مدينة صلبة مبنية بالحجر والحديد، مدينة أنوارها ساطعة، وشوارعها معبدة بالأسفلت ، وصناديق القمامة فيها ما تنفك تبلغ نفايات ما عرفها الآخرون، ولا رأوها يوماً ، ولا حلموا بها يوماً . والمستعمِر لا ترى قدماه عاريتين قط، اللهم إلا على شواطىء البحر ، ولكن الآخرين لا يمكن أن يقتربوا منهما اقتراباً كافياً . قدمان تحميهما أحذية متينة، مع أن شوارع مدينتهما نظيفة ، ملساء، لا ثقوب فيها ولا حصى .

أما مدينة المستعمَر، أو مدينة السكان الأصليين، أما القرية الزنجية، أما بلدة الأهالي، أما الحي الذي يحظر على الأوروبيين أن يتجولوا فيه، فهو مكان سيىء السمعة يسكنه أناس سيئو السمعة . فيه يولد المرء أين كان، وكيف كان . وفيه يموت المرء أين كان ، وبأي شيء كان . هو عالم بلا فواصل، الناس يتكدسون فيه بعضهم فوق بعض ، ان مدينة المستعمَر مدينة جائعة، جائعة الى الخبز، والى اللحم، والى الأحذية، والى الفحم، والى النور . مدينة المستعمَر مدينة جاثية، مدينة راكعة، مدينة متدحرجة في الوحل .

انها مدينة زنوج ، مدينة عرب. والنظرة التي يلقيها المستعمَر على مدينة المستعمِر هي نظرة شهوة ، هي نظرة حسد. ان المستعمَر يحلم بالتملك، بجميع انواع التملك : أن يأكل على المائدة التي يأكل عليها المستعمِر، أن ينام في الفراش الذي ينام فيه المستعمِر ، ان المستعمَر حسود . والمستعمِر لا يجهل هذا ، فهو حين يلحظ نظرة المستعمَر خلسة ، يقول في مرارة : " انهم يريدون أن يحتلوا مكاننا ". هذا صحيح : ما من مستعمَر إلا ويحلم مرة في اليوم على الأقل ، أن يأخذ مكان المستعمِر .

هذا العالم المقسم، هذا العالم المقسم قسمين، يسكنه نوعان مختلفان . والطابع الخاص الذي يطبع النظام الاستعماري، هو أن الوقائع الاقتصادية ، هو أن الفروق الاقتصادية والتفاوت الكبير في طرز المعيشة، لا تستطيع أبداً أن تحجب الوقائع الانسانية . حين ند رك النظام الاستعماري في واقعه المباشر، نلاحظ ان ما يقسم العالم إنما هو أولاً انتساب المرء أو عدم انتسابه إلى نوع معين ، إلى عرق معين . ان البنيان التحتي الاقتصادي هو في المستعمرات بنيان فوقي أيضاً . السبب هنا نتيجة : المرء غني لأنه أبيض ، وأبيض لأنه غني . لذلك كان على (التحليلات الماركسية) أن تخفف من حدتها قليلاً حين تعالج مشكلة المستعمرات . وحتى مفهوم المجتمع السابق على الرأسمالية ، الذي أجاد (ماركس) دراسته ، يتطلب هنا إعادة التفكير فيه . ان ماهية العبد غير ماهية الفارس ، ولكن لا بد من الاستناد الى الحق الالهي لإضفاء صفة الشرعية على هذا الفرق القائم . ان الاجنبي في المستعمرات ، قد جاء من مكان آخر وفرض نفسه بمدافعه وآلاته . فالمستعمر يظل أجنبياً رغم نجاحه في التطويع ورغم التملك الذي حققه لنفسه . ان ما يميّز " الطبقة الحاكمة " أولاً وقبل كل شيء ليس هو المصانع ولا الأملاك ولا الرصيد في البنك ، فإنما النوع الحاكم هو أولاً وقبل كل شيء (النوع الذي جاء من مكان آخر) ، النوع الذي لا يشبه السكان الأصليين ، هو نوع " الآخرين" .

والعنف الذي سيطر على ترتيب العالم الاستعماري، والذي عمل بلا كلال على تحطيم صور الحياة الاجتماعية لدى السكان الاصليين، وخرّب بلا قيود طرز الاقتصاد، وأشكال المظهر ، والملبس، سيطالب به المستعمَر وسيتولاه، في اللحظة التي يقرر فيها أن يكون هو التاريخ أعمالاً، فإذا الجمهور المستعمَر يهوي على هذه المدن الممنوعة عنه. ان تحطيم العالم الاستعماري هو بعد الآن صورة واضحة المعالم بينة السمات للعمل الذي يجب على المستعمَر أن يقوم به صورة يفهمها كل الفهم كل فرد من الافراد الذين يتألف منهم الشعب المستعمَر، ويستطيع أن يستعيدها ثم يستعيدها مرة بعد مرة. وتحطيم العالم الاستعماري لا يعني أنه سيحافظ على ممرات بين المنطقتين، بعد إزالة الحدود التي تفصل احداهما عن الاخرى . ان تحطيم العالم الاستعماري لا يعني الا شيئا واحداً هو ازالة احدى هاتين المنطقتين، فاما دفنها في أعمق أعماق الأرض واما طردها من البلاد.

وتغيير المستعمَر للعالم الاستعماري ليس معركة عقلية بين وجهتي نظر ، ليس خطاباً في المساواة بين البشر، وإنما هو تأكيد عنيف (لأصالة) تفرض مطلقة . ان العالم الاستعماري عالم ثنائي. والمستعمِر لا يكتفي بأن يجد مجال المستعمَر ، باستعمال القوة المادية، أي بواسطة شرطته ودركه. وانما هو يجعل من المستعمَر روح الشر وخلاصته، كأنه يدل بذلك على أن الاستغلال الاستعماري كلي شامل ، انهم لا يكتفون بأن يصفوا المجتمع المستعمَر بأنه خال من القيم. ان المستعمِر لا يكتفي بالقول إن القيم قد نزحت عن المجتمع المستعمَر، أو انها لم توجد فيه يوماً . وإنما هو يعلن أن السكان الأصليين لا سبيل لنفاذ الأخلاق الى أنفسهم، وان القيم لا وجود لها عندهم ، بل انهم إنكار للقيم ، أو قل انهم أعداء للقيم. فالمستعمَر بهذا المعنى هو الشر المطلق. انه عنصر متلف يحطم كل ما يقاربه، عنصر مخرب يشوه كل ما له صلة بالجمال أو الأخلاق، إنه مستودع قوى شيطانية، انه أداة لقوى عمياء ، أداة لا وعي لها ولا سبيل الى اصلاحها. وهذا مسيو ماير يقول جاداً في " الجمعية الوطنية الفرنسية ": ان علينا ألا نلوث الجمهورية بادخال الشعب الجزائري إليها . ذلك أن القيم تتسمم وتفسد على نحو لا يمكن اصلاحه متى جعلها تحتك بالشعب المستعمَر. إن عادات المستعمَر وتقاليده، وخرافاته، خاصة خرافاته ، هي بعينها علامة هذا الانحطاط وهذا الفساد القائم في تكوينه ذاته . ولذلك يجب أن نضع على مستوى واحد مبيدات الحشرات التي تنقل الأمراض ، والديانة المسيحية التي تحارب الهرطقات والغرائز والشر في مهدها. إن التقدم في القضاء على الحمى الصفراء والتقدم في نشر دين الانجيل أمران متشابهان . ولكن البلاغات المظفرة التي تنشرها الارساليات التبشيرية تدلنا على ان خمائر الضياع المنبثة في جسم

الشعب المستعمَر هي على جانب كبير من القوة وحديثي هنا عن الديانة المسيحية، ولا حق لأحد أن يدهش من ذلك. ان الكنيسة هي في المستعمرات كنيسة بيض، كنيسة أجانب. انها لاتدعو الانسان المستعمَر الى طريق الله ، وإنما تدعوه الى طريق الانسان الأبيض ، الى طريق السيد المتسلط ، الى طريق المضطهِد الغاشم . وانتم تعلمون أن في تاريخ البعثات التبشيرية هذا كثيراً من المكلفين وقليلاً من المختارين .

وتمضي هذه الثنائية أحياناً الى أقصى منطقها ، فتجرد المستعمَر من انسانيته ، حتى لتعده حيواناً . انظر الى هذه اللغة التي يتكلمها المستعمِر حين يتكلم عن المستعمَر ، تجد أنها اللغة المستعملة في وصف الحيوانات : انهم يستعملون هذه التعابير : زحف العرق الأصفر ، أرواث المدينة الأصلية ، قطعان الأهالي ، تفريخ السكان ، تنمل الجماهير ، الخ . ان المستعمِر حين يريد ان يحسن الوصف وأن يجد الكلمة المناسبة ، يرجع دائماً الى الألفاظ المستعملة في وصف الحيوان . والأوروبي قلما يتلبث على هذه الألفاظ المشتملة على استعارات . ولكن المستعمَر الذي يدرك غرض المستعمِر ، يعرف فوراً ما انصرف إليه ذهن صاحبه . وهذا بعض ما يجري على لسان المستعمِر من مصطلحات : هؤلاء السكان الذين يدبون على الأرض ، هذه الجماهير المهسترة، هذه الوجوه التي فرت منها كل معنى انساني ، هذه الأجسام المترهلة التي لا تشبه شيئاً من الأشياء، هذا القطيع الذي لا رأس له ولا ذنب، هؤلاء الأطفال الذين لا يبدو أن لهم أهلاً ، هذا الكسل المستلقي تحت الشمس ، هذه الحياة التي تشبه حياة النباتات الخ .. ولقد تكلم (دوغول) عن " الجموع الصفراء " ، وتكلم مسيو (مورياك) عن الكتل السوداء والسمراء والصفراء التي تهم أن تندفع أمواجها . ان المستعمَر يعرف هذا كله ، ويضحك كلما اكتشف نفسه حيواناً في أقوال الأخر . ذلك أنه يعرف أنه ليس بحيوان . وهو في الوقت الذي يدرك فيه أنه انسان ، يأخذ بشحذ أسلحته ليحقق انتصار انسانيته .

ومتى أخذ المستعمَر يرسخ أقدامه على قواعدها ، ويقلق المستعمِر أوفدوا اليه رجالاً أخياراً يحدثونه في " مؤتمرات الثقافة " عن خصائص القيم الغربية وعن غناها . ولكن كلما دار الحديث عن القيم الغربية حدث لدى المستعمَر نوع من التصلب والتشنج العضلي . انهم في فترة التحرر من الاستعمار يناشدون عقل المستعمَرين ، ويعرضون عليهم قيماً أكيدة ، ويشرحون لهم في كثير من الإفاضة أن التحرر من الاستعمار يجب ألا يعني التقهقر إلى وراء ، وان عليهم أن يعتمدوا على قيم مجرّبة وطيدة راسخة . غير ان ما يحدث هو أن المستعمَر حين يسمع خطاباً عن الثقافة الغربية ، يخرج خنجره أو يتلمسه في مكانه ليتأكد من وجوده . ذلك ان العنف الذي كفل تفوق قيم

البيض ، وان العدوان الذي لابس المعركة الظافرة التي خاضتها هذه القيم مع انماط الحياة والفكر الخاصة بالمستعمَرين ، يجعلان المستعمَر يسخر حين يتحدث أحد أمامه عن هذه القيم . ان المستعمِر لا يتوقف أثناء فترة الاستعمار عن عمله في انهاك المستعمَر وتحطيمه ، الا إذا اعترف له هذا بتفوق قيم البيض اعترافاً صريحاً واضحاً . وفي فترة التخلص من الاستعمار تسخر الجماهير المستعمَرة من هذه القيم ذاتها ، بل تهينها وتبصقها بصقاً .

وهذه الظاهرة تكون في العادة مقنّعة ، ذلك أن بعض المثقفين قد قاموا ، اثناء فترة الاستعمار ، بحوار مع برجوازية البلاد الاستعمارية . لقد كان الاستعماريون لا يرون أهل البلاد المستعمَرة الا كتلة غير متميزة . والشخصيات القليلة التي اتيح للبورجوازيين الاستعماريين أن يعرفوها من أهل البلاد لم تؤثر تأثيراً كافياً في تلك النظرة المباشرة لتحملهم على تعديلها . اما في فترة التحرر من الاستعمار فإن البر جوازية الاستعمارية ، تسعى في كثير من الحماسة المحمومة الى عقد صلات بالنخبة المثقفة . ومع تلك النخبة المثقفة انما شرعوا في ذلك الحوار حول القيم . ان البر جوازية الاستعمارية ، حين تدرك عجزها عن الاستمرار في السيطرة على البلاد المستعمَرة ، تقرر ان تخوض معركة خلفية ، في ميدان الثقافة ، والقيم والتكنيك ، وما إلى ذلك . ولكن الامر الذي يجب ألا يغيب عن البال هو أن السواد الأعظم من الشعوب المستعمَرة لا يمكن أن تنفذ اليه هذه المشكلات . فالقيمة الأساسية عند الشعب المستعمَر ، انما هي الأرض ، لأنها هي القيمة المحسوسة الملموسة ، الأرض التي تكفل الخبز ، والتي تكفل (الكرامة) طبعاً ، ولكن الكرامة التي تكفلها لا شأن لها بكرامة " الشخصية الانسانية " التي يتحدث عنها الاستعماريون . ان الشعب المستعمَر لم يسمع يوماً بهذه الشخصية الانسانية الخيالية . وما رآه على أرضه بأم عينه هو ان يعتقل لغير ذنب جناه ، وانه يضرب وانه يجوع . إنه لم ير في يوم من الايام استاذاً من اساتذة الاخلاق ولا رجلا من رجال الدين المسيحي يأتي ليتلقى عنه اللطمات ، أو ليعطيه قسما من خبزه . الاخلاقية عند المستعمَر هي أن يتخلص من غطرسة المستعمِر ، هي ان يحطم عنفه الشامخ ، أي أن يطرده من الميدان طرداً كاملاً . ان المبدأ القائل إن البشر جميعاً متساوون سيتحقق في المستعمرات متى اعتبر المستعمَر انه ندّ للمستعمِر ، ومتى خطا خطوة أخرى فقرر أن يقاتل في سبيل أن يكون أكثر من المستعمِر ، وها هو ذا قرر ان يحل محل المستعمِر ، أن يأخذ مكانه . وبذلك ترون عالماً برمته ينهار ، عالماً مادياً ومعنوياً . ان المثقف الذي تبع الاستعماري على مستوى العموميات المجردة يريد ان يعيش المستعمِر والمستعمَر في سلام في عالم جديد ، ولكن الأمر الذي

يعمى عنه ، لأن الروح الاستعمارية قد تغلغلت فيه مع طرائقها في التفكير ، هو ان المستعمِر لن يهمه البقاء ولا التعايش السلمي متى زال الوضع الاستعماري .

ليس مصادفة أن الاقلية الاوروبية التي تسمى " ليبرالية "، قد أعلنت رأيها حتى قبل أن تبدأ المفاوضات بين الحكومة الجزائرية والحكومة الفرنسية، فقالت انها تطالب بأن تكون لها جنسيتان. انك حين تنظر الى الامور على المستوى المجرد تفرض على المستعمر المستوطن أن يثب في المجهول وثبة محسوسة، و يجب ان نعترف بأن المستعمر المستوطن يعلم حق العلم بأنه ما من أقوال طنانة رنانة يمكن أن تقوم مقام الواقع .

يكتشف المستعمَر إذاً أن حياته وتنفسه وخفقات قلبه لا تختلف لم عن حياة المستعمِر وعن تنفسه وعن ضربات قلبه. ويكتشف أن جلد المستعمِر ليس خيراً من جلد رجل من السكان الأصليين. ويحدث هذا الاكتشاف هزة أساسية في العالم . إن كل ما يحس به المستعمَر من ثقة جديدة ثورية إنما ينبع من هذا : اذا كان لحياتي من القيمة مثل ما لحياة المستعمِر، فلن تخيفني بعد الآن نظرته ، لن تسمرني في مكاني. لن يجمّدني صوته. لن أضطرب أمامه. لن أعبأ به . لن يربكني وجوده، بل إنني منذ الآن أعد له من الكمائن ما يجعله في القريب لايجد لنفسه مخرجاً غير الهرب.

قلنا ان الوضع الاستعماري يتميز بانه يفرض على العالم انقساماً ثنائياً . والتحرر من الاستعمار يوحّد هذا العالم، اذ يخلصه من فقدان التجانس بقرار جذري ، يوحّده على أساس الأمة ، وعلى أساس العرق أحياناً . انكم تعرفون تلك الكلمة القوية التي قالها الوطنيون السنغاليون مشيرين الى مناورات رئيسهم صنغور : ((لقد طلبنا ان تصبح الوظائف للافريقيين، وها هو ذا صنغور يجعل الأوروبيين أفريقيين)) . معنى هذا أن المستعمَر قادر على أن يدرك إدراكاً مباشراً مطلقاً هل تحقق التخلص من الاستعمار أم لا : فالحد الادنى المطلوب هو أن يصبح الأواخر هم الأوائل ..

ولكن المثقف المستعمَر يُدخل على هذا المطلب بعض التعديلات، ولا يعوزه أن يخترع لهذه التعديلات ما يسوّغها ويبررها ، فيتكلم عن الاستعانة بموظفين اداريين ، وبموظفين فنيين ، وبمختصين . غير أن المستعمَر يدرك أن هذه التذرعات إن هي إلا مناورات تخريبية، وليس نادراً أن تسمع من يقول هنا وهناك: " ما فائدة الاستقلال اذاً ؟ "

في المناطق المستعمَرة التي شب فيها نضال حقيقي من اجل التحرر من الاستعمار ، في المناطق التي سال فيها دم الشعب ، في المناطق التي أتاح فيها طول المرحلة المسلحة للمثقفين أن يعودوا الى القواعد الشعبية، نشاهد استئصالاً حقيقياً للأفكار التي استمدها هؤلاء المثقفون من الاوساط البرجوازية الاستعمارية . ان البرجوازية الاستعمارية قد استطاعت في حوارها النرجسي مع نفسها، وبواسطة رجالها الجامعيين ، أن تغرس في أعماق فكر المستعمَر أن الماهيات تبقى خالدة. رغم جميع الأخطاء التي تنسب إلى البشر ، وهم يعنون الماهيات الغربية طبعاً . وكان المستعمَر يسلم بهذه الأفكار ، فكان حارساً يقظاً مكلفاً الدفاع عن الثقافة الاغريقية اللاتينية أصبح يقف في ثنية من ثنايا عقله . أما أثناء الكفاح من أجل التحرر ، في اللحظة التي يسترد فيها المستعمَر اتصاله بشعبه ، فإن هذا الحارس المصطنع يتهشم . فإذا جميع القيم التي تسمى قيم البحر الأبيض المتوسط التي تنادي بانتصار الشخصية الانسانية وتدعو الى الوضوح والجمال ، تصبح دمى لاحياة فيها ولا لون لها ، واذا جميع تلك الخطب تبدو تركيبات ألفاظ ميتة . ان هذه القيم التي كان يلوح أنها تسمو بالنفس يتضح الآن أنها لا فائدة منها ولا جدوى فيها لأنها لا تتصل اتصالاً مباشراً بالمعركة المحسوسة التي يخوضها الشعب .

والفردية تأتي في طليعة هذه القيم. لقد أخذ المثقف المستعمَر عن أساتذته أن على الفرد أن يؤكد ذاته. لقد غرست البورجوازية الاستعمارية في ذهن المستعمَر أن المجتمع مؤلف من أفراد لكل منهم ذاتيته الخاصة، و أن الغنى إنما هو غنى الفكر . غير ان المستعمَر الذي يتاح له أن يغوص في شعبه أثناء فترة الكفاح من أجل التحرير يدرك فساد هذه النظرية، بل إن أشكال تنظيم الكفاح ستزوده بلغة جديدة . إن كلمات الأخ والأخت والرفيق كلمات نبذتها البورجوازية الاستعمارية ، فالأخ عندها هو محفظة النقود، والرفيق عندها هو الصفقة الرابحة . وهكذا يشهد المثقف المستعمَر فناء جميع أصنامه احتراقاً بالنار: الأنانية والانتقاد المتكبر، والغباء الغر الذي يحمل صاحبه على أن يريد أن يكون له القول الفصل . وسيكتشف هذا المثقف المستعمَر الذي خربته الثقافة الاستعمارية ، سيكتشف أيضاً ان للمجالس التي تؤلف في القرى قوة كبيرة، وان للجان التي تتألف من أفراد الشعب متانة هائلة، وان للاجتماعات التي تعقد للحي أو للخلية خصوبة ما بعدها خصوبة . فقضية كل فرد من الأفراد لن تكون عندئذ إلا قضية جميع الأفراد ، لأنهم إما أن يكتشفهم جنود الاستعمار جميعاً ، فيقتلوهم جميعاً ، واما ان ينجوا جميعاً . ان ((نجاة الفرد بنفسه)) ، وهي شكل كافر من أشكال السلامة ، هي في هذا الميدان أمر مرفوض .

ويكثر الناس منذ زمن من الحديث، عن النقد الذاتي ، فهل عرفوا أولاً أن هذا نظام افريقي؟ ان التقاليد، سواء في اجتماعات ((الجماعة)) بافريقيا الشمالية أم في الاجتماعات التي تعقد بافريقيا الغربية، توجب أن تفض النزاعات التي تقوم في قرية من القرى، على رؤوس الاشهاد. وهذا نقد ذاتي جماعي طبعاً ، ولكن على شيء من المرح، لأن جميع الناس يكونون بعيدين عن التوتر، ولأنهم يريدون في آخر الأمر أشياء واحدة . ان المثقف ليهجر الحساب والسكوت الصلف ، والأفكار المخبأة ، والآراء المتخفية ، والسر ، أن المثقف ليهجر هذا كله كلما غاص في الشعب . ومن الحق أن نقول ان الجماعة تنقر عند ذلك نفسه ، فتخلق ضوءها الخاص وتفكيرها الخاص .

ولكن يحدث أن تتم تصفية الاستعمار في مناطق لم يهزها الكفاح التحريري هزاً كافياً ، فاذا نحن نصادف هؤلاء المثقفين أنفسهم الذين يتصفون بالبراعة والمكر والحذق في تحقيق أغراضهم الشخصية ، وإذ نحن نجد فيهم عين أنماط السلوك وأشكال التفكير التي التقطوها من معاشرتهم للبورجوازية الاستعمارية ؛ لقد كانوا للاستعمار أبناءه المدللين ، وهم الآن للسلطة أبناؤها المدللون أيضاً ، ينهبون الموارد الوطنية نهباً ، ويندفعون إلى الإثراء بالصفقات والسرقات المشروعة اندفاعاً لا يعرف الرحمة ، عن طريق الاستيراد والتصدير ، والشركات المغفلة ، ومضاربات البورصة ، والرشوة ، على أكتاف البؤس الذي أصبح الآن وطنياً إنهم يطالبون في الحاح أن تكون الأعمال التجارية في أيدي أبناء الأمة وحدهم أي أن تحصر الأسواق والفرص المواتية في أبناء الأمة وحدهم . ومعنى ذلك عندهم أن تحصر سرقة الأمة في أبناء الأمة . ولا شك أن نجاح أساليبهم الماكرة سرعان ما يثير غضيب الشعب وعنفه ، اثناء فترة القحط الوطني هذه ، اثناء ما يسمى بفترة التقشف . ذلك أن هذا الشعب البائس الذي نال استقلاله في الظروف الافريقية والدولية الراهنة ، يسير نحو الوعي الاجتماعي بخطا حثيثة . ولن تلبث النفوس الصغيرة أن تدرك هذه الحقيقة في وقت قريب .

لقد كان على المستعمَر من أجل أن يستطيع هضم ثقافة مضطهديه وأن يغامر في رحابها ، كان عليه ان يقدم ضمانات . ومن بين هذه الضمانات تبني أشكال التفكير الخاصة بالبورجوازية الاستعمارية . نلاحظ هذا في عجز المثقف المستعمَر عن المحاورة ، لأنه لا يستطيع أن يتجرد عن ماهيته ازاء الموضوع أو الفكرة . أما حين يناضل في صفوف الشعب فإنه لا ينفك ينتقل من دهشة الى دهشة . إن ما يراه من صدق الشعب وشرفه يسقط في يده . والخطر الذي يتربص به عندئذ انما هو الانسياق الكامل ، فإذا هو لا يزيد على أن يثني على كل جملة يقولها الشعب ، وإذا كل

جملة يقولها الشعب تصير في نفسه الى حكمة لا يأتيها الباطل . على أن الفلاح والمتعطل والجائع لا يدّعون الحقيقة . انهم لا يزعمون أنهم الحقيقة ، لأنهم الحقيقة في وجودهم ذاته .

ان المثقف يتصرف في هذه الفترة تصرف رجل انتهازي رخيص. والحق أن مناوراته لم تنقطع لحظة. والشعب لا يريد أن يبعده أو أن يحرجه. فما يريده الشعب هو أن يكون كل شيء مشتركاً.. ووجود ذلك الميل الغريب الى التفاصيل لدى المثقف هو الذي سيؤجل انغماس المثقف في الموجة الشعبية العارمة . لا لأن الشعب عاجز عن التحليل . فهو يحب ان تشرح له الأمور ، هو يحب ان يفهم مفاصل استدلال من الاستدلالات، يحب أن يرى الى أين هو ذاهب. ولكن المثقف المستعمَر ، في أول اتصاله بالشعب ، يركز اهتمامه على التفاصيل الدقيقة ويصل من ذلك الى نسيان هدف الكفاح نفسه ، ألا وهو إلحاق الهزيمة بالاستعمار . انه وقد جرفته حركة الكفاح المتعددة الأشكال ، يميل إلى التركز على مهمات محلية يتابعها في حماسه ، ولكنه يسرف في تقدير عظمتها . انه لا يرى الكل في كل وقت . انه يجيء بفكرة الفروع والاختصاصات والميادين، فيريد أن يطبقها على هذه الآلة الجبارة التي تخلط وتدمج، أعني الثورة الشعبية. انه وقد انخرط في القيام بأعمال معينة في الجبهة، يتفق له أن ينسى وحدة الحركة، حتى اذا وقع اخفاق محلي ما ، رأيته يستسلم للشك، بل لليأس أيضاً. وليس كذلك الشعب، فانه يتخذ منذ البداية مواقف اجمالية . الارض والخبز: ماذا يجب علينا أن نعمل حتى نحصل على الارض والخبز ؟ وهذه النظرة العنيدة التي ينظرها الشعب، هذه النظرة التي تبدو في الظاهر محددودة ضيقة، هي في حقيقة الامر، مثال النظرة التي تغني العمل وترفده بالقوة وتكفل له النجع.

وهناك مسألة أخرى يجب أن نقف عندها أيضاً ، هي مسألة الحقيقة . ان الشعب يرى ، في جميع الأزمان ، أن عليه ألا يقول الحقيقة الا لأهل وطنه . وما من حقيقة مطلقة ولا من خطاب عن النفس الصادقة الشفافة يمكن أن يضعضع موقفه هذا. ان المستعمَر يرد على كذب الاستعمار بكذب مماثل . ان سلوكه صريح مع أهل وطنه، منكمش غامض مع المستعمِرين. الحق عنده هو ما يعجل إنهيار النظام الاستعماري، هو ما يسهّل بزوغ الأمة . في الوضع الاستعماري ليس هناك سلوك يلتزم قول الحقيقة. وليس الخير أيضاً إلا ما يلحق ضرراً بالمستعمِرين..

وهكذا نرى الانقسام الثنائي الاول الذي كان يسود مجتمع المستعمرات يظل قائماً في فترة التحرر من الاستعمار. ذلك أن المستعمِر لا يكف أبداً عن أن يكون هو العدو، هو الخصم، هو الانسان الذي يجب القضاء عليه . ان المضطهِد يخلق في منطقته حركة ، هي حركة السيطرة

والاستغلال والنهب . وفي المنطقة الأخرى، يغذي المستعمَر المنهوب هذه الحركة على قدر ما يستطيع يغذي هذه الحركة التي تمضي بغير توقف من شواطىء البلاد الى قصور ((الوطن)) ومستودعاته. ان الارض في هذه المنطقة المجمّدة ساكنة لا تتحرك ، وأشجار النخيل تتمايل أمام السحب، وأمواج البحر تتواثب على حصى الشاطىء ، والمواد الأولية تذهب وتجيء مسوّغة وجود المستعمِر، بينما يجثو المستعمَر وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة، مسترسلا في حلم واحد خالد لا يتغير. ان حيان المستوطن ملحمة أسبه بأوديسه . انه البداية المطلقة: ((هذه الارض، نحن صنعناها)) . هو السبب الفعال المستمر : ((اذا نحن ذهبنا ، زال كل شيء، وارتدت هذه الأرض الى القرون الوسطى . " وليس أمامه الا أشخاص خاملون تهدهم الامراض و ((العادات الموروثة عن الأجداد)) ، انهم اطار جامد يسبه أن يكون من معدن، يحف بهذا النشاط المتحرك المجدد الخلاق الذي يقوم به الاستثمار الاستعماري.

نعم ان المستوطن يصنع التاريخ ويعرف أنه يصنعه. وهو يستشهد دائماً بتاريخ وطنه الأم، فيشير اشارة واضحة الى أنه هنا امتداد لذلك الوطن الأم . ومعنى هذا ان التاريخ الذي يكتبه ليس تاريخ البلد الذي ينهب خيراته بل تاريخ (امته) فيما تقوم به من طغيان واغتصاب وتجويع . ولا يمكن ان يبدّل المستعمَر هذا الجمود الذي حكم عليه به الا اذا قررا أن ينهي تاريخ الاستعمار، تاريخ النهب والسلب ، وأن يوجد تاريخ الامة، تاريخ تصفية الاستعمار.

عالم حواجز، عالم انقسام، عالم جمود، عالم تماثيل: تمثال الجنرال الذي احتل البلاد ، تمثال المهندس الذي بنى الجسر ، عالم واثق من نفسه، عالم يسحق بصخوره الظهور التي قشرت جلودها السياط ، هذا هو عالم المستعمرات. ان السكان الأصليين في هذا العالم أناس محجوزون. وليس التمييز العنصري الا شكلاً من أشكال هذا الحجز في العالم الاستعماري. ان أول شيء يتعلمه السكان الأصليون هو أن يلزموا أماكنهم ، ألا يتجاوزوا الحدود. لذلك كانت الأحلام التي يحلمها السكان الاصليون أحلاماً عضلية أحلام فعل، أحلام هجوم وعدوان . أنا أحلم بأنني أثب، بأنني أركض ، بأنني أتسلق. أحلم بأنني أضحك ، بأنني أجتاز نهراً بقفزة، بأن طائفة من السيارات تطاردني ولا تدركني. ان المستعمَر ، أثناء الاستعمار ، لا يفتا يحرر نفسه من الساعة التاسعة مساء إلى الساعة السادسة صباحاً .

والمستعمَر الذي ترسبت في عضلاته روح الهجوم والعدوان هذه، إنما يصبها أولاً على ذويه . فهذه هي الفترة التي نرى فيها الزنوج يقضي بعضهم على بعض، ونرى فيها رجال الشرطة

والقضاء يُذهلون من فرط انتشار الجرائم في شمال أفريقيا . ان المستعمَر يكون ازاء الوضع الاستعماري في حالة توتر دائم . إن عالم المستوطن عالم عدو ينبذه نبذاً ، ولكنه في الوقت نفسه عالم يستهوي المستعمَر ويثير فيه الحسد. لقد كان المستعمَر يحلم دائماً أن يأخذ مكان المستعمِر . انه لا يحلم أن يصبح مستعمِراً، ولكنه يحلم أن يحل محل المستوطن المستعمِر . ان هذا العالم المعادي، الثقيل الوطأة ، الذي لا يكف عن العدوان، لا يمثل في نظر المستعمَر جحيماً ينبغي الابتعاد عنه بأقصى سرعة ممكنة، وانما يمثل جنة قريبة التناول تحميها زبانية رهيبة، فتدفع عنها الجمهور المستعمَر بكل ما أوتيت من قوة غاشمة.

ان المستعمَر يعيش في خشية دائمة، لأنه لعجزه عن فهم تلك العلامات الكثيرة التي تفصل العالم الاستعماري عن عالمه، لا يعرف في لحظة من اللحظات أهو تجاوز الحد المرسوم أم لا. ان المستعمَر، في هذا العالم الذي رتبه الاستعماري، مذنب دائماً . وهذا الذنب ليس ذنباً مقترفاً ، وانما هو نوع من اللعنة. ولكن المستعمَر لا يعترف في قرارة نفسه بأي حكم يصدرونه في حقه ، لقد سيطروا عليه، ولكنهم لم يطوعوه. لقد عدوه متخلفاً عنهم، ولكنه غير مقتنع بأنه دونهم. إنه ينتظر بفارغ صبر أن يغفل المستعمِر قليلاً حتى ينقض عليه . لا يمكن أن نقول عن المستعمَر انه قلق أو خائف. فهو في عضلاته مترقب دائماً . انه يتوقع في كل لحظة أن يترك دور الطريدة ليمثل دور الصياد. ان المستعمَر شخص مضطهد يحلم دائماً أن يصبح مضطهِداً . وهذه الرموز الاجتماعية : رجال الدرك والأبواق التي تلعلع أصواتها في الثكنات، والاستعراضات العسكرية والعلم المرفف في الفضاء، هذه الرموز الاجتماعية التي تكبت وتحرض في آن واحد ، لا تعني عنده : " لا تتحرك " ، بل تعني : ((هيىء ضربتك تهيئة جيدة)) . فاذا مال المستعمِر الى أن ينام وأن ينسى، فإن غطرسة المستعمِر وحرصه على تجريب قوة النظام الاستعماري يذكرانه دائماً بأن المعركة الكبرى لايمكن تأجيلها الى غير نهاية. وهذا الاندفاع الى احتلال مكان المستعمِر يغذي فيه توتراً عضلياً في كل لحظة . ونحن نعلم أن وجود الحاجز في ظروف انفعالية نفسية يقوي الميل الى الحركة .

ان العلاقات بين المستعمِر والمستعمَر هي علاقات جماعة بجماعة. والمستعمِر يقاوم كثرة العدد بكثرة القوة . ان المستعمِر انسان مصاب بداء الميل الى العرض . واهتمامه بسلامته يحمله على أن يذكر المستعمَر جهاراً بأنه هو السيد: ((أنا هنا السيد)) . فيثير في المستعمَر غضباً يكبحه بهذا حين يهم أن يخرج ، ان المستعمَر موثق بالأغلال القوية التي أحكم الاستعمار إطباق حلقاتها عليه . ولكننا رأينا ان المستعمِر لا يحصل إلا على تجميد ظاهري ، أما في الداخل فيظل الرجل في

حالة غليان . وهذا التوتر العضلي ينطلق من حين إلى حين انفجارات دامية : معارك قبلية ونزاعات بين أفراد .

فعلى مستوى الأفراد نشهد أموراً تخالف المنطق حقاً : فبينما نرى المستعمِر أو الشرطي يستطيعان من أول النهار الى آخره أن يضربا المستعمَر وأن يهيناه وأن يركعاه ، نجد المستعمَر يشهر سكينه عند أيسر نظرة عدائية أو هجومية يلقيها عليه مستعمَر آخر، لأن آخر ما بقي للمستعمَر هو أن يدافع عن شخصيته تجاه مواطنه . ولما كانت الصراعات القبلية استمرارا لأحقاد قديمة مغروسة في الذاكرة ، فإن المستعمَر حين يخوض معارك الثأر بكل ما أوتي من قوة ، انما يحاول أن يقنع نفسه بأن الاستعمار لا وجود له، وان جميع الامور تجري كما كانت تجري في الماضي ، وان التاريخ يستمر.. ومن الواضح كل الوضوح أن هذا السلوك هو ، على مستوى الجماعات، نوع من ذلك ((السلوك الهروبي)) المعروف :كان هذا الانغماس في دم الأخوة يمكن ان يعمي عن رؤية العدو الحقيقي ، وأن يؤجل خوض المعركة التي لابد من خوضها ، ألا وهي المعركة المسلحة ضد الاستعمار . ان المعارك التي تقوم بين القبائل انما هي تدمير للذات ، وهذا التدمير هو احدى الطرق التي بها يتحرر المستعمَر من توتر عضلاته .

وهذا السلوك كله انما هو انتحار تجاه الخطر ، انتحار يسمح للمستعمِر الذي تقوى بذلك حياته وتشتد سيطرته ، أن يقول بهذه المناسبة نفسها أن هؤلاء الناس ليسوا عقلاء . وهناك وسيلة أخرى يعمد إليها المستعمَر من أجل ألا يعبأ بالمستعمِر ، وهي الدين . فبواسطة الايمان بالقدر يجرّد المضطهِد من المسؤولية ، باعتبار ان الله علة كل شيء ، فهو الذي أراد هذه الآلام وهذا البؤس، وهو الذي رسم هذا المصير، فعلى الفرد أن يقبل هذا الفناء الذي أراده الله ، وهكذا يخضع للمستعمِر مذعناً للقضاء والقدر ، ويصل من ذلك بنوع من تحقيق التوازن الداخلي ، الى هدوء كهدوء الصخر .

وتجري الحياة في أثناء ذلك. ومن الخرافات الراعبة ، الكثيرة في المجتمعات المتخلفة ، انما يمضي المستعمَر يستمد أسباباً تمنع روح الهجوم عنده من الانطلاق ، فهو يتصور وجود جن شريرة تتربص به كلما حاول ان يتحرك ، ويتصور وجود بشر اسود ، وبشر أفاع ، وكلاب لها ست ارجل ، وغيلان ، وعدد لا نهاية له من الكائنات الصغيرة أو العملاقة ، تبني من حوله محرمات وسدوداً وموانع أرهب من العالم الاستعماري نفسه .

إن هذا الجو الخرافي السحري الذي يخيف الفرد يتصرف تصرف واقع لا سبيل الى الشك فيه ، وهو إذ يبث الرعب في الفرد ، يدخل هذا الفرد في تقاليد بلده أو قبيلته ، يدخله في تاريخهما ، وهو في الوقت نفسه يطمئنه ، يعطيه حقوقاً ويمنحه هوية . إن عالم الاسرار في البلدان المتخلفة هو عالم جماعي لا شأن له بغير السحر . إنه إذ يقيدني بتلك الأغلال الوثيقة ، ويجعلني أكرر أعمالاً بعينها على ثبات جامد ، إنما يؤكد لي استمرار عالم هو عالمي هو عالمنا . صدقوني إذا قلت لكم أن أشباح الغيلان مفزعة أكثر من المستعمِرين . ولا تكون مشكلة المستعمَر عندئذ أن يصفي أمره مع العالم الاستعماري المصفح بالحديد ، وإنما تكون مشكلته أن يفكر ثلاث مرات قبل أن يبول أو أن يبصق أو أن يخرج في الليل .

ان القوى الغيبية السحرية تبدو له قوى جبارة، وبذلك تصغر قوى المستعمِر في نظره كثيراً ، وتخرج من نطاق اهتمامه ، ولا يكون عليه بعد ذلك أن يكافحها ، لأن أعداءه الخرافيين هم الذين يرهبونه قبل كل شيء . وهكذا تنحل الأمور كلها في معارك دائمة على مستوى الوهم والخيال .

ولكن حين يجيء كفاح التحرير ، فإن هذا الشعب الذي كان قبل ذلك مقسماً الى طوائف وهمية ، هذا الشعب الذي كان فريسة رعب هائل لا يغلب ، وكان مع ذلك سعيداً بضياعه في زوبعة الأوهام ، يتبدل أثناء كفاح التحرير ، وينظم نفسه تنظيماً جديداً ، ويخلق في وسط الدم والدموع مهمات واقعية جداً ، مباشرة جداً . فتقديم الطعام للمجاهدين ، والقيام بأعمال الحراسة والمراقبة ، ومساعدة الأسر المحرومة مما يقيم الأود ، والنهوض بأعباء زوج قتل أو سجن ، تلك مهمات محسوسة ملكوسة يدعى إليها الشعب أثناء كفاح التحرير .

والحياة الانفعالية لدى المستعمَر في العالم الاستعماري تجري على السطح كجرح نازف ، والنفس تنقبض وتتفصد ، وتفرغ شحناتها مظاهر عضلية جعلت بعض ((كبار العلماء)) يقولون عن المستعمَر إنه انسان مصاب بالهستيريا . ان هذه الانفعالية المتوفزة التي يراقبها حرس لا يرون ، ولكنها تتصل بنواة الشخصية رأساً ، لا بد ان تجد لذتها في تلك الانحلالات الحركية التي تلاحظ أثناء حدوث النوبة .

وعلى جانب آخر نرى انفعالية المستعمَر تنطلق في أنواع من الرقص يخرج بصاحبه عن طوره ، ويجعله في حالة من النشوة . ولذلك كان على كل دراسة تتناول العالم المستعمَر أن تعنى حتماً بفهم ظاهرة الرقص والمس . إن المستعمَر يفرج عن نفسه في هذه الحفلات الصاخبة التي تجد

فيها العدوانية مهما تكن حادة ، ويجد فيها العنف مهما يكن مباشراً ، مجاري وسبيلا الى التحول والتلاشي . إن حلقة الرقص حلقة إباحة ، حلقة تحمي وتجيز. ففي ساعات محددة، من أيام معينة ، يجتمع رجال ونساء في مكان بذاته، ويأخذون يقومون على مرأى من القبيلة بحركات تمثيلية يوهم ظاهرها بأنها فوضى، ولكنها في حقيقة الأمر منظمة جداً ، فبأساليب مختلفة ، كهز الرأس وحني الظهر واندفاع الجسم كله إلى وراء ، تبذل الجماعة جهداً كبيراً في سبيل أن تخرج ذاتها، ان تعبر عن نفسها . وكل شيء مباح في الحلقة. والأمكنة التي يتم فيها ذلك كله أمكنة مقدسة : الجبل الصغير الذي يصعدون اليه كأنما ليقتربوا من القمر، والضفة التي ينحدرون اليها كأنما ليظهروا الوحدة بين الرقص والتطهّر. واذا كان كل شيء مباحاً ، فلأنهم لم يجتمعوا الا من أجل أن يدعوا للعدوانية المكبوحة أن تنفجر انفجار البركان . يجب أن تتخفف النفس من أثقالها: فها هم يقومون بأعمال ترمز الى القتل ، وبحركات تمثل الفروسية، وبأفعال تصور الإبادة. ان عليهم أن يتخففوا من هذا كله بالوهم والخيال. فبذلك تنطلق حمم الغضب من اعماق النفس انطلاق قذائف البركان من باطن الارض.

وما هي إلا خطوة أخرى حتى نجد أنفسنا أمام ظاهرة المس ، ظاهرة شعور الفرد بأنه ممسوس، بأن كائناً غيبياً قد تسلل اليه واستحوذ عليه . ان تلك الجلسات التي نشهدها لدى هؤلاء الناس إنما هي ظاهرة مس وتحرر من المس : مس من الجن والشياطين والأشباح والارباب، الخ. فهذه الانواع من التفتت في الشخصية، والازدواج في الشخصية، من التحلل في الشخصية، إنما تقوم بوظيفة أساسية في تأمين السكون في العالم المستعمَر. ان الرجال والنساء يذهبون الى تلك الجلسات وقد نفذ صبرهم وتوفزت اعصابهم ، حتى اذا عادوا كان الهدوء والسلام والسكون يهيمن على القرية.

ولكننا نشهد في أثناء كفاح التحرير برء المجتمع من أمراض هذه الطقوس . ان المستعمَر حين يُجعل ظهره الى الجدار، وتوضع السكين على عنقه، يضطر إلى هجر تلك الخزعبلات. انه بعد أن أنفق من عمره سنوات في الأوهام والأخيلة ، بعد أن غرق في تلك التهاويل الغريبة ! يمسك الآن رشاشه بيده ويقاتل القوى التي كانت وحدها تنكر وجوده وكيانه، أعني قوى الاستعمار . والمستعمَر الشاب الذي ينمو ويترعرع في هذا الجو من الحديد والنار يستطيع أن يسخر – وهو يسخر حقاً – من الأجداد الأشباح ، والخيول ذات الرأسين ، والموتى الذين يستيقظون ، والجن الذين يترقبون أن يتثاءب المرء حتى يتسللوا الى جسمه ؛ ان المستعمَر يكتشف الواقع ويبدله حين يقوم بحركة نضالية ، ويمارس العنف ، ويعمل في سبيل التحرير .

لقد رأينا هذا العنف أثناء فترة الاستعمار يدور على فراغ، ورأينا شحناته تنفرغ في الرقص أو في الحفلات التي تعقد لطرد العفاريت من المسوسين ؛ ورأيناه يُستنفد في خصومات يقتل فيها الأخوة اخوتهم . والمسألة الآن هي ان نقبض على هذا العنف الذي ينحرف عن سبيله ويضل عن غايته . لقد كان قبل الآن ينصرف في ترهات خرافية ، وكان يحاول أن يكتشف مناسبات انتحار جماعي ، غير ان ظروفاً جديدة ستتيح له الآن أن يغير اتجاهه .

هناك على مستوى التكتيك السياسي وعلى مستوى التاريخ مسألة نظرية هي على جانب عظيم من خطورة الشأن ، يطرحها في العصر الراهن تحرير المستعمرات ، هذه المسألة هي : متى يمكن القول أن الوضع قد (نضج) الى الحد الذي يجب فيه القيام بحركة تحرير وطني ؟ ومن الطليعة التي يجب ان تقوم بهذه الحركة ؟ فلأن القضاء على الاستعمار قد اتخذ اشكالا مختلفة وصورا متعددة فإن العقل يتردد ازاء هذه المسألة، ويمتنع عن القطع برأي فيما هو قضاء حقيقي على الاستعمار وفيما هو تصفية كاذبة للاستعمار. وسنرى ان على الانسان الذي قرر الانخراط في المعركة ان يحدد الوسائل والتكتيك، أي أن يعين السلوك والتنظيم ، وإلا لم يكن الامر الا امر اندفاع اعمى ، مع ما يستتبعه هذا الاندفاع الأعمى من مخاطر الرجعة والانتكاس.

ما القوى التي تقترح على المستعمِر في فترة الاستعمار أن- يصب عنفه في طرق جديدة وأن ينفق طاقاته في اعمال جديدة؟ هذه القوى هي اولا الاحزاب السياسية والنخبة المثقفة أو النخبة التجارية. ونحن نعلم ان ما يميز بعض التشكيلات السياسية هي أنها تنادي بمبادىء ولكنها تمتنع عن إطلاق شعارات. وكل النشاط الذي تقوم به هذه الاحزاب السياسية الوطنية انما هو في فترة الاستعمار نشاط من النوع الانتخابي ، هو سلسلة من المقالات الفلسفية السياسية حول فكرة حق الشعوب في تقرير مصيرها، وحق البشر في الكرامة والخبز ؛ هو ترديد لا ينقطع للمبدأ القائل ((ان لكل فرد صوتاً)) . ان الأحزاب السياسية الوطنية لا تلح أبداً على ضرورة استعمال القوة ، لأن هدفها ليس هو قلب النظام القائم واستئصاله من جذوره . ان هذه (الأحزاب السياسية) أحزاب مسالمة ، تنادي بالمشروعية ، وتناصر في حقيقة الأمر النظام ... الجديد ، ولا تزيد على أن توجه إلى البرجوازية الاستعمارية هذا الطلب : ((اعطونا مزيداً من السلطة)) . وأما (النخبة المثقفة) ، فهي في مسألة العنف ليس لها وجه تعرف به ، هي عنيفة في الأقوال ، اصلاحية في المواقف والأعمال . ان المنظمات السياسية الوطنية البورجوازية تقول شيئاً وتعني غيره .

ويجب أن نفسر هذه الخاصة التي تميز الاحزاب السياسية الوطنية، بأمرين في آن واحد هما نوع قادتها ونوع قاعدتها . ان قاعدة الأحزاب السياسية الوطنية تتألف من أفراد من سكان المدن . وهؤلاء العمال والمعلمون وأصحاب الحرف والتجار، الذين بدؤوا يستفيدون من الوضع الاستعماري ولو استفادة ضئيلة هؤلاء لهم مصالح خاصة. وما تطالب به هذه القاعدة الشعبية في الاحزاب السياسية إنما هو تحسين احوالها وزيادة أجورها. والحوار بين هذه الأحزاب السياسية وبين الاستعمار لم ينقطع يوما. فهي تبحث في تحسين الاحوال وفي التمثيل الانتخابي، وفي حرية الصحافة وحرية الاجتماع. انها تبحث في الاصلاحات ولذلك يجب ألا يدهشنا أن أرى عددا كبيرا من السكان الاصليين ينتمون إلى فروع المنظمات السياسية الموجودة في البلد المستعمِر. ان هؤلاء ينادون بشعار مجرد: ((السلطة لطبقة البروليتاريا)) ناسين ان شعارات وطنية هي التي يجب أن تكون أساس المعركة في منطقتهم . أن المثقف المستعمَر ينفق طاقته الهجومية في صبوة مكشوفة الى التشبه بالعالم الاستعماري لقد وضع طاقته الهجومية في خدمة مصالحه الخاصة، وهي مصالح أفراد. وبذلك تنشأ، بسهولة، طبقة من العبيد المحررين فرديا ؛ ان ما يطالب به المثقف هو تكثير عدد هؤلاء المحررين، هو اقامة طبقة من المحررين. وليس كذلك الجماهير، فانها لا تهدف إلى زيادة فرص نجاح الأفراد. ان ما تريده ليس هو الحصول على الحقوق التي يتمتع بها المستعمِر ، بل هو أخذ مكان هذا المستعمِر: ان الاكثرية الساحقة من المستعمَرين تريد ان تستولي على مزرعة المستعمِر. ليس هدفهم ان يكونوا والمستعمِر انداد متنافسين، وانما هدفهم ان يحلوا محله.

ان الدعاية التي تتقدم بها معظم الأحزاب السياسية تغفل طبقة الفلاحين دائماً ، مع أن من الواضح ان طبقة الفلاحين في البلاد المستعمَرة هي الطبقة الثورية الوحيدة . ان هذه الطبقة لا تخشى أن تخسر بالثورة شيئاً ، بل تطمع أن تكسب بالثورة كل شيء . والفلاح، المنبوذ، الجائع، هو الانسان المستغَل الذي يكشف قبل غيره أن العنف وحده هو الوسيلة المجدية. انه امرؤ ليس عنده حل وسط ، ولا مجال عنده لتسوية ؛ والقوة وحدها هي التي تحدد في رأيه بقاء الاستعمار أو زواله . ان هذا المستغَل يدرك ان تحرره يقتضي استعمال جميع الوسائل، وأولها القوة . حين أعلنت جبهة التحرير الوطني عام ١٩٥٦ بعد استسلام جي موليه للمستعمرين الفرنسيين، حين أعلنت في منشور شهير لها، ان الاستعمار لا يرفع يده الا اذا جعلت السكين في عنقه، لم يجد أي جزائري صادق ان هذه الألفاظ عنيفة . لقد كان ذلك المنشور ينطق بلسان جميع الجزائريين ويفصح عما رسخ في أعمق أعماق ضمائرهم من ان الاستعمار ليس آلة مفكرة، ليس جسما مزوداً بعقل ، وإنما هو عنف هائج لايمكن ان يخضع الا لعنف أقوى .

وحين أزفت ساعة الحساب الحاسم، رأينا البورجوازية الاستعمارية التي ظلت إلى ذلك الحين مبتعدة ، رأيناها تتدخل، منادية بهذه الفكرة الجديدة التي هي في حقيقة الأمر من مبتكرات الدفع الاستعماري ، ألا وهي فكرة ((اللاعنف)) . وفهمت النخبة المثقفة والاقتصادية المستعمَرة من مناداة البورجوازية الاستعمارية ((باللاعنف)) على هذه الصورة الخاصة ان لهذه البورجوازية الاستعمارية نفس المصالح التي لها، وان من الضروري المستعجل والحالة هذه ان تبادر الى عقد اتفاق معها يضمن السلامة للطرفين. ان اللاعنف هو محاولة لتسوية المسألة الاستعمارية على مائدة خضراء قبل التورط في أية حركة لا سبيل الى تراجعها، قبل اهراق الدم ، قبل القيام بأي عمل مؤسف، حتى اذا رأوا الجماهير، قبل أن يصفوا الكراسي حول المائدة الخضراء ، تأبى أن تسمع غير صوت ضميرها، فتبادر الى استعمال الحرائق والقيام بهجماتها، هرعوا- أي افراد ((النخبة)) وقادة الأحزاب البورجوزية الوطنية- هرعوا الى الاستعماريين يقولون لهم : ((الأمر خطير جداً . وليس يدري المرء كيف يمكن ان ينتهي هذا كله. فلا بد من ايجاد حل ، لا بد من ايجاد تسوية)) .

وفكرة التسوية هذه هامة جدا في ظاهرة التحرر من الاستعمار، لأنها ليست بسيطة . فالتسوية تتناول في الواقع (النظام الاستعماري) و (البورجوازية الوطنية) الناشئة . ان قادة النظام الاستعماري يكتشفون ان الجماهير تهم أن تحطم كل شيء. فنسف الجسور، وتخريب المزارع ، وأنواع القمع، والحرب ذلك كله يطعن الاقتصاد طعنا قاسيا. والتسوية تهم البورجوازية الوطنية أيضاً ، فهذه البورجوازية الوطنية تخشى النتائج التي يمكن ان تنجم عن هذا الاعصار الجبار، وتخاف ان تكنسها هذه الريح العاصفة، فلا تفتأ تقول للمعمَّرين : ((اننا ما زلنا قادرين على ان نوقف المذبحة، فالجماهير ما تزال تثق بنا فأسرعوا إذا كنتم لا تريدون ان تعرضوا للمخاطر كل شيء)) . وما هي الا خطوة واحدة ، حتى نرى موجّه الحزب الوطني يعلن معارضته لهذا العنف، ويقول بصوت عال لا شأن له بهؤلاء (الماو ماو)، لا شأن له بهؤلاء (الارهابيين)، لا شأن له بهؤلاء الذباحين. وهو في أحسن الحالات يقف في ((منطقة محرمة)) تفصل بين الارهابيين والمعمرين، ويعرض نفسه ((وسيطا)) بين الطرفين، ومعنى هذا انه لما كان المعمرون لا يستطيعون ان يبحثوا الامر مع هؤلاء (الماو ماو)، فهو يتطوع للقيام بالمفاوضات. وهكذا نرى الناس الذين كانوا في مؤخرة الكفاح الوطني ، الناس الذين لم يشتركوا يوما في النضال يصبحون بنوع من البهلوانية طليعة المفاوضين في سبيل ايجاد تسوية- لا لشيء الا لأنهم حرصوا دائما على أن تبقى الصلة قائمة بينهم وبين الاستعمار .

قبل المفاوضات، تكتفي أكثر الاحزاب الوطنية ، في أحسن الاحوال ، بأن تلتمس المعاذير لهذه ((الوحشية)) ، انها لا تطالب بالكفاح الشعبي، و ليس نادراً ان نراها تنتقد، في حلقات مغلقة، تلك الاعمال التي تصفها صحافة البلد المستعمِر ويصفها رأيه العام بأنها منكرة كريهة. وهذه السياسة التجميدية تتعلل بالحرص على كل رواية الامور رواية موضوعية. ولكن هذا الموقف الذي يقفه المثقف المستعمَر ويقفه قادة الاحزاب الوطنية ليس في حقيقة الامر موقفا موضوعياً ، وانما الواقع أن هؤلاء الناس ليسوا على ثقة بأن هذا العنف الجامح الذي تعمد اليه الجماهير هو السبيل الاجدى الى الدفاح عن مصالحهم الخاصة . ثم أنهم غير مقتنعين بجدوى الاساليب العنيفة. وعندهم انه لا يجوز الشك في أن كل محاولة لتحطيم الاضطهاد الاستعماري بالقوة انما هي سلوك يأس، سلوك انتحار ، ذلك أن دبابات المعمرين والطائرات المقاتلة تحتل في أدمغتهم مكاناً كبيراً . فمتى قلت لهم : يجب علينا ان نعمل ، رأوا القنابل تتساقط فوق رؤوسهم ، ورأوا الدبابات تزجف على طول الطريق ، ورأوا الرشاشات ، والشرطة ... فظلوا قاعدين لا يتحركون . ان عجزهم عن الانتصار بالعنف أمر لا حاجة الى البرهان عليه ، انهم يبرهنون على هذا العجز في حياتهم اليومية وفي مناوراتهم. انهم يظلون عند ذلك الموقف الصبياني الذي تبناه (انجلز) في مجادلته الشهيرة مع ((دهرنج)) ذلك الجبل من الصبيانية: ((كما استطاع روبنسون ان يحصل على سيف، ففي وسعنا ايضا ان نتصور ان يظهر فاندرودي ذات صباح وفي يده مسدس مشحون، وعندئذ تنقلب نسبة العنف رأساً على عقب ، فاذا فاندرودي هو الذي يأمر واذا روبنسون هو الذي يكد ويشقى ... فالمسدس يتغلب اذاً على السيف، بل ان أكثر عشاق البديهيات صبيانية في وسعه ان يتصور ان العنف ليس فعل ارادة فحسب، وانما هو يقتضي شروطاً تحضيرية واقعية جدا، ويقتضي على وجه الخصوص ادوات يتغلب أكملها على الأقل كمالا ، وان هذه الادوات، عدا ذلك، يجب انتاجها، ومعنى هذا أن الذي ينتج أدوات للعنف أكمل ... يتغلب على من ينتج أدوات للعنف أقل كمالاً ، وزبدة القول ان انتصار العنف يقوم على انتاج الاسلحة، وانتاج الاسلحة يستند الى الانتاج بوجه عام... أي يقوم اذاً على ((القوة الاقتصادية)) على الدولة الاقتصادية، على الوسائل المادية التي توضع تحت تصرف العنف)) الواقع أن القادة الاصلاحيين لا يقولون شيئا آخر: ((بأي شيء تريدون ان تحاربوا المعمرين ؟ بسكاكينكم ؟ ببنادق الصيد التي عندكم؟)) .

صحيح ان الادوات هامة في ميدان العنف، لان كل شيء يتوقف آخر الأمر على توزع هذه الادوات. ولكن تحرير الاراضي المستعمَرة يأتينا بأضواء جديدة في هذا المجال. لقد رأينا مثلا أن نابوليون ، في حملة اسبانيا التي كانت حرباً استعمارية تماماً ، أجبر على التقهقر رغم جيوشه

التي بلغت أثناء هجمات الربيع من عام ١٨١٠ رقماً هائلاً هو ٤٠٠ ألف مقاتل. وكان الجيش الفرنسي أثناء ذلك يرعب أوروبا كلها بمعداته الحربية وبسالة جنوده وعبقرية ضباطه العسكرية . لقد أكتشف الاسبان الذين كان يحركهم ايمان لايتزعزع ، اكتشفوا تلك الطريقة في حرب العصابات التي كان المقاتلون الامريكان قد جربوها قبل خمسة وعشرين عاماً في محاربة الجيوش الانكليزية . ولكن حرب العصابات هذه التي يقوم بها المستعمَر لا تكون أداة عنف في وجه أدوات أخرى من أدوات العنف، ما لم تكن عنصراً جديداً في تلك العملية الشاملة، عملية التنافس بين التروستات والاحتكارات.

في أول الاستعمار كان يكفي فيلق واحد لاحتلال أراض واسعة: الكونغو ، نيجيريا ، ساحل العاج الخ . أما اليوم فان الكفاح الوطني الذي يقوم به المستعمَر يدخل في ظرف جديد جدة مطلقة. لقد كانت الرأسمالية، في فترة انطلاقتها ، ترى في المستعمرات ينبوعاً لمواد أولية يمكنها أن تصبها في السوق الاوروبية بعد تصنيعها. ولكنها بعد مرحلة تجمع رأس المال وصلت اليوم الى تبديل مفهومها عن الربح الذي يحققه مشروع من المشاريع . لقد أصبحت المستعمرات سوقاً . إن سكان المستعمرات زبائن يشترون. فاذا كان لا بد للثكنات من أن تعزز الى غير نهاية، واذا بطؤت حركة التجارة، أي اذا لم يبق في الامكان تصدير المنتجات المصنعّة ، كان هذا دليلا على أن الحل العسكري يجب الابتعاد عنه. ان السيطرة العمياء التي هى نوع من الاستعباد لا تدر على البلد المستعمِر أرباحاً . والفئة الاحتكارية من بورجوازية البلد المستعمِر لا تدعم حكومة سياستها هي سياسة للسيف وحده . ان الصناعيين و رجال المال في البلد المستعمِر لا يرجون من حكومتهم أن تهلك السكان، وانما يرجون منها أن تحمي ((مصالحهم المشروعة)) باتفاقات اقتصادية .

فهناك اذاً تواطؤ موضوعي بين الرأسمالية وبين قوى العنف التي تنطلق في الأراضي المستعمَرة . ثم ان المستعمَر لا يجابه المضطهِد وحيداً . هناك طبعاً المعونة السياسية والدبلوماسية التي تقدمها البلاد التقدمية والشعوب التقدمية . ولكن هناك التنافس خاصة ، هناك تلك الحرب الضارية التي تقوم بين الطوائف الاقتصادية . ان مؤتمراً كمؤتمر برلين قد استطاع أن يقسم أفريقيا الممزقة الى ثلاثة اجنحة أو أربعة . أما الآن فليس المهم أن تكون هذه المنطقة أو تلك خاضعة للسيادة الفرنسية أو البلجيكية ، وإنما المهم حماية المناطق الاقتصادية . ان القصف بالمدافع وسياسة الأرض المحروقة ، قد حلت محلهما الآن سياسة الاخضاع الاقتصادي . ان الاستعماريين لا يخوضون الآن حرباً تأديبية ضد السلطان المتمرد . أنهم الآن أكثر لباقة ، وأقل دموية ، فهم يقررون أن يصفوا النظام القيصري تصفية سلبية . انهم يحاولون خنق غينيا، ويزيلون

مصدق. ويخطىء اذاً الزعيم الوطني الذي يخاف العنف اذ يتصور أن الاستعمار ((سيقتلنا جميعاً)) . صحيح ان العسكريين يستمرون على اللعب باللعب التي يرجع عهدها إلى أيام الفتح ، ولكن الأوساط المالية ما تلبث ان تردهم الى الواقع.

ولذلك يطلبون الى الاحزاب السياسية الوطنية العاقلة أن تعرض مطاليبها واضحة ، وأن تبحث مع الشريك الاستعماري في جو هادىء لا تعكره العواطف عن حل يكفل مصالح الطرفين وواضح أن هذه النزعة الاصلاحية الوطنية ، التي تبدو في كثير من الأحيان نوعاً من الكاريكاتير للعمل النقابي ، تعمد دائماً الى وسائل سلمية جداً اذا هي قررت أن تعمل : اضرابات عن العمل في الصناعات القليلة الموجودة في المدن ، مظاهرات جماهيرية لتأييد الزعيم ، حجز سيارات النقل أو الحاصلات المستوردة . ان هذه الأعمال كلها تحقق غرضين في آن واحد ، هي الضغط على الاستعمار واستنفاذ قوى الشعب . وهذه الطريقة في تنويم الشعب تنجح في بعض الأحيان . وعندئذ من المناقشة حول المائدة الخضراء ، ينبثق هذا التنصيب السياسي الذي يسمح للسيد ((مبا)) ، رئيس جمهورية الغابون ، أن يقول في كثير من الابهة والعظمة حين وصوله إلى باريس في زيارة رسمية : ((لقد استقلت الغابون ، ولكن بين الغابون وفرنسا لم يتبدل شيء ، بل كل شيء يستمر كما كان)) . والواقع أن التبدل الوحيد الذي تحقق هو أن السيد ((مبا)) قد أصبح رئيس الجمهورية الغابونية ، وان رئيس الجمهورية الفرنسية يستقبله .

والدين الذي لا مناص منه يساعد البورجوازية الاستعمارية في محاولة التهدئة التي تقوم بها. ان جميع القديسين الذين مدوا الخد الأيسر لمن ضربهم على الخد الأيمن، الذين غفروا لمن أساء اليهم، الذين تلقوا البصاق والإهانة دون أن يختلجوا ، ان هؤلاء جميعاً يستشهد بهم. وأفراد النخبة في البلاد المستعمرة، هؤلاء العبيد الذين اعتقوا ، لا بد أن ينتجوا بديلاً للقتال حين يكونون على رأس الحركة . إنهم يستعملون عبودية اخوتهم من أجل أن يخجل منهم المستعبدون ، أو من أجل أن يزودوا الجماعات المالية، المتنافسة مع المضطهِدين، بمضمون إيديولوجي انساني النزعة هو لهم بمثابة المصباح المرشد. انهم لا يتجهون بندائهم أبداً الى العبيد، انهم لا يفعلون ذلك حقاً في يوم من الايام، ولا يحاولون أن يعبئوا قوى هؤلاء العبيد تعبئة حقيقية، انهم يلوّحون تلويحاً بأن تعبئة الجماهير هي السلاح الحاسم الذي سيؤدي الى ((نهاية النظام الاستعماري)) ، كأنما بنوع من السحر، متظاهرين أن هذا هو ما يعتقدونه حقاً وصدقاً ، مع أنه في قرارة، أنفسهم كذب. وبطبيعة الحال لا بد أن يوجد في هذه الاحزاب السياسية، و بين أعضاء قياداتها، أناس ثوريون يديرون ظهورهم لمهزلة الاستقلال الوطني عن وعي وفهم . ولكن هؤلاء سرعان ما تنزعج آلة الحزب

من تدخلاتهم ومبادهاتهم واستياءاتهم ، فإذا بهؤلاء الثوريين يّعزلون شيئاً بعد شيء "، ثم يُبعدون عن الحزب صراحة. و في الوقت نفسه ، يتعرفهم البوليس الاستعماري. كأن هنالك نوعاً من التواقت والتلازم . فإذا صاروا في المدينة غير آمنين على أنفسهم. وصار أعضاء الحزب يتحاشونهم ، ونبذتهم سلطات الحزب ، رأينا هؤلاء المنبوذين الذين تقذف أعينهم شرراً محرقاً ، يذهبون إلى الأرياف ، وهنالك يدركون وفي رؤوسهم دوار ان جماهير الفلاحين تفهم عنهم بنصف كلمة ، وتطرح عليهم فوراً هذا السؤال الذي لم يهيئوا جوابه : ((متى نبدأ)) .

سنتحدث فيما بعد عن هذا اللقاء بين الثوريين الآتين من المدن وبين القرويين . وانما يحسن الآن أن نعود الى الاحزاب السياسية، لنبين أن لعملها مع ذلك طابعاً تقدمياً . ان الموجهين السياسيين يتحدثون في خطبهم عن الأمة. انهم ((يسمّون)) الامة . وبذلك تأخذ مطالب المستعمَر شكلا. صحيح أنه ليس هناك مضمون ، صحيح أنه ليس هنالك برنامج سياسي واجتماعي، صحيح أنه ليس هنالك الا شكل غامض مبهم ، ولكن هذا الشكل قومي ، انه اطار، وهو ما نسميه بالحد الادنى من المطالب . ان رجال السياسة الذين يخطبون ، ويكتبون في الصحف الوطنية ، يجعلون الشعب يحلم. صحيح أنهم يتحاشون فكرة نسف النظام القائم ، ولكنهم في الواقع يبثون في ضمائر المستمعين والقراء خمائر رهيبة تهيىء للنسف . وهم كثيراً ما يستعملون اللغة الوطنية أو لغة القبائل . ومن شأن هذا أيضا أن يغذي الحلم ، وأن يسمح للخيال بالطواف خارج النظام الاستعماري . هذا الى أن هؤلاء السياسيين يقولون أحياناً : ((نحن العرب، نحن الزنوج)) وهذه التسمية المثقلة بالاحتقار في عهد الاستعمار تتلقى بذلك نوعاً من الاحترام والتقديس . ان السياسيين يلعبون بالنار. ومن أجل ذلك رأينا أحد السياسيين الافريقيين يسرُّ إلى جماعة من المثقفين الشباب منذ مدة يسيرة قوله : ((فكروا قبل ان تخاطبوا الجماهير ، لأن الجماهير تلتهب مشاعرها بسرعة.)). هنالك اذاً مكر من التاريخ يتم في المستعمرات على نحو رهيب .

حين يدعو أحد السياسيين الشعب الى اجتماع ، فيمكن أن نقول ان في الهواء دماً . ومع ذلك فإن هذا السياسي لا يُعنى في أكثر الأحيان الا ((بإظهار)) قواه .. دون استعمالها . غير أن هذا التحرك المتصل- من ذهاب وإياب، واستماع الى خطب ، ورؤية الشعب مجتمعاً ، ورؤية الشرطة حوله، وقيام الجنود باستعراضات، واعتقال أفراد من الناس ، وترحيل الزعماء، الخ- هذا التحرك المتصل يُشعر الشعب بأنه قد آن له هو أن يفعل شيئاً . والأحزاب السياسية، في مثل هذه

اللحظات القلقة ، تكثر نداءاتها الى ناحية اليسار طالبة الى الشعب أن يلتزم الهدوء ، بينما هي تتطلع بأنظارها الى ناحية اليمين تستكشف الأفق وتحاول أن تحزر ما يخبئه الاستعمار من نيات .

والشعب يستعمل أيضاً بعض الأحداث من حياة الجماعة ، في سبيل أن يحافظ على شكله ، وأن يصون طاقته الثورية . من ذلك ان قاطع الطريق الذي يصمد لمطاردات رجال الدرك أياماً بكاملها ، أو الذي يُقتل في معركة فذة بعد أن يقتل أربعة من رجال الشرطة أو خمسة ، أو الذي ينتحر حتى لا ((يسلم)) رفاقه ، هؤلاء جميعاً هم بالنسبة إلى الشعب منارات ، وقدوات ، و ((ابطال)) . وليس يجدي طبعاً أن نقول عن فلان من هؤلاء الأبطال أنه لص ، أو رجل فاسد ، أو منحط . فإنه يكفي ان يكون هذا الرجل الذي تطارده السلطات الاستعمارية قد اساء إلى أحد المستعمِرين أو إلى أملاك أحد المستعمرين ، حتى يفرق بينه وبين المذنب العادي تفريقاً واضحاً .

ويجب أن نشير أيضاً الى الدور الذي يلعبه، في ظاهرة النضج هذه ، تاريخ المقاومة الوطنية عند الغزو الاستعماري. ان الوجوه الكبرى التي تظل ماثلة في خيال الشعب المستعمَر انما هي وجوه أولئك الذين قادو المقاومة الوطنية أثناء الاحتلال . ان وجوه بيهانزين، وساوندياتا، وساموري، وعبد القادر تعود إلى الحياة بقوة كبيرة في الفترة التي تسبق بدء الكفاح، وعودتها هذه بشير بأن الشعب يتهيأ لأن يستأنف السير، لأن يوقف الزمن الميت الذي حمله اليه الاستعمار ، لأن يصنع التاريخ .

إن انبثاق الأمة الجديدة، وتدمير النظم الاستعمارية هما إما ثمرة عنف يقوم به الشعب المستعمَر ، واما ثمرة العنف الذي تقوم به شعوب أخرى مستعمَرة فيضغط على النظام الاستعماري.

ان الشعب المستعمَر ليس وحيداً في المعركة . وحدوده تظل تتسرب منها الأنباء والأصداء رغم الجهود التي يبذلها الاستعمار . أنه يكتشف ان العنف يملأ الجو ، وأنه ينطلق هنا وهناك، وأنه هنا وهناك ينتصر على النظام الاستعماري . فهذا العنف الذي ينتصر لا يقوم لدى المستعمَر بدور النبأ الذي يطلعه على الأحداث ، وإنما هو يحضه على العمل . ان الانتصار الكبير الذي حققه الشعب الفيتنامي في ديان بيان فو لم يبق انتصاراً فيتنامياً فحسب، فمنذ شهر تموز من عام ١٩٥٤ أصبحت المسألة التي تطرحها الشعوب المستعمَرة على نفسها هي المسألة التالية: ((ماذا يجب أن نعمل حتى نحقق ديان بيان فو ثانية ؟ كيف يجب ان نفعل حتى نحقق ديان بيان فو ثانية ؟)) وما من مستعمَر كان يستطيع أن يشك في امكان تحقيق انتصار كذلك الانتصار الذي تحقق

في ديان بيان فو . وأصبحت عناصر المسألة هي هذه : اعداد القوى ، تنظيمها ، تحديد موعد البدء في المعركة . وهذا العنف الذي يملأ الجو لا يبدل المستعمَرين فحسب ، بل يبدل أيضاً الاستعماريين الذين يدركون أن معارك كثيرة سيكون مصيرها كمصير معركة ديان بيان فو . ولذلك فإن ذعراً كبيراً منظماً يجتاح الحكومات الاستعمارية ويستولي عليها . فإذا حديثهم يدور حول ضرورة استباق الأمور ، ضرورة تحويل حركة التحرير إلى جهة اليمين ، ضرورة تجريد الشعب من الحجج التي يترع بها ، واذا هم يقولون : ((يجب ان نبادر بسرعة الى تحرير المستعمرات)) يجب ان نحرر الكونغو قبل أن تتحول إلى ((جزائر)) يجب ان نقترع على قانون الدستور لأفريقيا ، يجب ان نبادر الى خلق ((رابطة الشعوب الفرنسية)) . يجب على كل حال أن نحرر المستعمرات ، يميناً إن علينا أن نحرر المستعمرات ... وهم يبادرون إلى هذا التحرير بسرعة تبلغ من الشدة أنهم يفرضون الاستقلال على هوفويت بواينى فرضاً . وهكذا يرد الاستعمار على استراتيجية ديان بيان فو التي يرسمها المستعمَر باستراتيجية أخرى ، هي استراتيجية منح الاستقلال واحترام سيادة الدول .

ولنعد الآن الى ذلك العنف الذي يملأ الهواء والذي رأيناه، قبل اكتمال نضجه ، يفرغ شحناته في غير الطرق السليمة . ان هذا العنف، رغم التحولات التي فرضها عليه الاستعمار، إذ جعله ينصرف في نزاعات قبلية أو محلية، يسير الآن في طريقه ، فالمستعمَر اذاً يعرف عدوه، ويسمي أنواع الشقاء التي يقاسيها، ويضع في هذا الدرب الجديد كل ما في حقده وغضبه من قوة هائلة . ولكن كيف ننتقل من العنف الذي يملأ الهواء إلى العنف الذي يتدفق في كفاح ؟ ما الشيء الذي يفجر المرجل ؟ هنالك أولا هذه الواقعة، وهي أن هذا التطور يفسد على المعمِّر طمأنينته. إن المعمِّر الذي يعرف ((هؤلاء الاهالي)) ، يدرك من بادرات كثيرة أن هناك شيئاً هو بطريق التبدل والتغيّر . لقد أصبح يندر أن يقع على أناس ((طيبين))، مسالمين. من هؤلاء الاهالي. وأصبح الاهالي يصمتون حين يقترب منهم أحد المعمِّرين . والنظرات في بعض الاحيان قاسية، والاوضاع والاحاديث تدل على روح الهجوم دلالة واضحة . و الاحزاب السياسية تتحرك وتكثر اجتماعاتها، وفي الوقت نفسه يزداد عدد رجال الشرطة، وتصل إمدادات عسكرية . إن المعمِّرين ، ولاسيما الزارعين المنعزلين في مزارعهم ، هم أول من يحس بالخطر ، فيطالبون باتخاذ إجراءات قوية .

وتعمد السلطات فعلاً الى اتخاذ اجراءات لإظهار قوتها، فتقتل زعيماً أو زعيمين، وتنظم استعراضات عسكرية، وتقوم بمناورات وتطلق طائراتها في السماء . ولكن هذه المظاهر وهذه التدريبات الحربية ورائحة البارود هذه التي تملأ الجو في هذه الأيام لا تحمل الشعب على التراجع

والتقهقر، بل ان المدافع والحراب تذكي نار الهجوم فيه. ويسود جو بطولي يريد فيه كل فرد أن يبرهن على أنه مستعد لكل شيء . وفي هذه الظروف تنطلق الطلقة من تلقاء نفسها ، لأن الأعصاب متوفزة، والخوف يملأ النفوس، والناس قد تركز إحساسها على الزناد . فما هو الا حادث تافه حتى يبدأ اطلاق الرصاص : ذلك ما حدث في صطيف بالجزائر ، وفي الكاريير سنترال بمراكش، وفي مورامانجا بمدغسقر. ولكن أعمالالقمع التي تقوم بها السلطات الاستعمارية لا تحطم انتفاضة الشعب ، بل تعجل نمو الوعي القومي . ان النوازل في المستعمرات انما تعزز الوعي الذي أخذ ينمو ، لأنها تدل على أن القوة وحدها هي التي تفض المشاكل بين المضطهِدين والمضطهَدين .

ويجب ان نذكر هنا أن الأحزاب السياسية لم تطلق شعار الثورة المسلحة ، ولا هي أعدت هذه الثورة . ان جميع هذه الأعمال العنيفة ، ان جميع هذه الأفعال التي ولدها الخوف ، لم يشأ السياسيون أن تقع . وإنما باغتتهم الحوادث مباغتة . وفي هذه اللحظة يستطيع الاستعمار أن يقرر اعتقال القادة الوطنيين . ولكن حكومات البلاد الاستعمارية تعرف اليوم حق المعرفة ان حرمان الجماهير زعيمها أمر خطر كل الخطر . لأن الشعب عندئذ ، وفقد فقد لجامه ، يندفع إلى العنف والارهاب و ((العمال الوحشية)) اندفاعاً قوياً ، ويطلق العنان ((لغرائزه الدموية)) ، فيفرض على الاستعمار اطلاق سراح الزعماء الذين تقع على عاتقهم هذه المهمة الصعبة ، وهي ان يعيدوا الهدوء والسكينة . وهكذا فإن الشعب المستعمَر الذي انطلق من تلقاء ذاته يستعمل العنف في سبيل تحقيق تلك المهمة العظيمة ، مهمة تحطيم النظام الاستعماري ، يجد نفسه بعد برهة قصيرة مقتصراً على المناداة بهذا الشعار الميت القديم ((اطلاق سراح زيد او عمرو من الناس)) وعندئذ يطلق الاستعمار سراح هؤلاء الناس ، ويبحث الأمور معهم ، وتبدأ ساعة احتفالات الابتهاج الشعبية .

وفي حالة أخرى لا يمس جهاز الاحزاب السياسية بأذى، ولكن القمع الاستعماري والحركة التي يقوم بها الشعب من تلقاء ذاته رداً على ذلك القمع، ما يلبثان أن يجعلا القاعدة الشعبية في تلك الأحزاب تطغى على قياداتها ، فالجماهير تقابل القوى العسكرية بعنف قوي ، فيتردى الوضع بالنسبة إلى الاستعمار ، والسياسيون الذين لم يعتقلوا يصبحون على الهامش أناساً متعطلين لا خير فيهم ولا في بيروقراطيتهم وبرامجهم الحكمية ، فهم بعيدون عن الحوادث ، ولكنهم لا يتورعون عن التبجح الكاذب فتراهم ((يتحدثون باسم الشعب المضطهد)) . والاستعمار في العادة يتهافت بشراهة على هذه النفاية ، ويحيل هؤلاء العاطلين الى مفاوضين ، فما هي إلا ثوانٍ أربع حتى يمنحهم الاستقلال ، ويكون عليهم بعد ذلك أن يعيدوا النظام إلى نصابه .

جميع الناس شاعرون اذاً بهذا العنف ، وليست المسألة دائماً كيف يُرد عليه بعنف أشد ، وانما هي: كيف توقف الأزمة ؟

فما هذا العنف في واقع الأمر ؟ لقد رأينا أنه إدراك الجماهير المستعمَرة ، بحدسها ، أن تحررها يجب أن يتم بالقوة ، ولا يمكن ان يتم إلا بالقوة . فكيف يصل هؤلاء الناس الذين ليس لهم خبرة ، هؤلاء الناس الجياع الضعاف ، الذين لا علم لهم بطرائق التنظيم ، كيف يصلون إزاء القوة الاقتصادية و العسكرية التي يملكها المحتل ، الى الاعتقاد بأن العنف وحده يستطيع أن يحررهم ؟ كيف يستطيعون أن يؤملوا في النصر ؟

ذلك أن العنف ، يمكن أن يكون ، من حيث هو وسيلة ، ستاراً لحزب سياسي ؛ وفي وسع قيادات حزبية أن تدعو الشعب الى كفاح مسلح . ولا بد من التفكير في هذا العنف الذي لا تضمن نتائجه . لأن تقرر العسكرية الألمانية حل مشاكل الحدود بالقوة ، فذلك أمر لا يدعو الى الدهشة ، أما ان يقرر الشعب الانغولي مثلاً أن يحمل السلاح ، أو ان ينبذ الشعب الجزائري كل وسيلة أخرى غير العنف ، فذلك يدل على ان شيئاً ما قد حدث أو هو بسبيل الحدوث . ان هؤلاء الناس المستعمَرين ، ان هؤلاء العبيد ، عبيد العصور الحديثة قد نفذ صبرهم . انهم يعلمون ان هذا الجنون وحده يستطيع أن يخلصهم من براثن الاضطهاد الاستعماري . ان نوعاً جديداً من العلاقات قد قام في العالم . ان الشعوب المتخلفة تحطم أصفادها ؛ والأمر الخارق أنها تنتصر . من الممكن أن يقال ان من السخف أن يموت الانسان جوعاً في عصر الأقمار الصناعية، ولكن الجماهير المستعمَرة لا تفسر الأمور تفسيرات قمرية من هذا النوع . والحقيقة هي أنه ما من بلد استعماري يستطيع اليوم أن يتبنى ذلك الشكل الواحد من الصراع الذي قد ينجح ، أعني الاستمرار في ارسال قوات احتلال كبيرة الى غير نهاية.

والبلاد الاستعمارية تعاني في داخلها تناقضات، وتجابه مطامع تقتضيها استعمال قواتها البوليسية. ثم ان هذه البلاد الاستعمارية هي على الصعيد الدولي محتاجة الى جيوشها لحماية نظامها السياسي . وهناك أخيراً تلك الخرافة المعروفة القائلة أن حركات التحرير تقودها موسكو ، وهذه الخرافة تعني في التعليلات المذعورة التي يعمد اليها النظام الاستعماري ما يلي : ((اذا استمرالأمر ، فالشيوعيون يمكن ان ينتهزوا فرصة هذه الاضطرابات ليتغلغلوا في هذه المناطق .)) .

ان نفاذ صبر المستعمَر وتلويحه الصريح باستعمال العنف يدلان على أنه يدرك أن الظرف الحالي ظرف استثنائي ، ويدلان على أنه ينوي الاستفادة من هذا الظرف . ولكن المستعمَر الذي

يتاح له اليوم أن يرى العالم الحديث ينفذ حتى إلى أقصى أركان البوادي ، يشعر شعوراً حاداً ، على مستوى التجربة المباشرة أيضاً ، بحرمان ، فتقتنع الجماهير ، بواسطة نوع من الاستدلال ... الصبياني ، ان هذه الاشياء كلها قد سرقت منها ؛ لذلك نراها في بعض البلاد المتخلفة ، تسير بسرعة وتفهم بعد سنتين او ثلاث من الاستقلال ، أنها كانت مغبونة ، وأن ((الأمر لم يكن ليستحق ذلك العناء كله)) اذا لم تتبدل الحال تبدلاً حقيقياً . في عام ١٧٨٩ ، بعد الثورة الجزائرية ، استفاد الفلاحون الصغار من تلك الثورة فوائد أساسية . ولكن من نافلة القول أن نذكر ان أكثرية سكان البلاد المتخلفة ، ان ٩٥٪ من سكان البلاد المتخلفة ، لا يحمل اليهم الاستقلال في معظم الحالات تغييراً مباشراً . لذلك يلاحظ المراقب الخبير أن هناك نوعاً من الاستياء الكامن يشبه تلك الحجرات التي تبقى بعد انطفاء الحريق وتهدد باندلاع النيران من جديد .

ويقولون عندئذ إن المستعمَرين يريدون أن يغالوا في السرعة. بينما كا نوا يؤكدون قبل ذلك بقليل أن المستعمَرين أناس بطيئون كسالى اتكاليون . إننا نلاحظ منذ الآن أن العنف الذي سار في طرق محددة واضحة إبان كفاح التحرير لا ينطفىء انطفاءً سحرياً بعد احتفالات رفع الرايات الوطنية ، بل يظل متقداً ولا سيما ان عهد البناء الوطني يظل يتم في إطار التنافس النهائي بين الرأسمالية والاشتراكية .

ان هذا التنافس يجعل حتى للمطالب المحلية بعداً عاماً يكاد يشمل الأرض بأسرها . فكل اجتماع ، وكل عمل من أعمال القمع ، تترجع أصداؤه في العالم كله . إن حوادث القتل التي وقعت في شاريفيل قد هزت الرأي العام العالمي أشهراً طويلة . وأصبحت شاريفيل ، في الصحف وفي محطات الاذاعة وفي الأحاديث الخاصة ، رمزاً ؛ فمن خلال حوادث شاريفيل عالج الرجال والنساء مشكلة التمييز العنصري في جنوبي افريقيا . ولا نستطيع ان نزعم أن الديماغوجية وحدها هي السبب في هذا الاهتمام المفاجىء الذي يبديه ((الكبار)) بالشؤون الصغيرة المتصلة بالمناطق المتخلفة . ان كل ثورة وكل تمرد يقعان في العالم الثالث يدخلان الآن في إطار الحرب الباردة . يكفي ان يُضرب رجلان في سالزبوري ، حتى تهتز كتلة بكاملها من الكتلتين ، وتأخذ تتحدث عن هذين الرجلين ، وتنتهز هذه الفرصة لتثير المشكلة الخاصة برووديسيا ، رابطة هذه المشكلة بمشكلة أفريقيا كلها ، وبمشكلة البشر المستعمَرين جميعاً . ولكن الكتلة الثانية ، تقيس أيضاً بمقياس سعة الحملة التي شنّت عليها ما في نظامها من نقاط الضعف . وتدرك الشعوب المستعمَرة أنه ما

من فئة من الفئتين إلا وتهتم بالحوادث المحلية ، فتكف هذه الشعوب المستعمَرة عن الاقتصار على آفاقها المحلية ، إذ يدركها هذا الجو العام المشحون بالاهتزاز .

حين يُعلن ، كل ثلاثة أشهر ، أن الاسطول السادس أو الاسطول السابع تحرك نحو هذا الشاطىء أو ذاك ؛ وحين يهدد خروتشوف بانقاذ كاسترو بالصواريخ ، وحين يقرر كندي ، بمناسبة لاوس ، أن يعمد الى الحلول القصوى ، فإن المستعمَر الذي لا يزال مستعمراً والمستعمَر الذي نال الاستقلال يشعران ، شاءا أم أبيا ، أن نوعاً من السير المسعور يجرفهما جرفاً . والواقع أنهما يسيران من قبل أن يجرفا. انظروا مثلا الى حكومات البلاد التي تحررت منذ عهد قريب. ان رجال الحكم في هذه البلاد ينفقون ثلثي وقتهم في مراقبة الاحداث التي تدور حولهم ، وفي اتقاء الخطر الذي يهددهم، وينفقون الثلث الاخير من وقتهم في العمل لبلادهم. وهم في الوقت نفسه يبحثون لأنفسهم عن دعائم . وتخضع المعارضة الوطنية لهذا المنطق نفسه ، فتدير ظهرها للطرق البرلمانية في كثير من الاحتقار ، وتمضى تبحث عن حلفاء يقبلون ان يدعموا رغبتها في القيام بثورة عنيفة . ان جو العنف الذي كان يسود المرحلة الاستعمارية ، يظل يسيطر على الحياة الوطنية . ذلك ان العالم الثالث ، كما سبق ان قلنا ذلك ، ليس مستبعداً من هذا الاعصار ، بل إنه هو في مركز الإعصار . لذلك نرى رجال الدولة في البلدان المتخلفة يظلون يستعملون في خطبهم لهجة الهجوم والغضب التي كان ينبغي في الأحوال العادية أن تزول . وما أكثر ما يكون هؤلاء القادة الجدد شرسين في أقوالهم ! ذلك امر يُفهم أيضاً . غير ان الشيء الذي يٌفهم أقل من ذلك أن هؤلاء القادة أنفسهم يظهرون كثيراً من الكياسة واللباقة في معاملة الأخوة أو الرفاق . إن الشراسة هي أولاً سلوك مع ((الآخرين)) ، مع الذين كانوا مستعمِرين ثم جاؤوا اليوم ينظرون ويتقصون . ان الشخص الذي كان مستعمَراً يشعر في كثير من الأحيان بأن النتيجة التي يريد ان ينتهي إليها هؤلاء الناس في تحقيقاتهم الصحفية عن هذه البلاد قد كتبوها قبل ان يجيئوا . وليس مجيء الصحفي إلى البلاد غلا ستاراً وتبريراً . ان الصور الفوتوغرافية التي ينشرها مع المقال تبرهن على الغرض الذي جاء من اجله . ان هدفه من كتابة التحقيق هو أن يتحقق من صدق قناعته السابقة ، وهي ان كل شيء أصبح سيئاً هنالك منذ خرجنا . ان الصحفيين يشكون دائماً من انهم يستقبلون استقبالاً سيئاً ، وأنهم يعملون في ظروف صعبة ، وانهم يصطدمون بجدار من عدم الاكتراث أو من العداوة . هذا كله طبيعي . ان القادة الوطنيين يعرفون أن الرأي العام العالمي انما تصنعه الصحافة الغربية وحدها . وحين يجيئنا صحفي غربي ويطرح علينا أسئلة ، فقلما يكون هدفه من ذلك أن يخدمنا . انظروا الى حرب الجزائر مثلاً : إن أكثر الصحفيين

الفرنسيين تحرراً لم يكفوا لحظة عن استعمال نعوت ملتبسة المعاني حين يريدون أن يصفوا ثورتنا . فإذا عوتبوا في ذلك قالوا انهم اناس موضوعيين . والمستعمَر يرى أن الموضوعية موجهة دائماً ضده . وطبيعية أيضاً تلك اللهجة الجديدة التي اغرقت الدبلوماسية الدولية في اجتماع الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٦٠ . لقد كان ممثلو البلاد المستعمَرة يتحدثون بلغة هجومية عنيفة مهينة ، ولكن الشعوب المستعمَرة لم تجد أنهم كانوا مبالغين او مغالين . ان راديكالية هؤلاء الممثلين الافريقيين الذين كانوا ينطقون بلسان الشعوب الأفريقية قد انضجت الدمَّل ، وجعلت الناس يدركون أن اعتراضات الفيتو هذه أمر غير مقبول ، وكذلك هذا الحوار بين ((الكبار)) ، ولا سيما هذا الاستخفاف بالعالم الثالث وجعل دوره محدوداً تافهاً .

ان هذه الدبلوماسية التي دشنتها الشعوب المستقلة حديثا لا تعرف اللف والدوران حول الفروق الطفيفة ، ولا تعرف المكر الذي يعلن غير ما يبطن . ذلك أن هؤلاء الناطقين باسم شعوبهم قد كلفتهم شعوبهم ان يدافعوا في آن واحد عن وحدة الأمة ، وعن تقدم الجماهير نحو الرخاء ، وعن حق الشعوب في الحرية وفي الخبز .

فهي اذاً دبلوماسية متحركة ، دبلوماسية حانقة ، تتعارض تعارضاً قوياً مع ذلك العالم الساكن، الجامد، عالم الاستعمار. حين يلوح السيد خروتشوف بحذائه في هيئة الامم المتحدة ، ويضرب به المنضدة فما من ممثل من ممثلي البلاد المتخلفة يضحك. ذلك أن ما يبينه السيد خروشوف للبلاد المستعمَرة ، هو أنه ، وهو فلاح يملك من جهة أخرى صواريخ، يعامل هؤلاء الرأسماليين الاشقياء المعاملة التي يستحقونها. وكذلك فان كاسترو الذي يتحدث في منظمة الأمم المتحدة وهو بلباسه العسكري . لا يثير استغراب البلاد المتخلفة. ذلك أن ما يبينه كاسترو هو أنه يدرك أن عهد العنف ما يزال قائماً . وإنما المستغرب أنه لا يدخل هيئة الامم المتحدة وفي يده رشاشه. ولكن ربما كانوا يعارضون في ذلك . ان الثورات، والأفعال اليائسة، والجموع المسلحة بالخناجر أو الفؤوس ، تجد وطنيتها في هذا الصراع الفائر الذي يقوم بين الرأسمالية والاشتراكية.

لقد امكن ، في عام ١٩٤٥ ، ألا يلاحظ الناس مقتل ٤٥٠٠٠ جزائري في صطيف ؛ وفي عام ١٩٤٧ أمكن أن يقتل ٩٠٠٠٠ شخصاً في مدغسقر دون ان يكون هذا الحادث إلا خبراً صغيراً في زوايا مهملة من زوايا الصحف ؛ وفي عام ١٩٥٢ أمكن أن يموت ٢٠٠٠٠٠ شخص في كينيا دون ان يكترث أحد بالأمر كبير اكتراث . ذلك ان التناقضات الدولية لم تكن في تلك الأيام حاسمة قاطعة الى

درجة كافية . صحيح ان حرب كوريا وحرب الهند الصينية كانتا قد دشنتا مرحلة جديدة . ولكن بودابست والسويس هما اللحظتنا الحاسمتان في هذه المرحلة الجديدة .

التعايش السلمي

ان المستعمَرين ، وقد قوّاهم الدعم غير المشروط الذي ينالونه من البلدان الاشتراكية ، يهجمون بالاسلحة التي معهم على هذه القلعة التي لا تقهر ، قلعة الاستعمار وإذا كانت هذه القلعة لا تخدشها السكاكين والايدي العارية ، فإنها لا تظل كذلك حين يعزم المقاتلون أمرهم على أن يحسبوا حساب حالة الحرب الباردة .

ان الامريكيين ، في هذا الظرف الجديد ، يعدون أنفسهم في كثير من الجد ، أوصياء على الرأسمالية الدولية ورعاة لها . لذلك نراهم في مرحلة أولى ينصحون البلاد الأوروبية بأن تحرر المستعمرات ودياً ، ونراهم في مرحلة ثانية لا يترددون في أن ينادوا باحترام مبدأ أفريقيا للأفريقيين أولاً ، وفي ان يدعموا هذا المبدأ بعد ذلك . ان الولايات المتحدة لا تخشى اليوم أن تعلن رسمياً أنها تدافع عن حق الشعوب في تقرير مصيرها . ان الرحلة الأخيرة التي قام بها السيد (منين وليامز) ليست مثالاً على شعور الأمريكيين بأن العالم الثالث يجب ألا يضحى به . وهنا نفهم لماذا لا يعد عنف المستعمَر عنفاً لا أمل فيه إلا إذا قورن مقارنة مجردة بالآلة العسكرية التي يملكها المضطهِدون . أما إذا وضعنا هذا العنف في موضعه من الحركية الدولية أدركنا انه يهدد المضطهِد تهديداً رهيباً . ان استمرار الثورات والاضطرابات يحدث خللاً في الحياة الاقتصادية للمستعمَرة ولكنه لا يجعل البلاد المستعمِرة في خطر . والأمر الأهم في نظر الاستعمار هو ان تتسرب الدعاية الاشتراكية الى صفوف الجماهير ، هو ان تسري هذه الدعاية الاشتراكية الى الجماهير . وهذا امر له خطورته في فترة الحرب الباردة من هذا الصراع فما بالك حين تصبح الحرب حارة : ما عسى أن تصير اليه هذه المستعمَرة التي تعج بالمحاربين ((السفاكين)) حين تصبح الحرب حارة ؟

فالرأسمالية تدرك عندئذ أن استراتيجيتها العسكرية ستخسر من نمو الحروب الوطنية، كل شيء. لذلك تضطر الرأسمالية، في اطار التعايش السلمي إلى أن تسلم بتحرر جميع المستعمرات ، وبحياد جميع المستعمرات عند الاقتضاء . فانما المهم عندها قبل كل شيء هو أن تتحاشى ما يهدد سلامة استراتيجيتها ، هو أن تتحاشى انفتاح الجماهير لعقيدة عدوة، هو أن تتحاشى أن يكرهها عشرات الملايين من الناس كرهاً جذرياً . والشعوب المستعمَرة تدرك ادراكاً كاملاً هذه الضرورات التي تسيطر على الحياة السياسية الدولية . فحتى الذين تلعلع اصواتهم في

استنكار العنف يتخذون قراراتهم ويقومون بأعمالهم على أساس هذا العنف الذي يسود الكرة الأرضية كلها . ان التعايش السلمي بين الكتلتين يغذي العنف في المستعمرات ويحرض عليه في أيامنا هذه . وربما رأينا هذا العنف ينتقل غداً الى ميدان آخر بعد تحرر المستعمرات تحرراً كاملاً . لعله يطرح غداً مشكلة الاقليات . ألسنا نرى بعض الاقليات منذ الآن لا تتردد عن المناداة باستعمال أساليب العنف لحل مشكلاتها ؟ ليس من قبيل المصادفة أن نرى المتطرفين من الزنوج في الولايات المتحدة يؤلفون فرق ميليشيا ويتسلحون . وليس من قبيل المصادفة أن نرى الجنرال ديغول يذرف بعض الدموع في إحدى خطبه ، حزناً على المسلمين الذين تضطهدهم الدكتاتورية الشيوعية . ان الرأسمالية والاستعمار يقرران أن يستعملا هذا التكتيك المجدي : ((راديو اوروبا الحرة)) ، لجنة تأييد الاقليات المغلوبة ، كما كان القادة الفرنسيون في الجزائر يقومون بتلك الحرب التخريبية مع الـ SAS والدوائر السيكولوجية . انهم ((يستخدمون الشعب ضد الشعب)) . ونحن نعلم ما الذي يؤدي إليه هذا .

ان هذا الجو من العنف والتهديد والتلويح بالصواريخ لا يخيف المستعمَرين ولا يحيّرهم . لقد رأينا ان تاريخهم الأخير كله يهيئهم ((لفعم)) هذا الظرف . ان بين العنف الاستعماري والعنف السلمي الذي يعيش في جوه العالم المعاصر نوعاً من التقابل والتجانس . وقد تلاءم المستعمرون مع هذا الجو . انهم من هذه الناحية أبناء عصرهم . قد يستغرب الناس في بعض الاحيان أن المستعمَر بدلا من أن يشتري ثوباً لزوجته ، يشتري جهاز راديو ترانزستور. ولكن يجب ألا يُستغرب هذا . ان المستعمَرين مقتنعون بأن مصيرهم يتقرر الآن. انهم يعيشون في جو نهاية العالم ، ويرون أنه ما ينبغي ان يفوتهم شيء . وهم لذلك يفهمون كل الفهم فوما وفومي ، و لومومبا وتشومبي ، وآهيجو ومومييه ، وكيناتا، وأولئك الذين يُذفون من حين إلى حين ليحلوا محلهم . انهم يفهمون هؤلاء الاشخاص كل الفهم، لأنهم يعرّون القوى الكامنة وراءهم . ان المستعمَر، ان الانسان المتخلف، هو اليوم انسان يستحق أن يوصف بأنه حيوان سياسي بأكمل معاني هذه الكلمة .

صحيح ان الاستقلال قد ردّ الى المستعمَرين شعورهم بذاتهم وعزز كرامتهم ولكن الوقت لم يتسع لهم بعد من أجل إنشاء مجتمع، ومن أجل بناء قيم وتأكيدها. ان البؤرة المشعة التي فيها ينمو المواطن والانسان ويغتنيان في ميادين ما تنفك تتسع غير موجودة بعد . وإذ ان هؤلاء الناس يعيشون في نوع من عدم التحديد، تراهم يقتنعون في سهولة بأن كل شيء سيتقرر في مكان آخر ،

بالنسبة إليهم وبالنسبة الى سائر العالم في آن واحد . أما القادة فإنهم إزاء هذا الوضع يترددون وينتخبون

الحياد :

هناك أمور كثيرة يجب أن نقولها عن الحياد . ان بعض الناس يشبهون هذا الحياد بنوع من النفعية المبوءة التي تريد أن تاخذ من اليمين واليسار. ولكن الحقيقة هي أن هذا الحياد الذي هو من ثمرات الحرب الباردة، إذا كان يتيح للبلدان المتخلفة أن تتلقى معونة اقتصادية من الطرفين فانه لا يتيح لكل من هذين الطرفين أن يساعد المناطق المتخلفة المساعدة التي ينبغي ان تقدم لها . ان هذه المبالغ الطائلة (الفلكية) التي تخصص للبحوث الحربية ، مع هؤلاء المهندسين الذين يقلبون الى اختصاصيين في الحرب النووية ، في وسعها ، خلال خمسة عشر عاماً ، أن ترفع مستوى المعيشة في البلاد المتخلفة بنسبة ٦٠٪ وواضح اذاً أن مصلحة البلاد المتخلفة ليست في إطالة هذه الحرب الباردة ولا في مفاقمة حدتها . لذلك تتحلل من اتخاذ موقف اذا هي استطاعت الى ذلك سبيلاً . ولكن هل تستطيع حقاً ؟ لنتذكر مثلاً أن فرنسا تجرب قنابلها الذرية في أفريقيا . وباستثناء الاقتراحات والاجتماعات والقطيعات الدبلوماسية الصاخبة، لا نستطيع أن نقول إن الشعوب الا"فريقية كان لها، في هذا القطاع الخاص، تأثير كبير على موقف فرنسا.

ان الحياد يوّلد لدى المواطن في العالم الثالث اتجاهاً نفسياً يعبر عن نفسه في الحياة الجارية بعناد وكبرياء يشبهان التحدي شبهاً كبيراً . ان هذا الرفض القوي للتسوية ، وهذا الاصرار الصلب على عدم الارتباط يشبهان سلوك أولئك المراهقين المزوين المحرومين ، المستعدين دائماً لأن يضحوا بأنفسهم في سبيل كلمة . وهذا كله يحيّر المراقبين الغربيين ويرتج عليهم . ذلك ان هناك تناقضاً فاضحاً بين ما يدعيه هؤلاء الناس وما يوجد وراءهم . ان هذا البلد الذي يعيش بلا حافلات ترام ، ولا جيوش ، ولا مال ، لا يملك ما يسوّغ هذه الفخفخة التي يظهر بها ، فليس سلوكه هذا الا ادعاء فارغاً وتظاهراً كاذباً . ان هذا العالم الثالث يُشعر المرء بأنه يبتهج في المأساة ، وأنه في حاجة إلى نصيبه الاسبوعي من النوبات . ان زعماء هذه البلاد الخاوية الذين يتكلمون بصوت عال يثيرون الحنق في النفس . ان المرء ليود أن يسكتهم . ولكنهم يُغازلون وتُقدم لهم الأزهار ، ويُدعون ، بل قل بصراحة يّتنازع عليهم . ان هذا كله لهو من الحياد . انهم ، وهم أميون في أكثريتهم الساحقة ، (٩٨٪) ، قد كتبت من أجلهم مجلدات ضخمة . وهم يسافرون كثيراً . ان قادة البلاد المتخلفة ، وطلاب البلاد المتخلفة ، هم من أحسن زبائن شركات الطيران .

ان المسؤولين الأفريقيين والآسيويين يستطيعون في شهر واحد أن يحضروا مؤتمراً عن التخطيط الاشتراكي في موسكو ، وعن محاسن الاقتصاد الحر في لندن أو في جامعة كولومبيا . والنقابيون الافريقيون ، من جهتهم يتقدمون بسرعة متزايدة . وما ان يعهد اليهم بوظائف في أجهزة التوجيه حتى يقرروا أن يكونوا اتحادات مستقلة . انهم لا يملكون خمسين عاما من العمل النقابي في إطار بلد مصنّع ، ولكنهم يعرفون منذ الآن أن العمل النقابي الذي لا شأن له بالسياسة سخف لا معنى له . انهم لم يجابهوا الآلة البرجوازية ، ولا نمّوا وعيهم في صراع الطبقات ، ولكن ربما كان هذا غير ضروري . ربما .

ولكن فلنعد إلى المعركة الخاصة القائمة بين المستعمَر والمعمِّر . هاهنا كفاح مسلح صريح كما ترون . وامثلته التاريخية : الهند الصينية ، واندونيسيا ، وافريقيا الشمالية طبعاً . ولكن الشيء الذي يجب ألا يغيب عن البال ، هو أن هذا الكفاح المسلح كان يمكن أن ينطلق في أي مكان ، كان يمكن أن ينطلق في غينيا، كما كان يمكن ان ينطلق في الصومال، وما يزال من الممكن أن ينطلق في كل مكان، في أنغولا مثلاً . ووجود الكفاح المسلح يشير الى أن الشعب قد قرر ألا يثق إلا بالوسائل العنيفة . ان الشعب الذي ظلوا يقولون له انه لا يمكن أن يفهم غير لغة القوة، يعزم أمره الآن على أن يعبر عن نفسه بلغة القوة. والحق أن المعمّر قد دلّه منذ زمان طويل على الطريق التي يجب ان تكون طريقه إذا هو أراد ان يتحرر . والحجة التي يختارها المستعمَر انما دلّه عليها المعمِّر ، فإذا بالمستعمَر هو الذي يؤكد اليوم أن الاستعمار لا يفهم الا لغة القوة . ان النظام الاستعماري يستمد مشروعيته من القوة ، وهو لم يحاول في أية لحظة من اللحظات أن يراوغ في هذا الأمر الذي يتفق وطبيعة الأشياء . ان كل تمثال من التماثيل ، كتمثال فيدرب أو ليوتي أو بوجو أو بلاندان ، ان كل تمثال من هذه التماثيل المغروسة في الأرض المستعمَرة لا يفتأ يعبر عن شيء واحد بعينه : ((نحن هنا بقوة الحراب ..)) واتمام هذه العبارة أمر سهل ... إن كل معمِّر يفكر ، أثناء فترة التمرد والعصيان ، على أساس حساب واضح دقيق . ومنطقه هذا لا يستغربه المعمِّرون الآخرون ، ولكن يجب ان نذكر أيضاً أن هذا المنطق لا يستغربه المستعمَرون أيضاً . ونلاحظ أولاً أن المبدأ القائل ((اما هم واما نحن)) ، ليس في نظر المستعمَرين أمراً مفارقاً مستغرباً ، لأن الاستعمار ، كما رأينا ، انما هو تنظيم عالم ينقسم انقساماً ثنائياً . وحين يشرع المعمِّر في استعمال اساليب معينة ، فيطلب إلى كل ممثل من ممثلي الأقلية المضطهدة أن يهلك ثلاثين واحداً من السكان الأصليين أو مائة او مائتين ، فإنه يلاحظ انه ما من أحد يستنكر ذلك ،

حتى أن المشكلة كلها يلخصها عندئذ هذا السؤال : أيمكن اتمام ذلك دفعة واحدة ، أم يجب اتمامه على مراحل ؟

فهذا التفكير الذي يتصور ، على أساس حسابي جداً ، زوال الشعب المستعمَر لايجعل المستعمَر يستاء استياءً اخلاقياً . فلقد عرف دائماً أن منازلاته مع المعمِّر ستدور في ساحة مغلقة ، وهو لذلك لايضيع وقته في الشكوى والانتخاب ، ولا يكاد يحاول أبداً أن يُنصف في الإطار الاستعماري . والحق أنه اذا كانت حجج المعمِّر لا تهز المستعمَر ٬ فلأن هذا المستعمَر قد طرح مشكلة تحرره طرحاً مماثلاً : ((لننظم انفسنا في فئات تتألف كل منها من مائتي شخص أو من خمسمائة ، ولتتول كل فئة من هذه الفئات أمر معمِّر واحد .)) إن كلاً من الخصمين المتصارعين انما يبدأ القتال وهو على تلك الحالة النفسية المشتركة بينهما .

وهذا العنف يمثل، في نظر المستعمَر، العمل المطلق. ولذلك فالمناضل هو الذي يعمل. ان الاسئلة التي تطرحها المنظمة على المناضل تحمل طابع هذه النظرة الى الامور: ((أين عملت؟ مع من عملت؟ ماذا عملت؟)) . ان الجماعة تطلب من كل فرد ان يحقق عملا لا يتراجع الى وراء. ففي الجزائر مثلاً ، حيث نرى أن الرجال الذين دعوا الشعب الى الكفاح الوطني كانوا جميعاً على وجه التقريب محكومين بالاعدام أو ملاحقين من قبل الشرطة، نلاحظ أن الثقة تتناسب مع مقدار ما في كل حالة من يأس. ان المناضل الجديد يكون مضموناً إذا كان لا يستطيع أن يرتد الى النظام الاستعماري. ويظهر أن هذه الطريقة قد وجدت في كينيا لدى الماو ماو الذين كانوا يطلبون من كل عضو من اعضاء الجماعة أن يضرب الضحية، فكان كل عضو من هؤلاء الاعضاء مسؤولا مسؤولية شخصية عن موت الضحية. ان العمل يعني العمل على اماتة المعمِّر. وهذا العنف يتيح للضالين والمطرودين من أفراد الجماعة أن يعودوا وأن يرجعوا الى أمكنتهم وأن يرتدوا إلى الجماعة. ان العنف هو الطريقة المثلى . ان الانسان المستعمر يتحرر في العنف وبالعنف . ان هذا العمل يضيء طريق العامل، لأنه يدله على الوسائل ويدله على الهدف . ان شعر سيزار ليكتسب من هذه الطريقة في فهم العنف ، دلالة تجعله كالنبوءة . ويحسن هنا ان ننقل صفحة حاسمة من صفحات مأساته ، صفحة يتحدث فيها ((الثائر)) عن نفسه :

الثائر

اسمي : مُذَل ، اسم عائلتي : مهان ، حالتي : ثائر ، والسن : عصر الحجر .

الأم

جنسي : الجنس الانساني ؛ ديانتي : الاخوة .

الثائر

جنسي الجنس المعذب . و ديانتي ... ولكن ما انت من يهيئها بخلو يده من السلاح ... وانما اهيئها أنا ، بثورتي بقبضتيّ المشدودتين ورأسي الأشعث .

(بهدوء كبير) .

ما زلت أذكر يوماً من أيام تشرين الثاني . كان عمره أقل من ستة أشهر ، ودخل المولى الغرفة المسودّة بهباب الدخان ، دخول قمر أحمر ، وجسَّ اعضاؤه المعروقة الصغيرة . انه مولى طيب جداً . وطاف بيديه الضخمتين على وجهه المحفَّر يداعبه . كانت عيناه الزرقاوان تضحكان ، وكان فمه يتحداه بأشياء مسكرة . قال وهو ينظر إليَّ : ستكون حجرة جيدة ، وقال أيضاً أشياء أخرى لطيفة ، هذا السيد ، قال إن عليه أن يتدبر الأمر ، وان عشرين عاماً ليست كثيرة من اجل خلق مسيحي طيب ، عبد طيب ، تابع مخلص ، خادم طيّع ، حاد النظرة قوي الذراع . وتصور هذا الرجل مهد ابني مهد خادم .

وزحفنا والخناجر في قبضة اليد .

الأم

ستموت ، واحسرتاه !

الثائر

قتلته ... قتلته بيديّ .

نعم : قتلاً خصباً متدفق الخيرات .

كان الوقت ليلاً . زحفنا بين شجرات قصب السكر .

وكانت الخناجر تضحك للنجوم ، ولكننا كنا لا نبالي النجوم .

وكانت شجرات قصب السكر تخدد وجوهنا بجداول من دموع خضر .

الأم

لقد حلمت بابن يغمض عيني أمه .

الثائر

آثرت أن أفتح عيني على شمس أخرى .

الأم

واحسرتا عليك يا بني ، ستموت شر ميتة .

الثائر

أماه ، بل خير ميتة .

الأم

لأنك كرهت فأسرفت .

الثائر

بل لأنني أحببت فأسرفت .

الأم

ارحمني ، أغلالك تخنقني ، جروحك تدميني .

الثائر

العالم لا يرحمني ... ليس في العالم إنسان بائس يعدم ، ولا إنسان شقي يعذب ، إلا وأقتل فيه وأذل .

الأم

خلصه يارب .

الثائر

لن تخلصني يا قلب من ذكرياتي .

كان ذلك في ذات مساء من شهر تشرين الثاني .

وفجأة ومضت في الصمت صيحات .

كنا قد وثبنا ، نحن العبيد ، نحن الاوغاد ، نحن البهائم الصابرة .

وأخذنا نركض كالمجانين ... ودوّت طلقات الرصاص ... وأخذنا نضرب . العرق والدم يرطباننا . ضربنا بين الصرخات ، وازدادت أصوات الصرخات ، وعلت صيحة في جهة الشرق ، إنها المنازل الفخمة تحترق ، وتدفق اللهب هنياً عذباً على خدودنا .

وجاء دور الهجوم على منزل المولى .

شددنا النوافذ .

حطمنا الأبواب .

انفتحت غرفة المولى كبيرة واسعة . الضوء في غرفة المولى يسطع متلالئاً ... والمولى في الغرفة ... إنه هادىء جداً . وتوقف رجالنا... إنه المولى ... ودخلت أنا . قال لي بهدوء كبير: أهذا أنت ؟ فأجبته: نعم أنا، أنا نفسي، العبد الطيّع ، العبد الامين، العبد العبد. وفجأة أصبحت عيناه خنفستين مروعتين في أيام المطر... وضربت، فانبجس الدم: هذا هو التعميد الوحيد الذي أتذكره اليوم .

ان عنف النظام الاستعماري ، وعنف المستعمر، يتوازنان ويتجاوبان في تجانس مشترك ، وسيطرة العنف هذه لا بد أن تصبح أشد هولاً كلما زاد عدد المستوطنين . إن اشتداد العنف لدى الشعب المستعمَر سيكون متناسباً مع العنف الذي يمارسه النظام الاستعماري المرفوض. ان حكومات البلاد المستعمِرة هي في المرحلة الاولى من فترة الثورة، مستعبدة للمعمِّرين فهؤلاء المعمِّرون يهددون المستعمَرين ويهددون في الوقت نفسه حكوماتهم. وسوف يستعملون في محاربة هذه وأولئك طرائق واحدة بعينها. ان اغتيال (عمدة إيفيان) لا يختلف في دوافعه عن اغتيال (علي بومنجل) . ان المشكلة في نظر المعمِّرين ليست الاختيار بين جزائر جزائرية وجزائر فرنسية، بل بين جزائر مستقلة وجزائر مستعمرة. وكل ما عدا ذلك كلام أو خيانة. ان منطق المعمِّر منطق حانق ، ولست تستغرب المنطق المعاكس الذي يعبر عنه سلوك المستعمَر الا اذا أدركت بوضوح آليات التفكير لدى المعمِّر. متى اختار المستعمَر أن يواجه العنف بالعنف ، رأيت أعمال

الانتقام البوليسية تستدعي على نحو آلي أعمال انتقام تقوم بها القوى الوطنية . ومع ذلك ليس هنالك تعادل في النتائج. ذلك أن القصف بالرشاشات من الطائرات أو القصف بالمدافع من الاسطول ، يفوقان ردود المستعمَر هولاً ورهبة . ومن شأن تكرر الارهاب هذا أن يبدد الأوهام من رؤوس أكثر المستعمرين ضلالاً وضياعاً فإنهم يلاحظون ملاحظة مباشرة أن جميع الخطب التي تلقى عن المساواة بين أفراد البشر ، ويتكدس بعضها فوق بعض، لا تخفي هذه الحقيقة المبذولة وهي أن الرجال السبعة الذين قتلوا أو جرحوا في مضيق (ساكامودي) قد أثاروا استياء الضمائر المتحضرة ، على حين أن أحدا لم يعبأ بتدمير قرى جرجور وجرة، ولا بذبح السكان الذين كانوا سبب الكمين. إرهاب، وإرهاب مقابل، عنف وعنف مقابل ... ذلك ما يسجله المراقبون في مرارة، حين يصفون دائرة الحقد، الواضحة العنيدة في الجزائر .

إن في الكفاح المسلح شيئاً يصح ان نسميه ((النقطة التي لا عودة بعدها)) . ونستطيع ان نقول إن الامر الذي يحقق الوصول الى هذه. النقطة انما هو أعمال القمع الضخمة التي تشمل جميع قطاعات الشعب المستعمَر. وهذه النقطة قد تم الوصول اليها في الجزائر عام ١٩٥٥ حين وقعت الاحداث التي أودت باثني عشر ألف ضحية في فيليبفيل ، وكذلك عام ١٩٥٦ حين انشأ لاكوست ميليشيا المدن والارياف . فعندئذ أدرك جميع الناس، وادرك المعمِّرون أنفسهم ((ان الامر لن يرجع بعد الآن الى ما كان عليه)) . على ان الشعب المستعمَر ((لايفتح)) حساباً بضحاياه . إنه يسجل الفراغ الضخم الذي حدث في صفوفه من حيث أنه شر لا بد منه ، لكنه وقد قرر أن يرد على العنف بالعنف، يقبل جميع النتائج التي تترتب على ذلك . وكل ما يطلبه عندئذ هو ألا يطالب ((بفتح حساب)) بضحايا الآخرين . ان المستعمَر يرد على العبارة القائلة إن ((جميع السكان الاصليين سواء)) بعبارة تقول : ((إن جميع المعمِّرين سواء)) . إن المستعمَر لا يشكو أمره الى أحد حين يعذّبونه ، أو حين يقتلون امرأته او يغتصبونها. ان للحكومة التي تمارس الاضطهاد أن تعيش في كل يوم لجان تحقيق. ولكن لجان التحقيق هذه لا وجود لها في نظر المستعمَر . وهذه سبع سنين تقريبا تنقضي في جرائم ترتكب بالجزائر، دون ان يمثل فرنسي واحد أمام القضاء لأنه قتل جزائريا. إن المستعمَر، سواء في الهند الصينية أو فى مدغسقر، أو في سائر المستعمرات.، قد أدرك دائما أن عليه ألا ينتظر شيئا من الضفة الاخرى . ان العمل الذي يقوم به المعمِّر هو ان يجعل حتى أحلام المستعمَر في الحرية مستحيلة. والعمل الذي يقوم به المستعمَر هو ان يتصور جميع الوسائل الممكنة لإبادة المعمِّر . ان الانقسام الثنائي الذي اوجده المعمِّر قد ولّد على مستوى التفكير انقساماً ثنائياً في ذهن المستعمَّر .

إن ظهور المعمِّر كان معناه لدى المستعمَر موت المجتمع الأصلي ، وفناء الثقافة القديمة ، وتجميد الحياة في الأفراد ، في آن معاً . فالمستعمَر يرى الآن ان الحياة لا يمكن أن تعود الى الانبثاق إلا من جثة المعمِّر حين يصبح جثة متفسخة . ذلكم هذا التقابل الكامل بين تفكير المعمِّر وتفكير المستعمَر .

حروب التحرير وبناء الوحدة القومية :

غير أن هذا العنف، لانه العمل الوحيد الذي يقوم به الشعب المستعمَر، يكتسي طابعا ايجابيا انشائيا.، فان هذا الكفاح العنيف يجمّع الأفراد ، اذ أن كل واحد منهم يصبح حلقة عنيفة في السلسلة الكبرى ، في الجسم الكبير العنيف الذي انبجس رداً على عنف الاستعمار ، فإذا الفئات المتخلفة يعرف بعضها بعضا ، ويلتقي بعضها ببعض ، واذا الأمة المقبلة تكون منذ الآن كتلة غير منقسمة . ان الكفاح المسلح يعبىء الشعب ، أي يقذفه في اتجاه وحيد ليس له ثان .

ان تعبئة الجماهير ، حين تتحقق بمناسبة حرب التحرير ، تبث في ضمير كل فرد فكرة القضية المشتركة ، والمصير الوطني ، والتاريخ القومي . لذلك نرى المرحلة الثانية ، أي مرحلة بناء الأمة ، يسهلها وجود هذا الاندماج الذي عجن بالدم والحقد . وهنا نفهم أصالة الألفاظ المستعملة في البلاد المتخلفة . لقد كان الشعب يُدعى في عهد الاستعمار الى الكفاح ضد المستعمر الغاشم . حتى إذا تحقق التحرر الوطني ، أصبح يُدعى الى الكفاح ضد الفقر ، ضد الأمية ، ضد التخلف الاقتصادي . فالكفاح يظل مستمراً ، ويتحقق الشعب من ان الحياة معركة دائمة لا تنتهي .

قلنا ان العنف الذي يعمد إليه المستعمِر يوحد الشعب . والواقع أن الاستعمار هو بحكم تركيبه يفرق صفوف الشعب ويغذي النزعة الاقليمية ، ان الاستعمار لا يكتفي بأن يعلم أن هناك قبائل ، وانما هو يعزز وجود هذه القبائل ، ويفصل بعضها عن بعض ، ويميز بعضها من بعض . ان النظام الاستعماري يغذي الزعامات المحلية وينشط الانقسامات الدينية . ولكن العنف يوّحد بين الأفراد على الصعيد القومي . وهو لذلك يحمل في ارحامه بذور القضاء على الاقليمية والقبلية . ومن اجل هذا نرى الأحزاب الوطنية تقسو قسوة خاصة على الزعماء التقليديين ، إن تصفية هؤلاء الزعماء تمهيد لوحدة الشعب .

والعنف يطهر الأفراد من السموم ، انه يخلص المستعمِر من مركب النقص الذي يعيث في نفسه فساداً ، ويحرره من موقف المشاهد أو اليائس . إنه يرد اليه شجاعته ، ويرد اليه اعتباره في نظر نفسه . وحتى حين يكون الكفاح المسلح رمزياً ، وحتى حين ينتهي بتصفية الاستعمار تصفية سريعة ، فان الشعب يتسع وقته لأن يدرك ان هذا التحرير قد قام به جميع الأفراد وقام به كل فرد ، وأن القائد لا يمتاز بفضل خاص . ان العنف يرفع الشعب الى مستوى القائد . ومن هنا كان ذلك النوع من الهجوم على الأداة البروتوكولية التي تبادر بعض الحكومات الفتية إلى استعمالها . ان الجماهير التي شاركت بالعنف في التحرير الوطني لا تسمح لأحد أن يعد نفسه ((محرراً)) انها حريصة أشد الحرص على ثمرة نضالها ، وهي تحاذر ان تعهد بمستقبلها وقدرها ومصير شعبها إلى إله معبود . لقد كانت بالأمس غير مسؤولة ، ولكنها تريد اليوم أن تفهم كل شيء وان تقرر كل شيء . ان الضمير الذي أضاءه العنف بنوره ، يستعصي على كل محاولة لتهدئة الخواطر . ولذلك فإن مهمة الدجالين والانتهازيين والسحرة ستكون مهمة شاقة . ان النضال الذي قذف بالجماهير الى معركة حامية يكسبها ميلا قوياً الى الأمور المحسوسة الملموسة . ويصبح من المستحيل على أحد أن يضللها ويفتنها عن أمرها .

الانطلاق العفوي

عظمته ومواطن ضعفه

قادتنا تأملاتنا في العنف إلى إدراك أن هناك في أكثر الأحوال مسافة وفرقاً في السرعة بين أجهزة الحزب الوطني وبين الجماهير . ان في كل منظمة سياسية أو نقابية هوة تقليدية بين الجماهير التي تطالب بإصلاح أحوالها اصلاحا مباشرا شاملا وبين القيادات التي لمعرفتها بما يمكن أن يخلقه الرأسماليون من عقبات تجعل مطالبها محدودة مقصورة . لذلك نلاحظ في كثير من الأحيان ان الجماهير تظل في حالة استياء عنيد من القيادات . ان الجماهير تشعر ، بعد كل حركة نضالية قامت بها للمطالبة بحقوقها ، ان القيادات قد خانتها ، في حين نرى القيادات تحتفل بالنصر . ان تكاثر الحركات التي تنطلق مطالبة بالحقوق ، وتكاثر الصراعات النقابية ، هما اللذان سيحققان الوعي السياسي لدى هذه الجماهير ، والمقصود بالوعي السياسي لدى النقابي هو ادراك النقابي لهذه الحقيقة ، وهي ان النزاع المحلي ليس تصفية نهائية للحساب بينه وبين أرباب العمل . ان المثقفين المستعمَرين الذين درسوا في العواصم الاستعمارية نظام الأحزاب السياسية وكيفية عملها ينشئون في بلادهم منظمات شبيهة بغية تعبئة الجماهير والضغط على الادارة الاستعمارية . ان قيام الأحزاب السياسية في البلاد المستعمَرة معاصر لنشوء نخبة من المثقفين والتجار . وهذه النخبة تخلع على التنظيم قيمة كبيرة من حيث هو تنظيم ، وكثيراً ما تتغلب عبادة التنظيم هذه على الدراسة العقلية للمجتمع المستعمَر . ان فكرة الحزب مستوردة من البلاد المستعمِرة فنرى النخبة تحاول أن تطبق هذه الأداة النضالية الحديثة تطبيقاً آلياً على مجتمع بدائي ، غير متوازن ، مجتمع تعيش فيه أنظمة مختلفة معاً ، تعيش فيه أنظمة العبودية ، والقنانة ، والمقايضة ، والحرف ، وعمليات البورصة .

ان ضعف الأحزاب السياسية ليس ناشئاً فقط عن أنها تستعمل استعمالاً آلياً هذا التنظيم الذي يقود الطبقة العاملة في مجتمع رأسمالي بلغ درجة عالية من التصنيع . ان هناك على صعيد هذا النموذج من التنظيم تجديدات وتكييفات كان ينبغي ان تنشأ . ان الخطيئة الكبرى ، ان الآفة الكبرى التي تعيب الأحزاب السياسية في المناطق المتخلفة هي انها تتجه باهتمامها الأول

الى العناصر الواعية من الشعب : الطبقة العاملة في المدن ، اصحاب الحرف ، الموظفين ، أي إلى جزء صغير من السكان لا يتجاوز واحداً في المائة .

وإذا كانت هذه البروليتاريا تفهم دعاية الحزب وتقرأ كتاباته ، فإنها أقل استعداداً لتلبية نداء الشعارات التي قد تدعو الى الكفاح القوي في سبيل التحرير الوطني . ان البروليتاريا ، كما لوحظ ذلك مرات كثيرة ، هي من الشعب المستعمَر نواة يفيض عليها النظام الاستعماري أكثر ما يفيض من خير . ان البروليتاريا الناشئة التي تعيش في المدن هي طبقة تتمتع نسبياً ببعض الامتيازات . اذا كانت البروليتاريا في البلاد الرأسمالية لا تخشى ان تخسر شيئاً ، لأنها الطبقة التي يمكن أن تربح كل شيء ، فإن البروليتاريا في البلدان المستعمَرة يمكن ان تخسر ، فهي من الشعب المستعمَر ذلك الجزء الضروري الذي لا يستغنى عنه لحسن سير الآلة الاستعمارية : سائقو حافلات الترام وسيارات الأجرة ، عمال المناجم ، عمال الموانىء ، التراجمة ، الممرضون ، الخ . وهذه العناصر هي التي تضمها الأحزاب الوطنية أكثر ما تضم ؛ وهي ، بما لها من امتيازات في ظل النظام الاستعماري ، يمكن ان تُعد الجزء البرجوازي من الشعب المستعمَر .

ان المنتسبين الى الأحزاب السياسية الوطنية هم أفراد من سكان المدن قبل كل شيء : أصحاب حرف ، عمال ، مثقفون ، تجار ، حتى ان طراز تفكيرهم يحمل في كثير من النواحي علامة البيئة الراقية بعض الرقي ، الميسورة بعض اليسر ، التي تجري حياتهم فيها . وفي هذه البيئة تسود ((الروح العصرية)) . ان هذه الأوساط نفسها هي التي تحارب التقاليد البالية ، وتريد ان تصلح العادات ، وبذلك تدخل في صراع صريح مع قوام الأمة .

الصراع على امتلاك الريف :

ان الاكثرية الساحقة في الأحزاب الوطنية تشعر تجاه الجماهير الريفية بحذر كبير وارتياب شديد . انها تحس ان هذه الجماهير عاطلة عقيمة . وما يلبث أعضاء الأحزاب الوطنية (من عمال المدن والمثقفين) أن يصبح رأيهم في سكان الأرياف كرأي المستوطنين . ولكن إذا حاولنا أن نفهم أسباب هذا الحذر الذي تشعر به الأحزاب الوطنية ازاء الجماهير الريفية كان علينا أن تذكر هذه الحقيقة ، وهي ان الاستعمار قد عزز دائماسيطرته أو رسّخها بواسطة العمل على تجميد الارياف وتحجيرها . ان الجماهير الريفية التي يحيط بها الدراويش والسحرة والزعماء التقليديون ، ما تزال تعيش في المرحلة الاقطاعية ، وهذه البنية الاجتماعية التي تذكر بالقرون الوسطى انما يغذيها الموظفون الاداريون والعسكريون الاستعماريون .

وتدخل البرجوازية الوطنية الناشئة ، وهي برجوازية تجارية بوجه خاص ، تدخل في تنافس مع هؤلاء السادة الاقطاعيين من نواح شتى : الدراويش الدجالون والسحرة المشعوذون يسدون الطريق أمام المرضى الذين يستطيعةن أن يستشيروا الطبيب ، ومجالس القبائل تفصل بين الناس فتصرفهم عن اللجوء إلى المحامين ، والزعماء التقليديون يستعملون سلطتهم السياسية والادارية للقيام بتجارة أو لإقامة خط من خطوط النقليات ، والقادة المحليون يعارضون باسم الدين والتقاليد دخول تجارات جديدة ومنتجات جديدة .

ان هذه الطبقة الناشئة من التجار المستعمَرين في حاجة إلى زوال هذه الأنواع من الحظر وهذه الانواع من الحواجز ، حتى تنمو وتزدهر . وهكذا فإن هؤلاء الزبائن من السكان الأصليين الذين يمثلون في نظر الاقطاعيين صيداً يجب عليهم أن يحتفظوا به ، الذين يُمنعون بعض المنع من شراء منتجات جديدة ، يصبحون سوقا متنازعا عليها .

والقيادات الاقطاعية تقيم حاجزا بين الوطنيين الشبان المطبوعين بالطابع الغربي وبين الجماهير ، كلما حاولت النخبة أن تبذل جهداً من الجهود في صفوف الجماهير الريفية تصدى لها زعماء القبائل ، وزعماء الحلقات الدينية ، وتصدت لها السلطات التقليدية ، فأخذت تصب عليها مزيداً من الوعيد والتهديد وتكيل لها اتهامات الكفر والزندقة . ان هذه السلطات التقليدية التي تدعمها قوة الاحتلال ، يسوءها أن ترى ازدياد المحاولات التي تقوم بها النخبة من أجل التغلغل في الأرياف . انها تعلم أن الأفكار التي يمكن أن يحملها الى الريف هؤلاء الناس القادمون من المدن تنكر حتى مبدأ دوام الاقطاعيات . لذلك تشعر أن عدوها الأول ليس هو السلطة المحتلة التي يقوم بينها وبينها نوع من التفاهم وإنما عدوها هؤلاء العصريون الذين يريدون أن يبدلوا نظام المجتمع وأن يخطفوا خبزهم من أفواههم .

والعناصر المطبوعة بالطابع الغربي تشعر نحو جماهير الفلاحين بعواطف تذكرنا بالعواطف التي نراها في صفوف طبقة العمال في البلاد المصنعّة . لقد أوضح تاريخ الثورات البرجوازية وتاريخ الثورات البروليتارية أن جماهير الفلاحين كثيراً ما تكون حاجزاً يعطل اندفاع الثورة . ان الجماهير الريفية في البلاد المصنعة هي على وجه العموم أقل عناصر المجتمع وعياً وأقلها تنظيماً وأكثرها فوضى ، انها تتصف بمجموعة من الصفات هي الصفات التي يمتاز بها السلوك الرجعي ، من ميل إلى الفردية ، وبعد عن الانضباط ، وحب للربح ، واستعداد للغضب الشديد تارة ولليأس العميق تارة أخرى .

وقد رأينا أن الأحزاب الوطنية تنقل أساليبها وعقائدها عن الأحزاب الغربية ؛ لذلك نراها في أكثر الأحوال لا تتجه بدعايتها نحو هذه الجماهير الريفية . ولكن هذه الأحزاب لو حللت المجتمع المستعمَر تحليلاً عقلياً سليماً ، لأدركت أن الفلاحين المستعمَرين يعيشون في بيئة تقليدية ظلت بنياناتها سليمة ، على حين أن هذه البيئة التقليدية في البلاد المصنعّة هي التي صدعها تقدم التصنيع .

ان البروليتاريا الناشئة في المستعمرات هي الطبقة التي نرى لدى أفرادها سلوكاً فردياً . ان الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً ، والذين يطرح عليهم تزايد السكان مشكلة لا سبيل إلى حلها يهجرون الريف ويفدون إلى المدن فيتكدسون في أكواخ الصفيح ، ويحاولون أن يتسربوا الى الموانىء والمدن التي أوجدتها السيطرة الاستعمارية ، فيكوّنون هنالك البروليتاريا الدنيا . ان الجماهير الريفية التي تبقى في القرى تواصل حياتها في إطار ساكن ، حتى إذا زاد عدد الأفواه التي تحتاج الى طعام لم تجد سبيلا الا أن تهاجر الى المدن . ولكن الفلاح الذي يبقى في مكانه يحمي تقاليده في عناد واصرار ، وهو في المجتمع المستعمَر يمثل العنصر الانضباطي الذي يظل بنيانه الاجتماعي قائما على التواصل بين أفراد الجماعة وعلى ارتباط بعضها ببعض ارتباطا قويا . صحيح ان هذا الركود وهذا الانكماش قد يولّدان من حين إلى حين حركات قائمة على العصبية الدينية ، وقد يولد حروبا قبلية . ولكن الجماهير الريفية تظل في عفويتها انضباطية تتصف بالغيرية . ان الفرد ذائب هنا في الجماعة .

الاتصال بالارياف :

ان الاحزاب السياسية لا تتوصل الى ترسيخ قواعد منظماتها في الارياف . فهي بدلاً من أن تستعمل البنيانات الموجودة من أجل اعطائها مضمونا قوميا أو تقدميا ، تحاول في نطاق النظام الاستعماري ، أن تقلب الواقع التقليدي رأساً على عقب . إنها تتخيل ان في وسعها ان تطلق الأمة من عقالها وان تبعثها على المسير ، في حين أن حلقات النظام الاستعماري ماتزال مطبقة عليها جاثمة فوقها . ان هذه الأحزاب لا تمضي الى لقاء الجماهير . انها لا تضع معارفها النظرية في خدمة الشعب ، وانما تحاول ان تنظم الجماهير وفقا لمخطط لم ينبثق من التجربة . وهكذا تراها ترسل من العاصمة الى القرى ، على حين غرة ، مسؤولين مجهولين أو شبانا صغارا تندبهم السلطة الحزبية المركزية للذهاب الى القرية أو الدوار كأنما هي تريد ان تقود القرية أو الدوار كما تقاد خلية من خلايا الحزب في مصنع من المصانع ؛ وهي بذلك تتجاهل الزعماء التقليديين ، وربما

أهانتهم في بعض الأحيان . ان تاريخ الأمة المقبلة يطغى طغيانا كبيرا على التواريخ المحلية الصغيرة التي هي الواقع الوطني الوحيد الراهن ، في حين ان من الواجب على هذه الأحزاب أن توفق توفيقاً منسجما بين تاريخ القرية وتاريخ المنازعات التقليدية بين القبائل والعشائر وبين النضال الحاسم الذي تدعو الشعب إلى خوض غماره . ان هذه الأحزاب كثيرا ما تسخر على رؤوس الأشهاد من الشيوخ الذين تحيط بهم في المجتمعات التقليدية هالة من الاحترام ، والذين يملكون على وجه العموم سلطة معنوية لا سبيل إلى المماراة فيها . ولا تنسى دوائر السلطة المحتلة أن تستغل هذه الاحقاد ، فهي تتسقط أخبار أيسر القرارات التي تتخذها هذه السلطة الغِرّة ، فإذا هي تنزل ضربتها البوليسية في إحكام مستمد من دقة المعلومات التي وصلن اليها . ويُعتقل المسؤولون الذين وفدوا إلى المدينة على حين غرة ، ويعتقل كبار أعضاء المجلس الجديد .

ويأتي هذا الاخفاق مصدقاً " للتحليل النظري " الذي قامت به الأحزاب الوطنية ، فالنازلة التي نزلت بالحزب حين حاول تنظيم الجماهير الريفية تعزز حذره من الجماهير الريفية وتقوّي تهجمه على هذا الجزء من الشعب ، وبعد انتصار كفاح التحرير الوطني تتجدد هذه الأخطاء وتغذي الميول إلى اللامركزية وإلى الانفصالية . وتحل محل العصبية القبلية التي كانت سائدة في عهد الاستعمار عصبية اقليمية تسود في عهد التحرر الوطني ، منادية بشعارها الدستوري : الفدرالية .

ولكن يتفق احيانا أن نرى الجماهير الريفية ، رغم قلة تأثير الأحزاب الوطنية فيها ، أن تتدخل في الكفاح تدخلاً حاسماً ، فإما أن تزيد الوعي القومي نضجاً ، واما أن تتناوب العمل مع الأحزاب الوطنية ، واما – وهذا أندر – أن تحل نفسها محل هذه الأحزاب العقيمة .

ان دعاية الأحزاب الوطنية يترجع صداها دائماً بين صفوف الجماهير القروية . ان ذكرى مرحلة مقاومة الاستعمار تظل حية قوية في القرى . ان النساء ما تزال تدندن في آذان أطفالها بالاغاني التي رافقت المقاتلين الذين قاوموا الغزو . ان اطفال القرى الذين هم في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من اعمارهم يعرفون يعرفون أسماء الشيوخ الذين شهدوا آخر ثورة . والاحلام التي تداعب أخيلة الصغار في القرى ليست تلك الاحلام المترفة التي تملأ أخيلة أطفال المدن ، وإنما هي أحلام تشبّه بهذا المقاتل أو ذاك من المقاتلين الذين ما تزال ميتتهم البطولية تستدر من المآقي دموعاً غزاراً .

وفي اللحظة التي تحاول فيها الأحزاب السياسية أن تنظم الطبقة العاملة الناشئة في المدن ، تشهد الارياف في بعض الاحيان انفجارات تبدو في الظاهر غريبة غير مفهومة . فكذلك شبت الثورة المشهورة في مدغسقر عام ١٩٤٧ . ان المصالح الاستعمارية قد فسرت هذه الثورة تفسيراً بسيطاً فقالت : عصيان . ولكننا نعلم اليوم أن الأمور كانت اعقد من ذلك كثيراً ، كما هي الحال دائماً . ففي أثناء الحرب العالمية الثانية وسّعت الشركات الاستعمارية الكبرى سلطانها واستولت على جميع الأراضي التي كانت لا تزال حرة . وفي تلك الفترة نفسها شاع أن في النية إسكان لاجئين من اليهود وأناس من القبائل ومن سكان جزر الانتيل في مدغسقر . وشاع أيضاً أن السكان البيض في جنوب أفريقيا سيغزون الجزيرة بالتواطؤ مع المستوطنين الأوروبيين . لذلك رأينا مرشحي القائمة الوطنية في الانتخابات التي جرت بعد الحرب يفوزون فوزاً ساحقاً . فإذا بأعمال القمع التي تقوم بها السلطات الاستعمارية تنصب فوراً على خلايا " الحزب الديمقراطي لبعث مدغسقر" . واستعمل الاستعمار ، في حملة القمع هذه ، الاساليب التقليدية المعروفة لتحقيق أهدافه : اعتقالات كثيرة ، دعاية عنصرية للتفريق بين القبائل ، خلق حزب جديد من عناصر غير منظمة أخذتها من بين صفوف البروليتاريا الدنيا . وكان الغرض من خلق هذا الحزب الذي أسمي ((حزب المحرومين)) أن تكون استفزازاته حجة مشروعة تتذرع بها السلطة الاستعمارية للمحافظة على النظام . ولكن هذه العملية التافهة ، أعني تصفية حزب أعد لهذا الغرض سلفاً ، اتسعت اتساعاً هائلاً . فأدركت الجماهير الريفية التي كانت على أهبة الدفاع منذ ثلاث سنين أو أربع ، أدركت فجأة أنها مهددة بالموت ، فقررت أن تعارض القوى الاستعمارية معارضة وحشية ، فتسلحت بالرماح وبالحجارة في أكثر الاحيان ، وخاضت غمار تلك الثورة الجارفة التي عمت البلاد في سبيل التحرير الوطني .

ثورات الفلاحين :

وليست هذه الثورات المسلحة إلا إحدى الوسائل التي تستعملها الجماهير الريفية للتدخل في الكفاح القوي . وفي بعض الأحيان يحمل الفلاحون العبء عن المدينة ، حين تتناول حملة القمع البوليسي الحزب الوطني . ان الانباء تصل الى الارياف مضخمّة ، مضخمّة تضخيما كبيرا : الزعماء اعتقلوا ، الرشاشات تقذف الناس برصاصها ، دم الزنوج يغرق المدينة ، المستوطنون يستحمون بالدم العربي . وتتفجر مراجل الحقد المتجمع المكظوم . فيهجم الفلاحون على مخفر الشرطة المجاورة فيحتلونه ، ويمزقون رجال الدرك ارباً ارباً ، ويقتلون معلم المدرسة الأوروبي ، ولا ينجو الطبيب الا لأنه كان غائبا ، الخ ، الخ ... وتهرع السلطة الاستعمارية فترسل الى المنطقة

فرقا من جيوشها ، وتأخذ الطائرات تقذف قنابلها . وهكذا ترتفع راية الثورة ، وتنبعث التقاليد الحربية القديمة ، وتزغرد النساء وينظم الرجال صفوفهم ويحتلون مواقعهم في الجبال ، وتبدأ الحرب . هكذا يخلق الفلاحون منتلقاء أنفسهم جواًعاماً من اضطراب حبل الأمن ، فيخاف الاستعمار ، فإما أن يستمر في الحرب واما أن يفاوض .

فكيف تستجيب الأحزاب الوطنية لهذا الدخول المفاجىء الذي تدخله جماهير الفلاحين في الكفاح الوطني ؟ لقد رأينا أن أكثر الأحزاب الوطنية لم تضع في برامجها ضرورة العمل المسلح . وهي الآن لا تعارض استمرار الثورة ، ولكنها تكتفي بالركون الى عفوية القرويين . انها بوجه الاجمال ، تتصرف إزاء هذاالعنصر الجديد تصرفها ازاء معجزة نزلت من السماء ، مبتهلة الى القدر أن تستمر هذه المعجزة . ان الاحزاب الوطنية تستثمر هذه المعجزة ولكنها لا تحاول أن تنظم الثورة . انها لا ترسل الى الارياف رجالا من مسؤوليها لبث الوعي السياسي لدى الجماهير ولتنويرها ولرفع مستوى المعركة ، وانما هي تأمل أن يستمر كفاح هذه الجماهير من تلقاء ذاته وترجّي ألا يضعف أو يخور . فليس ثمة عدوى تسري من حركة المدينة الى حركة الريف ، وانما تتطور كل حركة من الحركتين وفقا لمنطقها الخاص .

ان الاحزاب الوطنية لا تحاول أن تُدخل الى الجماهير الريفية ، التي هي الآن مهيئة كل التهيؤ ، شعارات معينة . انها لاتعرض عليها أي هدف . كل ما في الأمر أنها تأمل أن تستمر هذه الحركة الى غير نهاية وألا يحقق قصف القنابل غرضه فيقضي على الثورة . وهكذا نرى أن الأحزاب الوطنية لا تستثمر ، حتى في هذه المناسبة ، الفرصة المتاحةلها ، وهي ان تضم الجماهير الريفية الى صفوفها ، وأن تبث فيها الوعي السياسي ، وأن ترفع مستوى كفاحها . انها تظل على ذلك الموقف الاجرامي ، موقف الحذر من الأرياف .

ان المسؤولين السياسيين يقبعون في المدن ، ويُفهمون الاستعمار أن لا صلة لهم بالثائرين ، أو يُسافرون إلى الخارج . ومن النادر ان ينضموا الى الشعب في الجبال . ففي كينيا مثلا لم يعلن أي وطني معروف ، اثناء ثورة الماو ماو ، انتماءه الى هذه الحركة ، ولا حاول أن يدافع عن هؤلاء الرجال .

ما من مناقشة خصبة بين مختلف طبقات الأمة ، ولا من لقاء . لذلك نرى عدم التفاهم هذا يبقى ويتفاقم حين يتحقق الاستقلال ، بعد قمع قاست ويلاته الجماهير الريفية ، وتفاهم تم بين الاستعمار والأحزاب الوطنية . ويقف القرويون موقف التردد والاحتراس من التجديدات

الاجتماعية ولو كانت تقدمية في نظر من يرى الأمور رؤية موضوعية ، وما ذلك إلا لأن الذين أصبحوا الآن حكاما لم يشرحوا لمجموع الشعب اثناء فترة الاستعمار ، لا أهداف الحزب ، ولا الاتجاه القومي ، ولا المشكلات العالمية ، الخ ...

فالحذر الذي كان القرويون يشعرون به إزاء الاحزاب الوطنية في عهد الاستعمار يستمر في عهد الاستقلال عداوة مماثلة . وتأخذ الدوائر الاستعمارية السرية التي لم تلق سلاحها في عهد الاستقلال ، تأخذ تغذي الشعور بالاستياء ، وتتوصل الى خلق مصاعب كثيرة في وجه الحكومات الفتية . وتدفع الحكومة عندئذ ثمن كسلها وتقاعسها في إبان عهد التحرير ، وثمن احتقارها للقرويين . لقد يصبح للأمة رأس عاقل حكيم ، بل لقد يصبح له رأس تقدمي ، ولكن الجسم الكبير يبقى ضعيفا هزيلا غير متعاون .

ويغري الحكومة في مثل هذه الحالة أن تحطم هذا الجسم بتركيز الحكم وإخضاع الشعب بالقوة . وهذا واحد من الأسباب التي تحمل كثيرا من الناس على أن يقولوا إنه لا بد من شيء من الدكتاتورية في البلاد المتخلفة إن المسؤولين يشكون في الجماهير الريفية ، حتى لقد يأخذ هذا الشك أشكالاً خطيرة . من ذلك مثلاً أن بعض الحكومات تظل زمناً طويلاً بعد الاستقلال تعدّ مؤخرة البلاد منطقة لم يستتب فيها السلم ، فما يزورها رئيس الدولة ولا وزراء الحكومة الا بمناسبة قيام الجيش الوطني ببعض المناورات العسكرية ، حتى لتكاد مؤخرة البلاد أن تكون شيئا مجهولاً . والغريب في الأمر أن تصرف الحكومة الوطنية ازاء الجماهير الريفية يشبه بعض صفات تصرف السلطة الاستعمارية . فترى المسؤولين يقولون : ((لا يعرف المرء كيف يمكن أن يكون رد الفعل لدى هذه الجماهير)) ، بل إن الحكام الجدد لا يتورعون عن القول . ((لابد من استعمال السوط اذا نحن اردنا اخراج هذه البلاد من القرون الوسطى)) . ولكن تهاون الأحزاب السياسية بشأن الجماهير الريفية في عهد الاحتلال ، هو الذي يؤدي ، كما سبق أن ذكرنا ذلك ، الى تصديع الوحدة القومية ، وتعطيل انطلاق الأمة .

ويعمد الاستعمار أحياناً الى تفريق الاندفاعة القومية والى تشتيتها . فلا يثير المشايخ وزعماء القبائل على ((ثوريي)) المدن ، وانما يؤلف من الجماعات الدينية والقبائل أحزابا . وهكذا تنشأ ، في وجه حزب المدينة الذي أخذ يجسّد الارادة القومية ، ويهدد النظام الاستعماري ، تجمعات وتكتلات وأحزاب تقوم على أساس قبلي أو محلي . فإذا قبيلة برمتها تصبح حزباً سياسياً يمده الاستعماريون بالنصح والتوجيه . حتى إذا حان وقت المفاوضات حول الدائرة المستديرة ، وجدتَ

الحزب الموحد غارقاً في حساب القوى والتجمعات ، ورأيت الأحزاب القبلية تعارض وجود سلطة مركزية ، وتناهض الوحدة ، وتندد بدكتاتورية الحزب الموحد .

وهذا الاسلوب نفسه تستعمله المعارضة الوطنية فيما بعد . إن سلطة الاحتلال قد اختارت واحداً من الحزبين الوطنيين أو من الأحزاب الوطنية الثلاثة التي قامت بحركة التحرير . واشكال هذا الاختيار كلاسيكية معروفة : إذا فاز أحد الأحزاب بالاجماع الوطني وفرض نفسه على المحتل كمفاوض وحيد ، قام المحتل بمناورات كثيرة لتأخير موعد المفاوضات إلى أقصى حد ، مستعملاً هذا التأخير في تفتيت مطالب هذا الحزب ، أو في الفوز من قيادته بابعاد بعض العناصر ((المتطرفة)) . أما إذا لم يستطع أي حزب من الأحزاب أن يفرض نفسه حقاً ، اكتفى المحتل بتفضيل الحزب الذي يبدو له أكثر ((تعقلاً واعتدالاً)) من غيره . وعندئذ نرى الحزاب الوطنية التي لم تشترك في المفاوضات تأخذ باستنكار الاتفاق الذي تم بين المحتل والحزب الآخر . ويشعر الحزب الذي تسلم السلطة بخطر هذه المواقف الديماغوجية التي يقفها خصمه ، فيحاول أن يشت الحزب المعارض ، ويتهمه بأنه غير شرعي . فلا يسع الحزب المعارض إلا أن يعتصم بأطراف المدن وبالارياف ، محاولا أن يؤلب الجماهير الريفية على ((أهل الساحل الذين باعوا أنفسهم)) ، على ((سكان العاصمة الفاسدين المتفسخين)))) ولا يدع هذا الحزب ذريعة من الذرائع لا يستعملها ، فهو يهاجم خصمه بحجج مستغلاً جهل الجماهير الريفية وما تتصف به الارياف من انفعالية وعفوية . وتسري الشائعات هامسة هنا وهناك : الجبل قد ثار ، الارياف مستاءة حانقة ، أطلق رجال الدرك رصاص بنادقهم على الفلاحين ، هبت الحكومة ترسل الامدادات والنجدات ، النظام كله يوشك ان ينهار . وهكذا فإن أحزاب المعارضة ، التي ليس لها برنامج واضح ، وليس لها هدف الا أن تحل محل الفئة الحاكمة ، تضع مصيرها بين ايدي الجماهير الريفية العفوية الجاهلة .

النقابات العمالية :

وقد يحدث عكس هذا ، فما تعتمد المعارضة على الجماهير الريفية ، وانما تعتمد على العناصر التقدمية ، على النقابات في الأمة الفتية ، وعندئذ تستعين الحكومة بالجماهير لمقاومة مطالب العمال ، قائلة إنها مناورات أناس مغامرين خارجين على التقاليد .

ان الحقائق التي اتيح لنا أن نلاحظها على صعيد الأحزاب السياسية تلاحظ هي نفسها على صعيد النقابات . ففي أول الأمر تكون التشكيلات النقابية في الاراضي المستعمرَة فروعاً محلية لنقابات البلاد المستعمرة ، و تكون شعارات هذه النقابات أصداء لشعارات نقابات البلد المستعمِر.

حتى اذا توضحت المرحلة الحاسمة من الكفاح الوطني، قرر عدد من النقابيين الوطنيين إنشاء نقابات وطنية ، وانسحب الوطنيون جماعات ووحداناً من المنظمة القديمة المستوردة من الخارج، وأصبحت المنظمة النقابية الجديدة عنصراً جديداً من عناصر الضغط على الاستعمار لدى سكان المدن. لقد سبق أن قلنا أن البروليتاريا في المستعمرات هي بروليتاريا ناشئة، وهي من الشعب فئة محظوظة أكثر من سائر فئاته ، وتنظم النقابات التي تنشأ أثناء الكفاح صفوفها في المدن، وترسم لنفسها برنامجاً سياسياً ، وطنياً في الدرجة الأولى ، وما النقابة الوطنية التي تنشأ في إبان المرحلة الحاسمة من الكفاح في سبيل الاستقلال ، ما هي في واقع الامر الا تجنيد للعناصر الوطنية الواعية النشيطة.

ولكن الجماهير الريفية التي تزدريها الاحزاب السياسية ، تظل مبعدة . واذا أمكن أن تتكون نقابة للعمال الزراعيين، فان هذه المنظمة لا تزيد على أن تلبي تلك الحاجة الشكلية ، أعني ((تكوين جبهة- متحدة ضد الاستعمار)) . أما المسؤولون النقابيون الذين تسلحوا- بخبرتهم في اطار التشكيلات النقابية التابعة للبلاد المستعمرة ، فانهم لا يعرفون كيف ينظمون الجماهير الريفية . لقد فقدوا كل اتصال بطبقة الفلاحين ، فهم لا يعنون في الدرجة الاولى إلا بتنظيم عمال مصانع الفولاذ، وعمال الموانىء ، و موظفي شركات الغاز والكهرباء وما إلى ذلك .

ولهذه التشكيلات النقابية قوة ضاربة مدهشة في عهد الاستعمار . ان هذه النقابات تستطيع في المدن أن تجمّد الاقتصاد الاستعماري في كل لحظة ، أو أن تعرقله على أقل تقدير. ولما كان الاوروبيون يقطنون في المدن غالباً ، كان تأثير هذه المظاهرات في نفوسهم تأثيرا كبيرا، فتراهم يصيحون: لا غاز ، لا كهرباء ، القمامة لم تجمع ، البضائع تفسد على أرصفة الميناء...

ان المدن، وهي أشبه بجزر اوروبية، تشعر في عهد الاستعمار شعوراً قوياً بأثر العمل النقابي . والعاصمة التي هي قلعة الاستعمار لا تستطيع أن تتحمل هذه الضربات . أما ((الداخل)) ((الجماهير الريفية)) فانها تظل غريبة عن هذا الكفاح .

هكذا نرى أنه ليس ثمة تناسب بين عمل النقابات وعمل سائر طوائف الأمة من الناحية القومية حتى اذا تحقق الاستقلال رأينا العمال المنخرطين في النقابات يشعرون بأنهم لا يقومون بعمل ذي بال، وأنهم يدورون على فراغ . فالهدف المحدود الذي رسموه لأنفسهم قد ظهر ، منذ تحقق أنه ليس له كبير شأن اذا قيس باتساع مهمة البناء القومي . ويكتشف القادة النقابيون، إزاء البورجوازية الوطنية التي تكون علاقاتها بالسلطة وثيقة جداً في كثير من الاحيان ،- انهم

أصبحوا لا يستطيعون أن يحصروا نشاطهم في نطاق العمل العمالي . ولأنهم معزولون بطبيعة الحال عن الجماهير الريفية ، ولا يستطيعون أن ينشروا شعاراتهم فيما وراء ضواحي المدن، تراهم يتبنون مواقف ما تنفك تصبح سياسية أكثر فأكثر . والواقع أن النقابات مرشحة للسلطة، فها هي ذي تحاول بجميع الوسائل أن تحرج البورجوازية : تحتج على بقاء القواعد الاجنبية في البلاد ، تستنكر الاتفاقات التجارية، تهاجم السياسة الخارجية التي تتبعها الحكومة الوطنية. ان العمال يدورون على فراغ بعد أن فازوا " بالاستقلال " . وتدرك النقابات غداة الاستقلال أنها لو أعلنت مطاليبها لكان ذلك فضيحة في نظر سائر فئات الأمة . ذلك أن العمال هم في الواقع فئة تنعم بخيرات العهد اكثر من سائر الفئات . انهم هم الفئة التي تعيش في بحبوحة اكثر من سائر الفئات ،- فلو قاموا بحركة تهدف الى الحصول على تحسين ظروف المعيشة للشغيلة وعمال الموانىء لأسخطوا الشعب ، بل لأثاروا عداوة الجماهير المحرومة في الأرياف. وهكذا نرى النقابات وقد حرمت العمل في سبيل الحصول على مزيد من الحقوق للعمال ، قد أصبحت تتحرك وهي في مكانها لا تبرحه.

وليس هذا الوضع الحرج إلا دليلا على أن ثمة حاجة موضوعية الى برنامج اجتماعي يتناول أخيرا جميع فئات الشعب . ان النقابات تكتشف فجأة أن مؤخرة البلاد يجب أن تنو ر وأن تنظم هي أيضا. ولكنها، لأنها لم تهتم يوماً باقامة جسور بينها وبين جماهير الفلاحين، ولأن هذه الجماهير هي بعينها القوى الوحيدة ، الثورية من تلقاء ذاتها ، ما تلبث أن تبرهن على عجزها، وما تلبث أن تكتشف أن برنامجها قد فات أوانه .

والقادة النقابيون، الغارقون في بحر الاضطراب السياسي العمالي ، لابد أن ينتهوا من ذلك أخيراً الى الاعداد لانقلاب. ولكن " الداخل " يكون مستبعداً من هذا الاعداد للانقلاب أيضا ، فالقضية محصورة بين البورجوازية الوطنية والعمالية النقابية. وتعمد البورجوازية الى الاساليب القديمة التي كان يستعملها الاستعمار، فتعرض قواتها العسكرية والبوليسية، على حين تمضي النقابات تعد الاجتماعات وتعبىء عشرات الالوف من أعضائها. ولا يزيد الفلاحون ، إزاء هذه البورجوازية الوطنية وهؤلاء العمال الذين يأكلون بينما الفلاحون جياع ، لا يزيد الفلاحون إزاء هؤلاء وأولئك على أن ينظروا وهم يرفعون أكتافهم غير مكترثين . انهم يرفعون اكتافهم لادراكهم أن هؤلاء وأولئك جميعا لا ينظرون اليهم إلا نظراتهم الى تكأة يتكأ عليها ، فالنقابات والعمال والحكومة انما يستغلون جماهير الفلاحين استغلالا مكيافيليا لا اخلاقيا ، استغلالهم لقوة عاطلة عمياء يحسن الانتفاع بها في المناورات .

ويحدث في بعض الظروف عكس ذلك، فنرى جماهير الفلاحين تتدخل تدخلا حاسما في نضال التحرير الوطني وفي تعيين المستقبل الذي تختاره الأمة في آن واحد . ولهذه الظاهرة أهمية أساسية في البلدان المتخلفة ، لذلك نريد ان ندرسها الآن بشيء من التفصيل .

الصراع داخل الحزب الواحد :

لقد سبق أن رأينا أن في الأحزاب الوطنية ارادتين متجاورتين : أولاهما إرادة تحطيم الاستعمار والثانية ارادة التفاهم معه بالحسنى . ويحدث في داخل هذه الأحزاب أحياناً أمران . الاول هو أن عناصر مثقفة جهدت في تحليل الواقع الاستعماري والوضع الاستعماري تحليلاً دائباً ، تشرع في انتقاد الفراغ العقائدي الذي تلاحظه في الحزب ، وتشرع في انتقاد ما تراه في هذا الحزب من فقر في اسلوب العمل وخطة النضال ، وتأخذ تطرح على القادة في غير كلال ولا ملال أسئلة أساسية كهذه الاسئلة : ((ما القومية ؟ ما الذي تعنونه من هذه الكلمة ؟ ما مضمون هذه اللفظة ؟ لماذا تريدون الاستقلال ؟ بل أولاً ما الوسيلة التي تتصورون أنكم واصلون بها الى الاستقلال ؟)) ويأخذون يطالبونهم في الوقت نفسه بأن يعالجوا قضية خطة العمل معالجة دقيقة صارمة ، ويقترحون على هؤلاء القادة أن يضيفوا الى الوسائل الائتخابية ((جميع الوسائل الاخرى)) . ولا يزيد القادة في أول هذه المجادلات على أن يتملصوا من هذا الغليان بقولهم : انه حماسة شبان مراهقين، ولكن لما كانت هذه المطالب لا تعبر عن غليان ولا عن حماسة شبان مراهقين. فان العناصر الثورية التي تدافع عن هذهالمواقع ما تلبث أن تُعزل ، فالقادة المتدثرون بتجربتهم ما يلبثون ان ينبذوا ، في غير رحمة ، ((هؤلاء المغامرين ، هؤلاء الفوضويين)) .

ان آلة الحزب تبدو مستعصية على كل تجديد. وتجد الاقلية الثورية نفسها وحيدة امام تلك القيادة المذعورة التي يقلقها أن تتصور انجرافها في اعصار لا تعرف وجوهه ولا قوته ولا وجهته .

وأما الأمر الآخر الذي يحدث فيتصل بالقادة الموجهين أو القادة الثانويين الذين تعرضوا، بسبب نشاطهم ، للتعذيب البوليسي الاستعماري . ومن المهم أن نذكر هنا أن هؤلاء الرجال قد وصلوا الى مراكز القيادة في الحزب بفضل نشاطهم الصامد العنيد ، وبفضل ما يتصفون به من روح التضحية، وما يمتازون به من روح وطنية صادقة مثلى . وهؤلاء الرجال الذين صعدوا من القاعدة انما هم في أكثر الاحيان عمال صغار أو شغيلة موسميون أو شبان عاطلون عن العمل.

والانضمام إلى حزب وطني لا يعني عندهم ان يعملوا في السياسة، وأنما يعني أنهم يختارون الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم من الارتقاء من الحالة الحيوانية الى الحالة الانسانية . ان هؤلاء الرجال الذين يزعجهم تمسك الحزب بالشرعية، يظهرون في الاعمال

- التي يُعهد بها اليهم مبادهة وشجاعة وحساً نضالياً ، فسرعان ما تكتشفهم قوى القمع الاستعمارية، فتعتقلهم، وتحكم عليهم، وتعذبهم.، ثم يخرجون من السجن ، ولكنهم يكونون في أثناء اعتقالهم قد محّصوا أفكارهم وشحذوا عزائمهم . انهم حين يضربون عن الطعام، وحين يتضامنون في أعمال عنيفة تقوم بها زنزانة مشتركة في السجن ، يتصورون اطلاق سراحهم فرصة تتاح لهم من أجل الشروع في الكفاح المسلح . وفي ذلك الوقت نفسه، خارج السجن ، يكون الاستعمار الذي أصبح يهاجَم في كل مكان، أخذ يقدم عروضاً للمعتدلين من الوطنيين .

وهكذا يحدث تباعد يشبه القطيعة بين اتجاه التمسك بالشرعية واتجاه الاستخفاف بالشرعية ، في صفوف الحزب. و يشعر أصحاب الاتجاه الثاني أنهم أصبحوا أناساً غير مرغوب فيهم . فأصحاب التمسك بالشرعية يتحاشونهم ويتهربون منهم . واذا كانوا يقدمون لهم يد المعونة بعد احتياطات كثيرة، فهم يشعرون أنهم أصبحوا أجانب عن الحزب. وعندئذ يتصل هؤلاء الرجال بأولئك المثقفين الذين أتيح لهم منذ بضع سنين أن يعجبوا بمواقفهم . فيخرج من هذا الاتصال حزب سري يوازي الحزب الشرعي . ولكن أعمال القمع ضد هذه العناصر التي أصبح استردادها ، تزداد بازدياد تقرب الحزب الشرعي من الاستعمار أملا في تبديله " من داخل "، فاذا بفريق اللاشرعية يجد عندئذ نفسه في منعطف تاريخي .

فهؤلا، الرجال المنبوذون من المدن يتجمعون، أول الامر، في الضواحي المحيطة بالمدن. ولكن شبكة الشرطة تكتشف أمرهم . فيضطرون أخيراً الى ترك المدن نهائياً ، والى الابتعاد عن أمكنة الصراع السياسي، ماضين الى الارياف ، الى الجبال ، الى جماهير الفلاحين . والفلاحون، في مرحلة أولى يحتضنونهم فيخفونهم عن أعين رجال الشرطة. والمناضل الوطني الذي يقرر أن يهجر لعبةالتخفي التي كان يلعبها مع الشرطة، وان يربط مصيره بمصير جماهير الفلاحين، لا يخسر أبداً . ان الفلاحين يغطونه كمعطف ، ويحنون عليه يحمونه حماية لم تكن تخطر له ببال . وهكذا نرى هؤلاء الرجال الذين نفوا من المدن نفياً ، وانقطعوا عن بيئة المدن التي أنضجوا فيها أفكارهم عن الامة وعن النضال السياسي، قد أصبحوا الآن ثواراً حقاً . إنهم . وهم مضطرون الى التنقل بغير انقطاع تحاشياً لرجال الشرطة ، والى السير ليلا حتى لا يلفتوا النظر، يطوفون الآن في البلاد

ويعرفونها . وداعاً زمان المقاهي ، وداعاً زمان المناقشات العقيمة عن الانتخابات القادمة ! ان آذانهم تسمع الآن صوت الشعب، صوته الحق ، وأن أبصارهم ترى الآن بؤس الشعب ، بؤسه الكبير الذي لا نهاية له. ويدركون أنهم اضاعوا وقتاً ثميناً في تعليقات على النظام الاستعماري لا طائل فيها ولا نفع منها. ويفهمون أن التبديل لن يكون اصلاحا ، لن يكون تحسيناً. ويفهمون، وهم يشعرون بدوار لن يبرحهم ، ان التحرك السياسي في المدن سيظل عاجزاً عن تغيير النظام الاستعماري ، عن قلب النظام الاستعماري .

ويألف هؤلاء الرجال مخاطبة الفلاحين . ويكتشفون أن الجماهير الريفية لم تنقطع يوماً عن الاعتقاد بأن تحررها لا يتم الا بالعنف، و بأن القضية هي قضية استرداد الأراضي من الأجانب ، هي قضية كفاح وطني، هي قضية ثورة مسلحة ، الأمر بسيط واضح يكتشف هؤلاء الرجال شعبا متجانسا منسجما، إن كان يعيش حياة ساكنة جامدة، فانه ما يزال محافظا على قيمه الاخلاقية وعلى ارتباطه بالامة ، يكتشف شعبا كريما سخيا، مستعدا للتضحية ، راغبا في العطاء، نافذ الصبر، قوي الشمم والاباء. وواضح أن اللقاء بين أولئك المناضلين الذين تطاردهم الشرطة وبين هذه الجماهير المتوفزة، يمكن أن يؤدي الى مزيج متفجر ذي قوة لا عهد بمثلها من قبل . فأولئك الرجال الوافدون من المدن يدخلون مدرسة الشعب ، وفي الوقت نفسه يفتحون للشعب مدرسة يتعلم فيها الشعب السياسة والحرب . ويأخذ الشعب يشحذ أسلحته. فالدروس في المدرسة لا تطول، وما تلبث الجماهير التي تسترد اتصالها بعضلاتها، أن تحمل القادة على اقتحام الامور. وينطلق الكفاح المسلح .

وتحار الاحزاب السياسية تجاه الثورة. ذلك أن عقيدتها قد اكدت دائماً أنه لاجدوى من اللجوء الى القوة، بل ان وجودها نفسه انما هو نفي دائم لقيام أي ثورة مسلحة . حتى ان بعض الاحزاب السياسية تشارك المستعمِرين تفاؤلهم سراً ، وتهنىء نفسها بأنها في خارج هذا الجنون الذي سيُقمع باسالة الدماء. ولكن النار التي اشتعلت ما تلبث أن تسري الى مجموع البلاد سريان وباء سريع . وتعجز المصفحات والطائرات عن تحقيق النجاح الذي كان يُقدر لها . ويرى الاستعمار استفحال الداء، فيأخذ يفكر. حتى ان أصواتاً في صفوف المضطهدين تأخذ تلفت النظر الى خطورة الوضع .

أما الشعب في اكواخه وفي أحلامه فانه يتجاوب مع الحركة الوطنية الجديدة . ويأخذ يُنشد للمقاتلين المظفرين، بصوت خافت، في قرارة قلبه، أناشيد لا تنتهي . لقد اجتاحت الثورة الامة. والاحزاب هي التي أصبحت الآن معزولة .

غير ان قادة الثورة ما يلبثون أن يشعروا في ذات يوم أن على الثورة أن تمتد الى المدن أيضاً . أنهم ما يلبثون أن يعوا هذه الحقيقة . وليس وعيهم هذا أمراً عرضياً بل هو ثمرة محتومة للمنطق الذي يخضع له تطور الثورة المسلحة في سبيل التحرر الوطني . ذلك أن الاستعمار، رغم أن الارياف هي الينابيع التي لا تنضب لتدفق الطاقات الشعبية ، ورغم أن جماعات الثائرين قد أخذت تنشر الاضطراب في الارياف، يظل واثقا بقوته، مطمئنا الى أنه غير معرض للخطر. لذلك تقرر قيادة الثورة أن تنقل الحرب الى مواقع العدو، الى المدن الهادئة الباذخة.

فقراء المدن :

ونقل الثورة الى المدن يطرح على القيادة مشكلات عسيرة . لقد رأينا أن أكثر القادة ولدوا أو شبوا وترعرعوا في المدن، ثم فروا من بيئتهم تلك تحاشياً لمطاردات الشرطة الاستعمارية، ولأن القيادات المتعقلة المعتدلة في الأحزاب السياسية لم تفهمهم بوجه عام ، فانسحابهم الى الارياف كان هرباً من أعمال القمع من جهة، وكان من جهة أخرى يأساً من التشكيلات السياسية القديمة . والأشخاص الذين يمكنهم أن يتصلوا بهم في المدن انما هم الوطنيون المعروفون في الأحزاب السياسية. ولكننا رأينا أن هؤلاء الثوار قد انشقوا عن أولئك القادة الخائفين . الذين لا يزيدون على تضييع جهودهم في الكلام على مساوىء الاستعمار . ثم ان المحاولات الاولى التي يقوم بها رجال الثورة مغ أصدقائهم القدامى هؤلاء ولا سيما مع الذين يعدونهم أكثرهم تطرفاً ، تأتي مصدّقة لمخاوفهم ، وتجعلهم يكرهون حتى رؤية هؤلاء الاصدقاء القدامى . والواقع أن الثورة التي انطلقت في الارياف ستدخل المدن عن طريق ذلك الجزء الذي لم يستطع حتى الآن أن يجد في عهد الاستعمار عظمة يقضمها . ان الرجال الذين أجبرهم تزايد السكان وأجبرهم تجريدهم من أملاكهم من قبل الاستعمار على ترك أرض آبائهم وأجدادهم ، يأخذون يدورون حول المدن في غيركلال ولا ملال ، آملين أن يُسمح لهم في يوم من الايام بدخولها . فبين هذه الجماهير، بين هذا الشعب الذي يسكن أكواخ القصدير ، بين هؤلاء الفعلة الكادحين انما تجد الثورة حربتها في المدن . ان هؤلاء الفعلة الكادحين ، ان هذه الجموع الساغبة التي فصلت عن قبائلها وعشائرها ، هي بين القوى الثورية في الشعب المستعمَر من أكثرها عفوية وجذرية .

في السنوات التي أعقبت ثورة الماو ماو في كينيا ، رأينا السلطات الاستعمارية البريطانية تضاعف اجراءات الارهاب ضد هذه الفئات الدنيا من الكادحين . ورأينا قوى الشرطة وقوى البعثات التبشيرية تنسق جهودها في عامي ١٩٥٠ و ١٩٥١ من أجل وقف تدفق الشباب الثوري الكيني من الارياف والغابات، وانغماسه في السرقة والفساد والإدمان وغير ذلك، بعد أن يعجز عن إيجاد عمل . ان جنوح الشباب في البلاد المستعمَرة انما هو ثمرة مباشرة لوجود هذه الطبقة البائسة من صغار الكادحين . ومثل ذلك جرى في الكونغو، اذ اتخذت اجراءات قوية ، منذ عام ١٩٥٧، من أجل أن يُعاد الى الارياف أولئك " الشبان الاوغاد " الذين يعكرون صفو النظام والامن، حتى لقد أنشئت معسكرات خاصة لإيوائهم وعهد بهم الى البعثات التبشيرية ، تحت حماية الجيش البلجيكي طبعا.

ان نشوء هذه الطبقة البائسة من الكادحين تخضع لمنطق خاص، فلا الجهود الطافحة التي تبذلها البعثات التبشيرية ، ولا القرارات الكثيرة التي تصدرها الحكومة المركزية بقادرة على وقف نمو هذه الظاهرة. فهذه الطبقة من الناس أشبه بجموع الفئران التي تستمر على قضم جذور الشجرة، رغم ركلها بالأرجل ورميها بالحجارة .

ان أكواخ القصدير التي تتجمع حول المدن تعبّر عن عزم المستعمَر على أن يغزو قلعة العدو ، مهما يكن ثمن ذلك ، ومهما تكن المسارب الخفية التي يجب أن يعمد اليها لتحقيق هذا الهدف. ان نشوء هذه الطبقة الشقية التي تجثم على صدر المدنية وتعكر صفو " الامن " فيها ، انما يعني أن السيطرة الاستعمارية قد أخذ السوس ينخر فيها ، وأن داءً قاتلاً قد أخذ ينتشر في جسمها . وهاهم أولاء الاوباش والعاطلون والمجرمون الذين يطاردهم الحق العام ، ينخرطون في كفاح التحرير مقاتلين أقوياء الشكيمة . أن هؤلاء العاطلين المنبوذين يجدون بالعمل النضالي الحاسم طريقهم إلى الاندماج في مجموع الأمة . ان هؤلاء الناس لا يُرد اعتبارهم اليهم في نظر المجتمع الاستعماري وفي نظر الأخلاق التي ينادي بها المستعمِر . ذلك أنهم ، على خلاف ذلك ، انما يسلكون الى دخول المجتمع طريق القنبلة والمسدس . ولكنهم بذلك يستردون اعتبارهم في نظر أنفسهم وفي نظر التاريخ .

ان الاحزاب السياسية لا تفهم هذه الظاهرة التي تعجّل تفككها . ان ظهور الثورة في المدن على حين غرة يبدل ملامح الكفاح . لقد كانت الجيوش الاستعمارية متجهة كلها الى الارياف، وها هي ذي الآن تقفل راجعة الى المدن على جناح السرعة لتكفل الامن للارواح والارزاق. وها هي ذي تبعثر قواها يمنة ويسرة في القيام بأعمال القمع . ان الخطر ماثل في كل مكان . أرض الوطن

كلها ثائرة، الشعب في المستعمَرة قد انتفض بأسره . وتشهد جماعات الفلاحين المسلحين انفراج الحصار عنها. ان انطلاق الثورة في المدن يتيح لها أن تتنفس .

وحين يرى قادة الثورة أن الشعب الذي عصفت به نار الحماسة قد أخذ يكيل للآلة الاستعمارية ضربات حاسمة، فان شكهم في جدوى السياسة التقليدية يزداد ويقوى . ويصبح كل انتصار جديد دليلا لهم على أنهم كانوا علىحق في عداوتهم لتلك السياسة العقيمة التي يطلقون عليها الآن أسماء جديدة . سياسة الثرثرة الفارغة واللفظية السقيمة والتهويش العقيم . و يشعرون نحو " السياسة " والديماغوجية بكره شديد. لذلك نرى تقديس العفوية ينتصر في اول الأمر .

انبعاث الأمة :

وتأتي الانتفاضات الكثيرة التي تولد في الارياف ، فتؤكد حيثما تنفجر أن الامة حاضرة في كل مكان، وأن حضورها حضور قومي كثيف . لقد أصبح كل مستعمَر مسلح جزءاً من هذه الامة التي انبعثت فيها الحياة . ان هذه الانتفاضات تهدد النظام الاستعماري، وتحمله على تعبئة قواه و بعثرتها ، وتوشك في كل لحظة أن تخنق هذه القوى وأن تقطع أنفاسها. وعقيدتها عقيدة بسيطة : ابعثوا وجود الأمة . وليس ثمة برنامج ولا خطب ولا قرارات ولا اتجاهات . المشكلة واضحة : يجب ان يرحل الاجانب. علينا أن نؤلف جبهة واحدة مشتركة ضد المستعمِر المضطهِد، ويجب أن نعززهذه الجبهة بالكفاح المسلح .

وما ظل القلق يهز الاستعمار ، فان القضية القومية تتقدم الى أمام ، وتصبح قضية كل فرد من أفراد الامة. ان حركة التحرير أصبحت واضحة المعالم ، وهي تتناول مجموع البلاد منذ الآن . والعفوية هي المسيطرة في هذه المرحلة . والمبادهة مبادهة محلية . ففي كل منطقة من المناطق تنشأ حكومة مصغرة تتسلم زمام الأمر . ونرى سلطة وطنية في كل مكان ، في الأودية والغابات ، في الأدغال والقرى . ان كل فرد يثبت بنضاله وجود الأمة ، ويعمل على ان يكفل لها النصر في المنطقة التي هو فيها . وهكذا نشهد قيام استراتيجية أساسها العمل المباشر الشامل الجذري . ان هدف كل جماعة من هذه الجماعات المسلحة التي تتشكل تشكلاً عفوياً انما هو تحرير المنطقة التي هي فيها . ذلك هو هدفها ، وذلك هو برنامجها . ما دامت الأمة موجودة في كل مكان ، فهي موجودة هنا أيضاً . ويتحد الاسلوب والخطة والاستراتيجية الحربية ، بل

يستحيل فن السياسة الى فن حرب . فالمناضل السياسي انما هو المقاتل الحربي . والحرب والسياسة شيء واحد .

ان هذا الشعب المحروم الذي اعتاد أن يعيش محصوراً في نطاق الصراعات والخصومات ، يعمل الآن في جو رائع من تطهر الأمة في المنطقة التي هو فيها . انه يشعر بنشوة جماعية ، فإذا الأسر المتعادية تقرر أن تمحو كل شيء، أن تنسى كل شيء . والاحقاد الراسخة المدفونة تخرج الآن الى النور لتستأصل بمزيد من الاطمئنان الى أنها تستأصل . ان تحمل مسؤولية الأمة بأسرها يقوي الوعي . فوحدة الأمة انما هي وحدة الجماعة قبل كل شيء ، انها ازالة الخصومات القديمة وتصفية التردد . وفي الوقت نفسه يشمل التطهر ذلك العدد القليل من السكان الذين لطخوا شرف البلاد بأعمالهم وبتواطئهم مع المحتل الغاصب. أما الخونة والاشخاص الذين باعوا أنفسهم فإنهم يحاكمون وينالون العقاب الذي يستحقونه. ان الشعب يستيقظ كله من السبات الاستعماري ، ويعيش في جو رائع من الحماسة . الجموع تتدفق في القرى تدفقا متصلا، السخاء والكرم لا يقفان عند حد، الشهامة والاريحية تنطلقان انطلاقا قويا ، الناس يريدون صادقين أن يموتوا في سبيل ((القضية)) التي يكافحون من أجلها . وهذا كله يشبه أن يكون دينا جديدا. ما من أحد من أهل البلاد يستطيع الآن ألا يكترث بهذا الايقاع الجديد الذي يجرف الأمة جرفاً . وتوفد الوفود سريعة الى القبائل المجاورة. هذه أول طريقة لربط الثورة بعضها ببعض . وتحمل هذه الوفود الى المناطق التي لم تتحرك بعد ، حركة وسرعة . وتتصالح القبائل التي كان يحمل بعضها لبعض عداء مستحكما معروفا ، تتصالح وهي تشعر بالفرح وتذرف الدموع، متعهدا بعضها لبعض بالمساعدة والدعم . ان الناس في الكفاح المسلح، يتساندون تساند الاخوة ، كتفاً بكتف وذراعاً في ذراع ، ويكتشفون العدو الحقيقي . وتتسع دائرة الأمة ، وتشرع قبائل جديدة في اقامة كمائن ، داخلة بذلك المعركة . وتعد كل قرية نفسها معسكراً من معسكرات القتال . وينعكس التضامن بين القبائل وبين القرى، ضربات يكيلونها للعدو في كثرة ما تنفك تزداد. ويشير قيام كل فرقة جديدة من فرق المقاتلين ، وانطلاق كل معركة جديدة من المعارك التي تشب هنا وهناك، الى أن كل واحد يضرب العدو ، الى أن كل واحد يجابه العدو.

ويظهر هذا التضامن بمزيد من الوضوح في المرحلة الثانية، المرحلة التي يبدأ فيها العدو بشن هجومه. ان القوى الاستعمارية تجمع صفوفها بعد حدوث الانفجار ، وتعيد تنظيم نفسها، وتبدأ باستعمال طرائق في القتال تناسب طبيعة الثورة التى قامت. وهذا الهجوم الذي تشنه القوى الاستعمارية يبدل جو الانطلاق الفرح الذي ساد المرحلة الاولى . ان العدو يشن. هجومه مركزاً

على نقاط معينة تتجمع فيها قوى كبيرة . وسرعان ما تصبح قوى العدو أكبر من القوة الوطنية الضاربة في نقطة معينة. ومما يجعل الامر متفاقماً أن القوة الوطنية المحلية تميل في أول الامر الى خوض المعركة وجها لوجه، فالتفاؤل الذي سيطر على المشاعر في المرحلة الاولى يجعل القوة الوطنية متهورة، ويفقدها شيئا من الشعور بالواقع . ان الجماعة التي رسخ في اعتقادها أن منطقتها هي (الامة) بأسرها ، ترفض أن ترخي الحبل ، ولا تطيق ان تقاتل متراجعة . وبذلك تسقط ضحايا كثيرة ، ويبدأ الشك بالتسرب الى النفوس. ان الفرقة المحلية تجابه الهجوم المحلي مجابهتها لمعركة حاسمة يتوقف عليها مصير الكفاح كله . انها تتصرف تصرف من يحسب أن مصير البلاد كله يتقرر هنا، الآن .

ولكن من الواضح أن هذا الاندفاع الشديد الذي يريد أن يصفي حسابه مع النظام الاستعماري فوراً ، لا بد أن يتنكر لنفسه من حيث هو مذهب يعتنق مبدأ ((الفورية)) . وتجيء الواقعية اليومية العملية فتحل محل اندفاعات الأمس .

ان دروس الوقائع ، وضحايا التهور، تحمل على اعادة النظر في الامر، وتفسير الأحداث تفسيرا جديدا شاملا. ان غريزة البقاء وحدها تحمل على اتخاذ موقف أكثر مرونة وحركة . فهذا التبدل في أسلوب القتال قد تميزت به الأشهر الاولى من حرب تحرير الشعب الأنغولي . إنكم تتذكرون أن الفلاحين الأنغوليين قد هجموا في اليوم الخامس عشر من آذار (مارس) ١٩٦١ على المواقع البرتغالية جماعات مؤلفة من ألفي شخص أو ثلاثة آلاف شخص . فالرجال والنساء والاطفال، سواء أكانوا مسلحين أم كانوا غير مسلحين ، أخذوا يزحفون كتلاً متراصة وموجات متعاقبة نحو المناطق التي يسيطر عليها المستوطن البرتغالي والجندي البرتغالي ، ويرفرف عليها علم البرتغال، فحاصروا قرى ومطارات بل هاجموا قرى ومطارات ، ولكنكم تعرفون أن رشاشات الاستعمار حصدت ألوفا من الأنغوليين . وما هو الا وقت قصير حتى أدرك قادة الثورة الانغولية أن عليهم أن يعمدوا الى طريقة أخرى اذا هم أرادوا أن يحرروا بلادهم حقاً . لذلك رأينا الزعيم الانغولي (هلدان روبرتو) يعيد تنظيم " الجيش الوطني الانغلولي " منذ بضعة شهور، مستفيداً من تجارب مختلف حروب التحرير، مستعملا أساليب حرب العصابات .

حرب العصابات :

ذلك أن القتال، في حرب العصابات، لا يتم في المكان الذي يكون فيه المقاتل، بل في المكان الذي يذهب اليه . ان كل مقاتل في حرب العصابات انما ينقل الوطن الى حيث تمضي قدماه العاريتان . ان جيش التحرير الوطني ليس هو الجيش الذي يعرّض نفسه لقوى العدو مرة واحدة ، بل هو الجيش الذي يمضي من قرية إلى قرية ، ويختبىء في الغابات ، وتمتلىء قلوب جنوده فرحاً حين يرون في الوادي سحابة الغبار التي تثيرها أقدام العدو . القبائل في حرب التحرير تتحرك ، وجماعات المقاتلين تنتقل ، وتغير مواقعها في غير انقطاع . رجال الشمال يتحركون نحو الغرب ، ورجال السهل يتجهون الى الجبال . وما من موقع استراتيجي يفضل على غيره . ان العدو يتخيل أنه يطاردنا ويلاحقنا ، ولكننا نتدبر الأمور دائماً بحيث نكون وراءه ، نتعقبه ونهوي عليه في اللحظة التي يظن فيها أننا قد فنينا . نحن الذين نطارده الآن ونلاحقه . ونشعر انه ، مع معداته وأسلحته ، يغوص في الوحل ، ثم يغوص ويغوص . ونغني نحن ، ثم نغني .

الوعي الثوري :

وفي أثناء ذلك يدرك قادة الثورة أن عليهم أن ينوّروا جموع المقاتلين ، أن يعلموها، أن يثقفوها، أن يبثوا فيها عقيدة، يدرك قادة الثورة أن عليهم أن يخلقوا جيشاً ، أن يمركزوا السلطة. ان علينا أن نصحح التبعثر والتشتت ، ان علينا أن نتجاوز تفتت القوى المقاتلة . وعندئذ نرى هؤلاء القادة الذين فروا من جو السياسة العقيمة الذي يسود المدن، يعودون الى السياسة لا كأسلوب تخدير أو تضليل ، بل كوسيلة وحيدة الى تقوية الكفاح، والى اعداد الشعب لقيادة البلاد قيادة واعية . ان قادة الثورة يشعرون أن الانتفاضات ، ولو كانت رائعة ، في حاجة الى (أفكار المعركة) من حيث هي انتفاضة ، ويحيلونها بذلك حربا ثورية . انهم يدركون أن انتصار الكفاح يقتضي أن تكون الأهداف بينة جلية ، وأن تكون أساليب العمل واضحة ، ويقتضي خاصة أن تعرف الجماهير ما في جهودها من قوة دافعة مثمرة. ان الجماهير تصمد ثلاثة أيام وربما ثلاثة شهور باستعمال الحقد المتراكم في صدورها ، ولكنك لا تستطيع أن تفوز بالنصر في حرب تحريرية، وأن تحطم أداة العدو الرهيبة، وأن تبدل الناس ، اذا انت اغفلت رفع مستوى الوعي لدى المقاتل . ليس يكفيك تأجج الحماسة ، ولا عنف الشجاعة ، ولا جمال الشعارات .

التخريب الاستعماري :

ثم أن تطور حرب التحرير يتولى بنفسه تعزيز هذه القناعة لدى قادة الثورة . ذلك أن العدو يغير خطته . فهو يضيف إلى سياسة القمع الوحشية في الظروف المؤاتية سياسة أخرى : يتظاهر بانفراج الأزمة ، ويقوم بمناورات لتفريق الصفوف ، ويعمد إلى " الأساليب السيكولوجية " لتضليل الناس . وهو يحاول هنا وهناك أن يبعث المنازعات القبلية من مرقدها ، حتى لينجح في ذلك أحياناً بدفع بعض الأفراد الى ارتكاب أعمال استفزازية ، مستعملاً نوعين من الناس . فأما النوع الأول فعملاؤه التقليديون من زعماء ، ومشايخ ، وسحرة ، ومشعوذين . ونحن نعلم أن جماهير الفلاحين التي عاشت زمناً طويلاً في جمود رتيب ، تظل تقدس الزعماء الدينيين ووجهاء الأسر العريقة ، فالقبيلة كلها تسير ، كرجل واحد ، في الطريق التي يعينها الزعيم التقليدي، وفي وسع الاستعمار أن يكفل لنفسه مساعدة هؤلاء الرجال الموثوقين بما يغدقه عليهم من ذهب.

وأما النوع الثاني فيصطاده الاستعمار من بين صفوف الطبقة الدنيا من الفعلة الأشقياء . ان بين صفوف هذه الطبقة عددا ضخما من العاطلين عن العمل . لذلك كان ينبغي لكل حركة تحرير وطني أن تنتبه أشد الانتباه الى هذه الطبقة . ورجال هذه الطبقة يلبون دائما نداء الثورة ، ولكن اذا ظنت الثورة أن في وسعها أن تستغني عنهم ، فإن جموعهم الجائعة المنبوذة ما تلبث ان تخوض غمار القتال ، وان تشارك في الصراع ، ولكنها تقاتل عندئذ في صفوف العدو . ان العدو الذي لا يدع فرصة من الفرص لجعل الزنوج يأكل بعضهم بعضا، سيستعمل الآن جهل أفراد هذه الطبقة البائسة وتقدان الوعي بين صفوفهم ، فاذا لم تبادر الثورة فورا الى تنظيم هذا الاحتياطي المهيأ للعمل، ضمهم الاستعمار الى جنوده مأجورين . ان هذه الطبقة هي التي أمدت الاستعمار في أنغولا بكشافي الطرق الذين يتقدمون اليوم القوات المسلحة البرتغالية. وفي الكونغو نجد أفراد هذه الطبقة في المظاهرات الاقليمية بكاساي وكاتنغا، كما وجدنا أعداء الكونغو يستعملونهم بمدينة ليوبولدفيل في تنظيم اجتماعات " عفوية " تعادي (لومومبا) .

ان العدو يحلل قوى الثورة، ويعمق دراسته للخصم الذي هو الشعب المستعمَر ، فيدرك ما هنالك من فراغ ايديولوجي ، ويدرك ما هنالك من فقدان الاستقرار المعنوي في صفوف بعض طبقات السكان، ويكتشف أن هنالك، في مقابل الطليعة الثورية القوية المتراصة ،كتلة من الرجال

يمكن دائماً ان يحملها بؤسها الدائم وذلّها وفقدان شعورها بالمسؤولية على النكوص . لذلك يستعمل العدو هذه الكتلة من الناس دافعاً لها من أجل ذلك ثمناً كبيراً . ان الدولارات الامريكية والفرنكات الفرنسية تتقاطر غزيرة على الكو نغو، وفي مدغسقر تدفع للخونة أجور طائلة ، وفي الجزائر يُضم الى القوى الفرنسية جنود مرتزقة من الجزائريين . و خلاصة القول أن قادة الثورة يشعرون أن العدو يحاول أن يخرب الأمة . ان قبائل برمتها تنقلب على أعقابها، وتحمّلها العدو أسلحة حديثة، ويوجهها الى غزو القبائل المعادية التي يعينها لها . وهكذا فان الاجماع الذي نلاحظه في الساعات، الاولى من الثورة خصبا رائعا عظيما ، ما يلبث أن يتعطل . وتتفتت الوحدة القومية، و تصل الثورة الى منعطف حاسم . عندئذ تصبح التوعية السياسية للجماهير ضرورة تاريخية .

ان ذلك الاندفاع الذي كان يريد أن ينقل الشعب المستعمَر الى مستوى السيادة المطلقة دفعة واحدة ، وذلك الاعتقاد الذي كان يخامر النفوس بأن في امكاننا أن نجر جميع أجزاء الامة في حركة واحدة تحت ضوء واحد ، وتلك القوة التي كان يقوم عليها هذا الأمل، ان ذلك كله ينكشف الآن بالتجربة ضعفاً كبيراً . ان المستعمَر ، ما ظل يتخيل أن في امكانه أن ينتقل رأساً ، بلا مراحل ، من حالة المستعمَر الى حالة المواطن الذي يملك السيادة، وما ظل يستسلم لخداع فورية عضلاته، لا يحقق تقدماً حقيقيا في طريق المعرفة، بل يظل وعيه بسيطاً ساذجاً . ان المستعمَر ينخرط في الكفاح في حرارة كما رأينا، ولاسيما حين يكون هذا الكفاح مسلحاً . والفلاحون يندفعون في الثورة بحماسة عظيمة ، و لا سيما انهم لم يكفوا لحظة عن الثبات على طراز من الحياة يعادي الاستعمار بطبيعته . ان الفلاحين قد حافظوا دائما على ذاتيتهم تجاه الاستعمار بعد كثير من المخاتلة والمكر ، حتى انهم يبلغون من ذلك الى الاعتقاد بأن الاستعمار لم ينتصرعليهم يوماً . ان أنفة الفلاح، واحجامه عن النزول الى المدن، واشمئزازه من مقاربة العالم الذي بناه الاجنبي، وتراجعه الدائم كلما دنا منه ممثلو الحكم الاستعماري ، ان ذلك كله يعني دائما أنه يقابل الانقسام الذي أوجده المستعمِر بانقسام من عنده .

لاشك في أن (التعصب العرقي) الذي يُقابل به المستعمَر تعصب المستعمِر ، وأن عزم المستعمَر على الدفاع عن جلده جوابا على اضطهاد المستعمِر ، لاشك في ان ذلك يهيب بالمستعمَر إهابة كافية الى الانخراط في الكفاح . ولكن المرء لا يصمد في حرب طويلة، ولا يتحمل عذابا كبيرا، ولا يطيق أن يرى فناء أسرته كلها ، لمجرد أنه يريد أن ينتصر حقده وأن ينتصر تعصبه

العرقي . ان التعصب العرقي ، والكره ، والحقد ((والرغبة المشروعة في الانتقام)) ، ان ذلك كله لا يمكن أن يغذي حرباً تحريرية .

ان تلك البروق التي تومض في نفسي فتدفع جسمي في طريق هائجة، وتلقيني الى تهاويل تشبه أن تكون هلوسات مرضى، فاذا تصوّر وجه العدو يجعلني في حالة دوار، واذا دمي يحدوني أن أسفح دمه، واذا موتي البطيء بالعطالة يحضني على أن أحمل اليه الموت ، ان تلك البروق وهذه الحماسة الكبيرة التي تشب في النفس في الساعات الاولى، ما تلبث أن تنحل إذا هي أرادت أن تتغذى من ذاتها . صحيح أن الجرائم المتصلة التي ترتكبها القوات الاستعمارية ما تنفك تُدخل العناصر الانفعالية في الكفاح، وما تفتأ تمد المناضل بدواع جديدة الى الحقد، وما تفتأ تزوده بأسباب جديدة تحفزه على أن يبحث عن ((المستعمِر الذي يجب عليه أن يذبحه)) . ولكن قادة الثورة يدركون يوما بعد يوم ان الكره ، لايمكن أن يكون برنامجا . انك لا تستطيع أن تركن الى الخصم الذي يعرف دائما كيف يتخلص من المآزق ، وأن تطمئن الى أنه سيضاعف جرائمه، فيعمق ((الهوة)) ويدفع مجموع الشعب دفعا إلى أحضان الثورة ؛ وقد رأينا أن الخصم يحاول على كل حال أن يكتسب بعض فئات السكان، وبعض المناطق، وبعض الزعماء. حتى انه يصدر الى المستوطنين والى قوى الشرطة تعليمات بهذا الصدد، فترى سلوك هؤلاء يتلطف ويصطنع شيئا من ((الروح الانسانية)) ، حتى لقد يأخذون يخاطبون المستعمَرين بقولهم : ((سيدي وسيدتي)) وما ينفكون يضاعفون التأدب والتهذب ، الى أن يشعر المستعمَر حقاً أن ثمة تبدلا قد حدث.

والمستعمَر الذي لم يحمل السلاح لمجرد أنه كان يموت جوعا وانه كان يرى مجتمعه بسبيل الانحلال وانما حمل السلاح أيضا لان المستوطن كان ينظر اليه نظرته الى دابة ، ويعامله معاملة دابة، لا بد أن يتأثر بهذه التدابير الجديدة . ان هذه الاكتشافات السيكولوجية تضعف الكره . والمختصون في علم النفس وعلم الاجتماع ينيرون الطريق للمناورات الاستعمارية ، ويضاعفون دراساتهم ((للعقد)) عقدة الحرمان ، عقدة القتال ، الخ .. وها هم أولاء الاستعماريون يرفعون منزلة السكان الاصليين ، محاولين أن يفلوا سلاحهم بعلم النفس، وببضع قطع من النقود أيضا بطبيعة الحال . هذه التدابير التافهة. هذه الاصلاحات الظاهرية ، التي لا تُبذل جزافا مع ذلك، وانما تبذل بمقادير معلومة، تتوصل الى تحقيق بعض النجاح . ذلك أن جوع المستعمَر، جوعه الى من يعامله معاملة انسان ، ولو بأرخص الاثمان، قد بلغ من القوة ان هذه الصدقات يمكن أن تؤثر في نفسه . ان شعوره قد بلغ من الضعف والكثافة أنه يهتز لأيسر بارقة . ان ظمأه الكبير الى الضوء في أول الامر مهدد في كل لحظة بأن يغرر به وان يضلل . فإذا المطالب العنيفة

الشاملة التي كانت تشق السماء شقا تنطوي الآن على نفسها وتتواضع . ان الذئب المفترس الذي كان يريد أن يلتهم كل شيء ، والاعصار العاصف الذي كان يريد أن يحقق ثورة حقيقية ، مهددان بأن تتغير ملامحهما فما يُعرفان ، اذا استمر الكفاح، وانه ليستمر. ان المستعمَر مهدد في كل لحظة بأن يُسقطوا في يده بأي تنازل .

ويكتشف قادة الثورة فقدان الثبات هذا لدى المستعمَر، يكتشفونه في رعب ويحارون في أول الأمر ، لكنهم ما يلبثون ان يفهموا من هذه الزاوية الجديدة ان عليهم أن يشرحوا الامور، وان يحملوا الى النفوس وعيا يحررها من الانزلاق . ان الحرب تستمر، و العدو ينظم صفوفه، ويقوي نفسه، ويدرك ا ستراتيجية المستعمَر . وكفاح التحرير الوطني ليس اجتياز مسافة بوثبة واحدة . ان الملحمة تتابع فصولها كل يوم . والآلام التي يقاسيها المقاتلون أقوى من جميع الآلام التي قاساها الشعب في عهد الاستعمار: ((يظهر أن المستوطنين قد أصبحهوا في المدن غير ما كانوا بالأمس . لقد تبدلوا. لقد أصبح جماعتنا أكثر سعادة)) . هذا هو الخطر . :ان الايام تتلو الايام ، وما ينبغي للمستعمَر المنخرط في الكفاح ، ولا للشعب الذي يجب أن يستمر في مساندة الثورة . أن يتوقفا. يجب ألا يتوهما أن الغاية قد تحققت ، وأن الهدف قد تم الوصول اليه. يجب أن تُشرح لهم الاهداف الحقيقية التي يسعى الكفاح الى تحقيقها ، ويجب ألا يتخيلوا أن بلوغ هذه الأهداف أمر مستحيل . نعم ، يجب أن نشرح لهم الامور، يجب أن يعرف الشعب إلى أين هو ماضٍ ، وكيف ينبغي له أن يمضي الى حيث هو ماضٍ . ليست الحرب معركة كبيرة واحدة ، وإنما هي سلسلة من معارك محلية ليست واحدة منها فاصلة في حقيقة الأمر .

يجب اذاً أن ندخر قوانا، ألا نلقيها في الميزان دفعة واحدة . ان احتياطات الاستعمار أغنى وأكبر من احتياطات المستعمَر . والحرب مستمرة . والعدو يدافع عن نفسه . وموعد التصفية الكبرى ليس اليوم ولا غداً . لقد بدأت هذه التصفية منذ أول يوم في الواقع، ولن تنتهي يوم لا يبقى ثمة خصم، بل يوم يدرك هذا الخصم لأسباب كثيرة أن مصلحته نفسها تقتضي أن ينهي هذا الصراع، وأن يعترف بسيادة الشعب المستعمَر. يجب ألا تبقى أهداف الكفاح غامضة غموضها في الايام الأولى . فان لم ننتبه الى هذا تعرضنا في كل لحظة لان نرى الشعب يتساءل عند أي تنازل يتنازله العدو : فيم نطيل هذه الحرب ؟ ذلك أن الناس قد بلغوا من تعودهم احتقار المستعمِر لهم، واصراره على الاستمرار في اضطهادهم مهما كلف الأمر، انهم ما إن يلاحظوا بادرة طيبة منه، وما ان يُظهر لهم شيئاً من حسن الاستعداد ، حتى يحيوا ذلك مدهوشين وحتى يباركوه فرحين. ان المستعمَر يميل عندئذ الى أن يغني طرباً . فيجب اذاً أن نضاعف الشرح والتوضيح، أن نفهم المناضل

أن تنازلات الخصم ما ينبغي أن تضله عن الحقيقة، أن تعميه ، فهذه التنازلات ليست الا تنازلات، وهي لا تمس جوهر الامر، حتى ليمكن أن يقال ، من وجهة نظر المسمتعمَر ، ان كل تنازل لا يمكن أن يمس جوهر الامر ما لم يتناول النظام الاستعماري في جوهره .

ان الاشكال الوحشية التي يكتسبها وجود المحتل قد تزول زوالا تاما. والواقع أن زوالها هذا لا يعدو أن يكون تخفيضاً للنفقات التي ينفقها المحتل ، ولا يعدو أن يكون إجراء ايجابياً من أجل الحيلولة دون بعثرة قواه . ولكن الشعب المستعمَر يدفع ثمن ذلك باهظا، يدفع ثمنه مزيداً من تحكم المستعمِر بمصير البلاد . يجب علينا أن نذكر للشعب أمثلة تاريخية تساعده على الاقتناع بأن مهزلة التنازل هذه وبأن تطبيق مبدأ التنازل هذا، قد أديا الى سيطرة المستعمِر سيطرة ان كانت أخفى فهي أكمل وأشمل. يجب أن يعرف الشعب وأن يعرف مجموع المناضلين ذلك القانون التاريخي وهو أن هناك تنازلات ليست في حقيقتها الا أغلالا. فإذا أغفلنا هذا الشرح وهذا التوضيح رأينا قادة بعض الاحزاب السياسية تتورط بسهولة في مساومات مع المستعمِر. يجب أن يقتنع المستعمَر بأن الاستعمار لا يهب له شيئا، وأن ما يحصل عليه المستعمَر بكفاحه السياسي أو كفاحه المسلح ليس ثمرة حسن النية أو طيب القلب لدى المستعمِر، وانما هو افصاح عن عجز المستعمِر عن تأجيل التنازلات. ويجب أن يعلم المستعمَر أيضا أن المستعمِر ليس هو الذي يقدم هذه التنازلات، وانما المستعمَر هو الذي يقدمها. فحين تقرر الحكومة البريطانية أن تمنح السكان الافريقيين عددا من المقاعد الاضافية في ((مجلس كينيا)) ، فما من أحد يستطيع أن يدعي أن الحكومة البريطانية قد قامت بتنازلات، اللهم الا أن يكون قليل الحياء أو عديم الوعي . ان الشعب الكيني . هو الذي تنازل هنا عن حقوقه. يجب على الشعوب المستعمَرة ، يجب على الشعوب التي كانت محرومة مجردة من حقوقها، أن تتحرر من هذه الحالة النفسية التي لازمتها الى الآن . لقد يمكن عند الاقتضاء أن يقبل المستعمَر حلاً وسطاً ، ولكن ما ينبغي له أبداً أن يقبل مساومة.

هذه الشروح كلها، وهذه التوضيحات المتصلة المتعاقبة التي تحمل الى النفوس الوعي والنور، وهذا المسير في طريق معرفة تاريخ المجتمعات، هذا كله لا يمكن أن يتم الا في اطار تنظيم يتناول الشعب . وهذا التنظيم انما يكون باستعمال العناصر الثورية التي وفدت من المدن في اول الثورة ، والعناصر التي التحقت بالارياف أثناء تطور الكفاح . ولكن الفلاحين الذين ينضجون معارفهم من اتصالهم بالتجربة ، يبرهنون على أنهم قادرون هم أيضا على قيادة الكفاح الشعبي، فالمؤسسات التقليدية تقوى وتعمق، حتى لقد تتبدل تبدلا حقيقيا : مجالس ((الجماعة)) التي تفض الخلافات وتفصل في المنازعات، ومجالس القرى، تستحيل الى مجالس ثورية ولجان سياسية

حربية ؛ ويظهر في كل جماعة من جماعات المقاتلين ، وفي كل قرية من القرى ، رجال يتولون التوجيه السياسي، ويأخذ هؤلاء الرجال بتنوير الشعب الذي بدأ يشعر من عزلته بحيرة، ولا يحجم هؤلاء الرجال عن معالجة المشكلات التي يؤدي السكوت عنها الى مزيد من الحيرة والبلبلة من ذلك أن المناضل الذي حمل السلاح يُحنقه أن يرى كثيراً من أبناء وطنه ما يزالون يتابعون حياتهم في المدن كأنهم غرباء عما يحدث في الجبال ، كأنهم يجهلون هذه الحركة الجوهرية التي انطلقت . ان صمت المدن ، واستمرار الحياة فيها على منوالها المألوف ، يولّد في نفس الفلاح شعوراً مراً بأن قسما بكامله من الامة يكتفي بمشاهدة المعركة ولا يزيد على عد الضربات . وهذا يثير الحنق والغيظ في نفوس الفلاحين ويعزز ميلهم الى احتقار سكان المدن، وإلى الحكم عليهم بالسوء جميعا. فعلى الموجه السياسي في هذه الحالة أن يجعل الفلاحين قادرين على تمييز الامور تمييزاً أدق، فيفهمهم أن هناك اجزاء من الشعب لها مصالح خاصة لا تتفق أتفاقا كاملا دائما مع المصلحة الوطنية ؛ ويدرك الشعب عندئذ أن الاستقلال الوطني يبرز وقائع كثيرة هي في بعض الاحيان متباعدة بل متعارضة. والشرح في هذه اللحظة بعينها من لحظات الكفاح، أمر حاسم ، لأنه ينقل الشعب من أفق الوطنية العامة الغامضة الى افق الوعي الاجتماعي والاقتصادي . ان الشعب الذي تبنى في بداية الكفاح تلك الثنائية الأولى التي أوجدها المستوطن الاجنبي : البيض و السود، العرب و الأروام ، يدرك الآن في أثناء النضال أنه يتفق لسود أن يكونوا أكثر بياضاً من البيض، وأن هناك فئات من السكان لا يحملها إمكان ارتفاع راية وطنية وامكان قيام أمة مستقلة على التنازل عن امتيازاتها و عن مصالحها . ويدرك الشعب ان هناك أناساً من بني وطنه لا يتمسكون بمصالحهم فحسب ، بل ينتهزون كذلك فرصة الحرب لتعزيز وضعهم المالي وقوتهم الناشئة . أن هناك أناسا من السكان الاصليين يتاجرون ويحققون ارباحا طائلة من قيام هذه الحرب ، على حساب الشعب الذي يضحي بنفسه دائما ويروي بدمه تراب الوطن . ان المناضل الذي يجابه بوسائله البدائية آلة الحرب الاستعمارية يكتشف أنه بقضائه على الاضطهاد الاستعماري يساهم في خلق جهاز استغلالي آخر. وهو اكتشاف مؤلم شاق مثير . لقد كان الامر بسيطا في البداية : كان هناك في نظره أشرار من جهة وطيبون من جهة أخرى. أما الآن فقد حل محل الوضوح الخيالي اللاواقعي الأول ظلام يجزىء الشعور. ان الشعب يكتشف أن الاستغلال الظالم يمكن أن يكون زنجياً او عربياً . وهو يندد عندئذ بالخيانة ، ولكن يجب ان نصحح هذا التنديد . فالخيانة ههنا ليست وطنية بل اجتماعية ؛ ينبغي لنا ان نعلم الشعب أن يندد باللصوص . والشعب في مسيره الشاق الى المعرفة العقلية، يترك أيضا تلك النظرية التبسيطية التي كان يتميز بها ادراكه للمتسلط . ان النوع يتجزأ الآن أمام بصره . انه يلاحظ من حوله مستوطنين لا يشاركون

في تلك الهستريا الاجرامية ، ويختلفون عن سائر أبناء جلدتهم . إن بين هؤلاء المستوطنين الذين كان يعدهم كتلة واحدة تمثل التسلط الاجنبي بغير تمييز أناسا يستنكرون الحرب الاستعمارية ؛ "- بل أعجب من ذلك أن أفراداً من هذا النوع ينتقلون الى المعسكر الآخر، ويجعلون أنفسهم زنوجا أو عربا ويرتضون تحمل الآلام والتعذيب والموت.

هذه الامثلة تضعف الحقد العام الذي كان المستعمر يشعر به نحو جميع الأجانب. حتى لقد يحيط ذلك العدد القليل من الاشخاص بعاطفة حارة ، ويميل بنوع من المزايدة العاطفية، الى أن يمنحهم ثقة مطلقة. ان في عاصمة البلاد المستعمِرة ، التي ينظر اليها المستعمَر نظرته الى جلاد لا يرحم، أصواتاً كثيرة ، شهيرة في بعض الاحيان، تستنكر بغير تحفظ سياسة الحرب التي تتبعها الحكومة الاستعمارية ، وينصحون هذه الحكومة بأن تثوب الى رشدها وأن تحسب أخيراً حساب الارادة القومية للشعب المستعمَر. بل ان جنودا من جنود الاستعمار يفرون من بين صفوفه، كما أن جنوداً آخرين يرفضون صراحة أن يقاتلوا ضد حرية الشعب ، فيذهبون الى السجون، ويتحملون العذاب باسم حق هذا الشعب في الاستقلال وفي ادارة شؤونه بنفسه.

وعندئذ لا يكون المستوطن رجلا يجب ذبحه ، وكفى . ان أفراد الكتلة الاستعمارية يظهرون أقرب الى الكفاح الوطني ، أقرب كثيراً الى الكفاح الوطني من بعض أبناء الامة . وبذلك يصبح التفريق العنصري والتعصب العنصري متجاوزاً في الاتجاهين . فلا كل زنجي ولا كل مسلم يستحق شهادة صدق ، ولا كل مستوطن يُستقبل بتناول البندقية أو السيف . هكذا الو عي يطل بكثير من الجهد والمشقة على حقائق جزئية محدودة غير ثابتة . وذلك كله صعب كما تقدرون . وانما يسهل مهمة ترشيد الشعب أن يكون التنظيم قويا صارماً وأن يكون المستوى العقائدي لدى قادة هذا التنظيم عالياً . وعلو المستوى العقائدي إنما يتحقق ويتعزز خلال اتساع النضال ومناورات الخصم وخلال الانتصارات والهزائم . و والقيادة تكشف عن قوتها وسلطتها بفضح الاخطاء وبالاستفادة من كل تقهقر في الوعي لاستخلاص الدرس ولتوفير شروط جديدة من أجل التقدم . فهي تستثمر كل نكوص محلي من أجل اعادة النظر في القضية على مستوى جميع القرى وجميع الشبكات . ان الثورة تبرهن لنفسها على أنها عقلية ، وتعبر عن نضجها كلما استفادت من حالة من الحالات في تعميق وعي الشعب. وقيادة الثورة ، ولو كان ما يحيط بها يوهم أحيانا بأن الاهتمام بالفروق الطفيفة خطر ، وبأنه يحدث صدوعاً في كتلة الشعب، تظل ثابتة على مبادىء الكفاح الوطني والكفاح العام الذي يخوضه الانسان لتحقيق تحرره . صحيح أن هناك وحشية تحتقر الفروق الطفيفة والحالات الفردية، وحشية ثورية حقاً ، غير أن هناك وحشية

أخرى تشبهها شبهاً كبيراً وليست من الروح الثورية في شيء، بل هي منافية للثورة ، مغامرة فوضوية. فاذا لم تحارب هذه الوحشية الصرفة الكلية فوراً ، أدت حتماً إلى اخفاق الحركة في غضون أسابيع .

ان المناضل الوطني الذي هجر المدينة بعد ان آلمته المناورات الديماغوجية المتخاذلة التي يقوم بها المسؤولون في الحزب، بعد ان خيبت ظنه " السياسة " ، يكتشف أثناء النضال العملي المحسوس سياسة جديدة لا تشبه السياسة القديمة بوجه من وجوهها ؛ انها سياسة مسؤولين وقادة داخلين في التاريخ يتولون بعضلاتهم وأدمغتهم توحيد كفاح التحرير. ان هذا الواقع الجديد الذي سيعرفه المستعمَر الآن لا يوجد الا بالعمل النضالي . فالنضال الذي ينسف الواقع القديم الاستعماري ، يكشف عن جوانب كانت مجهولة ويفجر معاني جديدة، ويضع الأصبع على التناقضات التي كان يخبئها ذلك الواقع . ان الشعب الذي يكافح ، الشعب الذي يدرك بالنضال هذا الواقع الجديد ويعرفه، يسير حتى يتحرر من الاستعمار متنبئاً بجميع محاولات التضليل ، متهيئاً لجميع الاكاذيب التي تلفق باسم الوطنية . والعنف وحده، العنف الذي يمارسه الشعب، العنف المنظم الواعي الذي ينيره قادة الثورة ، هو الذي يتيح للجماهير ان تحلل الواقع الاجتماعي وأن تملك مفتاحه . وبدون هذا النضال، بدون هذه المعرفة النابعة من النضال ، لا يكون ثمة الا تهريج : قليل من التبديل ، بضعة اصلاحات في القمة ، راية وطنية ، أما تحت ، فكتلة كبيرة من الناس ما تزال تعيش في ((القرون الوسطى)) ، وما تنفك تجري حياتها على وتيرة ثابتة .

مزالق الشعور القومي

أما أن المعركة ضد الاستعمار لا تجري منذ البداية على مستوى قومي ، فذلك ما يدلنا عليه التاريخ . إن المستعمَر يظل زمناً طويلاً يوجه جهوده نحو إزالة بعض المظالم : العمل الاكراهي، العقوبات الجسمية، تفاوت الاجور ، تقييد الحقوق السياسية ، الخ . وهذا النضال من أجل الديمقراطية ضد اضطهاد الانسان ما يلبث أن يخرج شيئا فشيئا من هذا الابهام الليبرالي الجديد ، وما يلبث أن يُطل على المطامح القومية ولو بكثير من المشقة في بعض الأحيان . ولكن عدم تأهب الصفوة، وفقدان الاتصال العضوي بين الصفوة وبين الجماهير، وكسل هذه الصفوة، بل جبنها في اللحظة الحاسمة من لحظات الكفاح ، كل ذلك يؤدي الى مزالق فاجعة .

إن الشعور القومي ما لم يكن تجسيداً منسجماً لاعمق مطامح الشعب بمجموعه ، وما لم يكن ثمرة مباشرة حية نابضة للتعبئة الشعبية ، فلن يكون في أحسن الأحوال الا شكلا لا مضمون له، سريع الزوال قليل الدقة والوضوح . والصدوع التي نجدها فيه عندئذ هي السبب في أن البلاد الناشئة المستقلة كثيراً ماتنتقل بسهولة من حالة الامة الى حالة القبيلة ، ومن مستوى الدولة الى مستوى العشيرة . ان هذه الشقوق هي السبب فيما تعانيه الاندفاعية القومية والوحدة القومية من انتكاسات مؤلمة مؤذية. وسنرى الآن أن مواطن الضعف هذه وما تشتمل عليه من أخطار فادحة، انما هي نتيجة تاريخية لعجز البرجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة عن ترشيد النضال الشعبي، أي عن استخلاص معانيه ودوافعه .

البرجوازية الوطنية :

ان الضعف الكلاسيكي المعروف الذي يعانيه الوعي القومي في البلدان المتخلفة لا يرجع فقط الى أن النظام الاستعماري قد أفسد الانسان المستعمَر ، وانما يرجع أيضاً الى كسل البورجوازية الوطنية ، والى فقرها، والى أن فكرها قد تكون تكوناً كوزموبوليتياً في قراراته .

إن البورجوازية التي تتسلم مقاليد السلطة في نهاية العهد الاستعماري هي بورجوازية متخلفة . قوتها الاقتصادية تكاد تكون صفراً ، أو هي على الاقل لاتقاس أبداً بالقوة الاقتصادية التي تملكها بورجوازية البلاد المستعمِرة التي تريد هذه البورجوازية الوطنية أن تحل محلها . لقد ظنت البورجوازية الوطنية لنرجسيتها وغرورها أن في وسعها أن تحل محل بورجوازية الاستعمار وأن تكون خيراً منها . ولكن الاستقلال ما يلبث أن يضعها في مآزق حرجة ، فإذا هي تلجأ إلى وسائل تجلب الكوارث ، إذ تتجه بنداءات خائفة الى الدولة التي كانت تستعمر بلادها. ذلك أن العناصر الجامعية والعناصر التجارية التي هي أكثر أبناء الدولة الجديدة وعياً تتميز بأنها قليلة العدد ، وبأنها متمركزة في العاصمة ، وبأن أنواع نشاطها لا تتعدى التجارة والاستثمارات الزراعية والمهن الحرة ، فليس بين أفراد هذه البورجوازية الوطنية أناس من رجال الصناعة أو رجال المال . ان البورجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة ليست متجهة نحو الانتاج ، والابتكار ، والبناء ، والعمل . وانما هي تنفق نشاطها كله في أعمال من نوع (الوساطة) . ان نفسية البورجوازية الوطنية هي نفسية رجال أعمال، لا رواد صناعة، ويجب ان نعترف أن جشع المستوطنين ونظام الحجر الذي أوجده الاستعمار لم يدعا للبورجوازية حرية الاختيار كثيرا.

انه يستحيل على بورجوازية أن تجمع رأس مال في ظل النظام الاستعماري .

والرسالة التاريخية التي يبدو ان (البورجوازية الوطنية الصادقة) في البلد المتخلف قد خلقت النهوض بها هي ان تكر نفسها كبورجوازية ، هي ان تنكر نفسها كأداة لرأس المال ، وأن تضع نفسها وضعاً كاملاً في خدمة رأس المال الثوري الذي هو الشعب .

ان على البورجوازية الوطنية الصادقة في البلد المتخلف أن تفرض على نفسها خيانة المهمة التي كانت ميسرة لها، أن تدخل مدرسة الشعب، أي أن تضع تحت تصرف الشعب رأس المال الثقافي والتكنيكي الذي استطاعت أن تنتزعه حين مرورها بجامعات الاستعمار. ولكننا نرى آسفين ان البورجوازية الوطنية كثيرا ما تتنكب هذا السبيل البطولي الايجابي الخحسب العادل، لتسير راضية النفس مطمئنة البال في طريق فظيع ، مناقض لمصلحة الامة، هو الطريق الذي تسلكه بورجوازية ، بورجوازية ارتضت في غباء وحمق وحطة ألا تكون الا بورجوازية .

لقد رأينا أن هدف الاحزاب الوطنية يصبح منذ مرحلة من المراحل هدفاً قومياً تماماً . فهو يعبىء الشعب حول شعار الاستقلال، مرجئا ماعدا ذلك للمستقبل . فإذا سألت رجال هذه

الاحزاب عن البرنامج الاقتصادي الذي ستلتزمه الدولة ، وعن النظام الذي يريدون اقامته، رأيتهم عاجزين عن الاجابة ، لأنهم يجهلون كل الجهل اقتصاد بلادهم .

ان اقتصاد بلادهم قد تطور دائما بعيداً عنهم وبدون تدخلهم . إنهم لا يعرفون عن الموارد الحالية والموارد الممكنة التي تشتمل عليها الأرض الا أمورا قرؤوها في الكتب، أمورا تقريبية، لذلك تراهم لا يستطيعون أن يتحدثوا عن هذه الموارد الا حديثا مجردا عاما. حتى اذا تحقق الاستقلال، رأيت هذه البورجوازية المتخلفة، القليلة العدد، التي لا تملك رؤوس أموال كبيرة، والتي ترفض أن تسلك الطريق الثوري ، راكدة ركوداً يُرثى له . إنها لا تستطيع ان تطلق العنان ((لعبقريتها)) التي كانت تستطيع أن تقول عنها بشيء من الطيش ان سيطرة الاستعمار هي التي حالت دون انطلاقها . وهكذا نرى فقر وسائلها وقلة رجالها تحصرها خلال سنوات طويلة في نطاق اقتصاد يقوم على (الحرفة) ، فإذا الاقتصاد القومي اقتصاد محدود الآفاق يستند إلى ما يسمى بالمنتجات المحلية . ونسمع عندئذ خطباً طويلة عن قيمة الحرف ، فالبرجوازية الوطنية التي وجدت نفسها عاجزة عن إقامة مصانع تدر لها وللبلاد أرباحاً أوفر ، تحيط الحرف عندئذ بعواطف العزة القومية والكرامة الوطنية ، وتستمد منها في الوقت نفسه فوائد جمة . وهذا التقديس للمنتجات المحلية ، هذا العجز عن خلق طرق جديدة، يتجليان كذلك في انغماس البرجوازية الوطنية في الانتاج الزراعي الذي كان يتميز به العهد الاستعماري . انهم لايوجهون الاقتصاد القومي توجيها جديداً . وتظل الأمور تسير على ما كانت تسير عليه من قبل : غلال الأراشيد ، غلال الكاكاو ، غلال الزيتون . حتى أن هذه المنتجات الأساسية لا يطرأ أي تغير على طريقة استثمارها . وتظل البلاد تصدر مواد أولية ، ويظل الأهالي يعملون (مزارعين صغاراً لدى أوروبا) ، وتظل البلاد اختصاصية في تقديم المحاصيل الخام .

ومع ذلك ما تفتأ البرجوزاية الوطنية تطالب بتأميم الاقتصاد والقطاعات التجارية . ذلك أن التأميم عندها لا يعني وضع مجموع الاقتصاد في خدمة الأمة ، وتحقيق كل حاجات الأمة ، ولا هو يعني تنظيم شؤون الدولة على أساس علاقات اجتماعية جديدة يراد تسهيل وجودها ، وانما يعني التأميم عندها نقل الامتيازات الموروثة من العهد الاستعماري الى أهل البلاد .

و لما كانت البورجوازية لا تملك الوسائل المادية ولا الوسائل العقلية الكافية (مهندسين ، فنيين) ، نراها تكتفي بوضع اليد على مكاتب الاعمال وبيوتات التجارة التي كان يشغلها المستوطنون الأجانب. إن البورجوازية الوطنية تحتل الأمكنة التي كان يشغلها الأوروبيون : أطباء ،

ومحامين ، وتجاراً ، وممثلي شركات ، ووكلاء عامين ، ووسطاء . انها تشعر أن من واجبها ، حفاظاً على كرامة البلاد وحفاظاً على نفسها، أن تحتل جميع هذه المراكز .

ومنذ ذلك الحين تراها تقتضي من جميع الشركات الاجنبية الكبرى أن تمر بواسطتها سواء أكانت تريد أن تبقى في البلاد أم كانت تنوي أن تدخل إلى البلاد . ان البورجوزاية الوطنية تكتشف لنفسها هذه المهمة التاريخية وهي أن تكون (وسيطاً) . وهكذا لا تكون رسالتها تغيير أحوال الأمة ، بل جعل نفسها وسيطاً بين البلاد وبين رأسمالية مضطرة الى التخفي ، رأسمالية تضع على وجهها اليوم قناع الاستعمار الجديد . وترتاح البرجوازية الوطنية الى هذا الدور الذي تقوم به ، أعني دور (وكيل للبورجوازية الغربية) ، دون أن يكون ثمة عيب ولا غضاضة . وهذا الدور الذي يدر ربحاً ضئيلاً ، هذه الوظيفة التي تغل رزقاً يسيراً ، هذا الضيق في النظرة ، هذا النقص في الهمة والطموح ، هذا كله انما يرمز الى عجز البورجوازية الوطنية عن النهوض بالدور التاريخي الذي تنهض به البرجوزاية . فما تعرف به كل بورجوازية وطنية أوروبية من أنها نشيطة رائدة مبتكرة مستكشفة لعوالم جديدة ، لآفاق جديدة ، لانرى مثله لدى هذه البرجوازية الوطنية . ان روح التمتع والتلذذ هي المسيطرة لدى البورجوازية الوطنية في البلدان المستعمَرة . ذلك أنها على المستوى النفسي تتشبه بالبورجوازية الغربية و تستمد منها تعاليمها ، وتقتفي آثارها في الجانب السلبي وتنحط دون أن تكون قد قطعت مراحل الاستشكاف والابتكار الاولى التي قطعتها البورجوازية الغربية وحققت بها أشياء ايجابية على كل حال . ان البورجوازية الوطنية في أول عهدها، تتشبه بالبورجوازية الغربية في آخر عهدها . وما ينبغي أن نظن انها تغذ السير وتحرق المراحل . فإنما هي في حقيقة الامر تبدأ بالنهاية . لقد دلفت الى الشيخوخة المتهدمة قبل أن تعرف ما يعرفه عهد الصبا والمراهقة من نزق، وتهور، وأندفاع .

السياحة :

والانحطاط الذي تتردى فيه البورجوازية الوطنية تساعدها عليه البورجوازية الغربية مساعدة كبيرة، بتوافد رجالها على البلاد سائحين مولعين بالغرائب والصيد والملاهي . أن البورجوازية الوطنية تنشىء مراكز للراحة والاستجمام واللذة يتقاطر عليها رجال البورجوازية الغربية. وهي تطلق على هذا النشاط اسم (السياحة) ، تعده أشبه بصناعة وطنية . واذا أردتم برهاناً على هذا النوع من تحول عناصر البورجوازية الوطنية التي كا نت مستعمَرة الى طبقة تنظم " حفلات " للبورجوازية الغربية ، فانظروا الى ما حدث في أمريكا اللاتينية - . إن ملاهي

هافانا ومكسيكو وشواطىء ريو دي جا نيرو، والبرازيليات الصغيرات، والمكسيكيات الصغيرات ، وخلاسيات السنة الثالثة عشرة من العمر، وآكابولكو، وكوبا كابانا، كل ذلك انما هو أمارات الفساد الاخلاقي الذي تتردى فيه البورجوازية الوطنية . فلأن هذه البورجوازية الوطنية ليس لها أفكار ، ولأنها مغلقة على ذاتها ، منقطعة عن الشعب ، عاجزة عن التفكير في مجموع المسائل على أساس مجموع الأمة ، نراها تقوم بدور الوكيل عن الغرب في إدارة مشاريعه ، ونراها تنظم بلادها (ماخوراً) لأوروبا .

أعود فأقول يجب أن يكون ماثلا في خيالنا ذلك المشهد المحزن، مشهد بعض جمهوريات أمريكا اللاتينية. إن رجال الاعمال في الولايات المتحدة وكبار أصحاب المصارف ورجال الصناعة، يطيرون بخفقة جناح الى " البلاد الحارة " ليغرقوا هناك سبعة أيام أو ثمانية في ذلك الجو اللذيذ من (الفسق) الذي يهيأ لهم .

الاقطاعيون :

ولا يختلف سلوك ملاك الأراضي عملياً عن سلوك بورجوازية المدن . لقد طالب كبار المزارعين ، منذ اعلان الاستقلال ، بتأميم الاستثمارات الزراعية ، واستطاعوا بأساليب ماكرة كثيرة أن يضعوا ايديهم على المزارع التي يملكها المستوطنون الاجانب ، فزادوا بذلك سيطرتهم على المنطقة . ولكنهم لا يحاولن أن يجدو الزراعة ، أو أن يقووها ، أو أن يجعلوها جزءا من اقتصاد قومي حقا .

ان ملاكي الأراضي يطالبون السلطات العامة بأن تحيل اليهم تلك التسهيلات والامتيازات التي كان ينعم بها المستوطنون الاجانب قبل الاستقلال . ويصبح استغلال العمال الزراعيين أقوى مما كان ، ويصبح كذلك مشروعا . ويتزود هؤلاء الوطنيون الذين لايختلفون عن المستوطنين الأجانب في شيء ، يتزود هؤلاء المستوطنون الجدد بشعارين أو ثلاثة شعارات، ليطالبوا العمال الزراعيين بالقيام بجهود ضخمة باسم الاشتراك في المجهود القومي العام . فلا تجديد في أساليب الزراعة، ولا خطة للتنمية الاقتصادية، ولا مبادهات فردية ، لأن المبادهات تقتضي حداً أدنى من المخاطرات ، والمخاطرات تبث الذعر في نفوس هؤلاء الناس ، وتجعل هذه البرجوازية الزراعية المترددة ((المتعقلة !)) يطيش صوابها ، فتؤثر أن تبقى الأحوال على ما هي عليه ، وتكتفي بالطرق المعبدة التي شقها الاستعمار ؛ إن المبادهات في هذه المناطق إنما هي من شأن الحكومة . الحكومة هي التي تقررها ، وهي التي تشجعها ، وهي التي تمولها . ان البرجوازية

الزراعية تأبى أن تقوم بأية مجازفة . انها تكره الرهان ، تكره المغامرة . انها لا تريد ان تعمل على رمال . انها تريد ارباحا مضمونة ، وارباحا سريعة . وهذه الارباح التي تجنيها ، هذه الارباح التي تعد ضخمة بالقياس الى الدخل القومي ، يضعونها في جيوبهم ، ولا يستثمرونها من جديد . ان كنز المال هو السياسة التي تسيطر على نفسية هؤلاء الملاكين الزراعيين . وفي بعض الأحيان ، ولا سيما في السنوات التي تعقب الاستقلال ، نرى هذه البرجوازية لا تتورع عن ايداع الارباح التي تجنيها من أرض الوطن في (المصارف الاجنبية) . ونراها في مقابل ذلك تنفق أموالا طائلة في اقتناء الاشياء التي يدفع الى اقتنائها (حب الظهور) ، فهم يشترون (اسيارات الفخمة) و (الفيلات الباذخة) ، وسائر تلك الأشياء التي لاحظ علماء الاقتصاد انها من مميزات البورجوازية المتخلفة .

قلنا ان البورجوازية المستعمرَة التي تتسلم مقاليد السلطة ، تصب طموحا الطبقي على احتكار الوظائف التي كان يستأثر بها الاجانب . وها هي ذي ، غداة الاستقلال ، تصطدم بالاجانب الذين خلفهم الاستعمار من محامين ، وتجار وملاكي أراض ، وأطباء ، وموظفين كبار . وها هي ذي تقتتل اقتتالا لا هوادة فيه مع هؤلاء الناس ((الذين يهينون الكرامة الوطنية)) ، وتنادي في كثير من القوة بفكرة تأميم الوظائف ، فكرة اسناد الوظائف الى الأفريقيين . حتى لنرى سلوكها يصطبغ شيئاً فشيئاً بتعصب عرقي . وما تلبث أن تطرح على الحكومة هذه المشكلة بكثير من العنف : نريد هذه الوظائف ؛ ثم لا تخفف من شراستها الا بعد أن تحتل هذه المراكز احتلالا كاملاً .

ومن جهة أخرى نرى طبقة العمال في المدن، وجمهرة العاطلين عن العمل، وصغار أصحاب الحرف ، أولئك الذين ألفنا ان نسميهم أهل المهن الصغيرة ، نرى هؤلاء جميعا يقفون هذا الموقف الوطني المتعصب. ولكن يجب أن ننصفهم فنذكر انهم إنما يقلدون في موقفهم هذا موقف بورجوازيتهم . واذا دخلت البورجوازية في تنافس مع الاوروبيين، فان أصحاب الحرف وأهل المهن الصغيرة انما يبدؤون الصراع ضد الافريقيين الذين ليسوا من أبناء هذه الامة . هكذا رأينا في ساحل العاج فتناً قائمة على تعصب عرقي ضد الداهوميين والفولتيين : ان الداهوميين والفولتيين الذين يحتكرون التجارة الصغيرة في قطاعات كبيرة قد قامت ضدهم، في ساحل العاج، غداة الاستقلال، مظاهرات عدائية قوية، وصارت القومية هنالك الى تعصب قومي ، الى تعصب عرقي : طالب المتظاهرون بترحيل هؤلاء الاجانب ، وحرقوا مخازنهم، وهدموا حوانيتهم الخشبية ، واعتدوا عليهم اعتداءات وحشية، واضطرت الحكومة أن تستجيب لرغبة الوطنيين فأجبرتهم على مغادرة البلاد . وفي السنغال قامت مظاهرات ضد السودانيين، وهذه المظاهرات التي حملت (ماما دو ديا) على أن يقول : " الحق أن الشعب السنغالي لم يتبن عقيدة مالي الا تعلقا منه بزعمائه، وليس

لاتحاده بمالي من قيمة غير قيمة تسليمه مرة أخرى بسياسة هؤلاء الزعماء. وظل شعور الناس بالوطن السنغالي شعورا قويا ، ولا سيما أن وجود السودانيين في دكار كان يعلن عن نفسه اعلانا ليس فيه شيء من التخفي بحيث ينسى الناس اقليميتهم . وهذه الظاهرة هي السبب في أن جماهير الشعب لم يؤسفها انفراط عقد " الاتحاد " الفدرالي ، بل استقبلته بارتياح، ثم لم تظهر في أي مكان أية محاولة للابقاء عليه " .

وبينما كانت طبقات من الشعب السنغالي تنتهز الفرصة التي أتاحها لها القادة أنفسهم للتخلص من السودانيين الذين كانوا يضايقونهم سواء في قطاع التجارة وفي قطاع الادارة، رأينا الكونغوليين الذين شهدوا رحيل البلجيكيين عن بلادهم رحيلا جماعياً وهم لا يكادون يصدقون أعينهم، رأينا هزلاء الكونغوليين يضغطون على السنغاليين المقيمين في ليوبولدفيل و إليزابتفيل من أجل ترحيلهم .

وهكذا نرى أن آلية هذين النوعين من الظاهرات واحدة. فاذا كان التنافس يقوم بين الأوروبيين وبين المثقفين والبورجوازية في الامة الفتية، فان تنافسا مثله يقوم بين جماهير الشعب المقيمة في المدن وبين افريقيين ينتمون الى أمة أخرى . وهؤلاء الافريقيون هم الداهوميون في ساحل العاج، والنيجريون في غانا ، والسودانيون في السنغال .

فاذا كانت مطالبة البورجوازية باسناد الوظائف الى السود أو الى العرب لاتهدف الى تأميم حقيقي ، وانما هي تهدف فقط الى جعل البورجوازية تملك السلطة التي كان يملكها الاجانب من قبل، فان الجماهير تطالب بهذا الأمر نفسه على مستواها، ولكنها تقصر معنى الاسود أو العربي على الحدود الاقليمية . وثمة مواقف كثيرة تقع بين المناداة الحماسية بوحدة القارة الإفريقية وبين هذا السلوك الذي تسلكه الجماهير بوحي من المصلحة الاقليمية. و هكذا نرى تأرجحا دائما بين الوحدة الافريقية التي ما تنفك تضعف وتهزل ، وبين عودة يائسة الى عصبية اقليمية كريهة حانقة. قال مامادو ديا : " اما من جهة السنغال ، فان الزعماء الذين كانوا هم دعاة الوحدة الافريقية، والذين ضحوا أكثر من مرة بمنظماتهم السياسية المحلية وبمراكزهم الشخصية في سبيل هذه العقيدة، يتحملون مسؤوليات لا سبيل الى نكرانها، نتيجة خطأ ارتكبوه عن حسن نية طبعا . ان خطأ هؤلاء الزعماء ، ان خطأنا ، هو أننا بحجة محاربة التجزئة نسينا واقع الاقليمية ، فلم ننتبه في تحليلاتنا انتباها كافيا الى هذه الظاهرة التي هي ثمرة الاستعمار طبعاً ، ولكنها ايضا واقع اجتماعي لا يمكن أن تقضي عليه أية نظرية في الوحدة مهما تكن

محمودة ومهما تكن محببة. لقد فتننا المثل الأعلى ثم ظننا المثل الأعلى واقعاً واقعاً ، وحسبنا أنه يكفي أن نستنكر الاقليمية وما ينشأ عنها من تعصب لقوميات صغيرة حتى ننتصر عليها وحتى نحقق الظفر لمشروعنا الخيالي " .

ولن تكون المسافة كبيرة بين التعصب السنغالي وبين القبيلة الأوولوفية ، والواقع أنه حيثما تعجز البورجوازية الوطنية بسلوكها الرخيص وبغموض مواقفها العقائدية عن تنوير مجموع الشعب وعن طرح المشكلات على أساس الشعب أولا وقبل كل شيء، حيثما تعجز هذه البورجوازية الوطنية عن توسيع نظراتها الى العالم توسيعا كافيا، نشهد انتكاسا نحو الاوضاع القبلية، وانتصارا للانقسامات العنصرية يثير في النفس اشد الحنق . فما دام الشعار الوحيد الذي تنادي به البورجوازية هو الحلول محل الاجانب، وما دامت تبادر فتنتصف لنفسها في جميع القطاعات وتحتل المراكز، فان صغار الوطنيين من سائقي سيارات الاجرة وباعة الحلوى وماسحي الاحذية، لا بد أن يطالبوا أيضا بأن يعود الداهوميون الى بلادهم ، وقد يذهبون الى أبعد من هذا فيطالبون بأن يرجع الفولتيون والبوهليون الى براريهم أو الى جبالهم .

على هذا الاساس انما يجب أن نؤول هذه الظاهرة التي نلاحظها في البلاد المستقلة الناشئة، وهي أن النظام الفدرالي هو الذي ينتصر هنا وهناك . ان السيطرة الاستعمارية ، كما تعلمون، قد خصّت بعض المناطق بامتيازات خاصة ، فجعلت اقتصاد المستعمرة غير متكامل مع مجموع الامة، وانما نظمته على اساس التكامل مع اقتصاد البلاد المستعمِرة المختلفة . ان الاستعمار لا يستثمر مجموع البلاد ، وانما يكتفي باكتشاف موارد طبيعية معينة، فيستخرجها ويصد رها الى صناعات البلاد المستعمِرة، وبذلك يتيح لبعض المناطق شيئاً من الثراء، بينما يبقى سائر المستعمرة على حالة من التخلف والبؤس ، وربما ازداد تخلفاً وبؤساً .

حتى اذا تحقق الاستقلال كان الوطنيون الذين يقطنون في المناطق المزدهرة يشعرون بما أوتوا من حظ ، فإذا هم بمنعكس لا أثر للتفكير فيه ، يرفضون أن يطعموا الوطنيين الآخرين الذين يعيشون في المناطق البائسة . ان المناطق الغنية بالأراشيد والكاكاو والماس تبرز بروزا ظاهرا على تلك الصفحة الخالية الخاوية التي يتألف منها سائر الامة. ويشعر الوطنيون في هذه المناطق بكره نحو الآخرين، ويصفونهم بأنهم أناس حاسدون حاقدون شرهون ميالون الى الجريمة والقتل. وتنبعث الحزازات القديمة ، وتنتعش الأحقاد القبلية. ان قبائل البالوبا ترفض أن تطعم قبائل

اللولوا ؛ وإقليم كاتانغا يعلن أنه دولة مستقلة، و (ألبير كالونجي) يتوج نفسه ملكا على جنوبي كاساي .

ان الوحدة الافريقية، هذا الشعار الغامض (ولكنه الشعار الذي تعلقت به قلوب الرجال والنساء بافريقيا تعلقاً حماسياً قوياً ، وكان يضغط على الاستعمار ضغطاً هائلاً) يكشف الآن عن وجه آخر، فاذا هو عصبيات اقليمية في داخل واقع قومي واحد . فالبورجوازية الوطنية ، لانها منكمشة على مصالحها المباشرة ولانها لا تنظر الى أبعد من أطراف أظافرها، تتكشف عاجزة عن تحقيق الوحدة القومية ، عاجزو عن بناء الأمة على أسس وطيدة خصبة مثمرة . ان الجبهة الوطنية التي طردت الاستعمار تتفتت الآن وتنهزم .

الطائفية :

وهذا الصراع القومي الذي يقوم بين القبائل ، وهذا الحرص العنيف على احتلال المراكز التي اصبحت شاغرة برحيل الأجنبي، سيولّدان ايضاً تنافسات دينية . ففي الارياف والبراري نجد الطوائف الدينية الصغيرة، والاديان المحلية ، وجماعات الطرق الصوفية ، تستعيد نشاطها وحيويتها، وتستأنف لجوءها الى تكفير غيرها . وفي المدن الكبرى ، على مستوى الوظائف الادارية ، نجد صراعاً يقوم بين الديانتين المنزلتين الكبيرتين : الاسلام والكاثوليكية .

ان الاستعمار الذي ترنحت قواعده امام نشوء فكرة الوحدة الأفريقية يسترد الآن آماله ، ويحاول ان يحطم هذه الارادة، مستعملا جميع مواطن الضعف في هذه الحركة ، فهو يعبىء الشعوب الافريقية كاشفاً لها عن وجود خصومات ((روحية))، ففي السنغال تصدر جريدة ((افريقيا الجديدة)) كل اسبوع لتعبر عن كره أصفر نحو الاسلام والعرب، وتستعدي الشعور القومي على اللبنانيين الذين يملكون في الساحل الغربي القسم الاكبر من التجارة الصغيره ، وتحض على الاتنتام منهم . ورجال البعثات التبشيرية ما يفتؤون يذكرون للجماهير أن الغزو العربي، قبل وصول الاستعمار الغربي بكثير ، قد حطم امبراطوريات زنجية كبيرة . ولا يترددون عن القول ان الاحتلال العربي هو الذي مهد للاستعمار الغربي وهم يتحدثون عن استعمار عربي ، ويندون بالاستعمار الثقافي الذي يمارسه الاسلام . والمسلمون يُقصون عن المراكز التوجيهية . وفي مناطق أخرى نلاحظ عكس هذه الظاهرة ، فالسكان الذين اعتنقوا المسيحية هم الذين يعدون هنالك أعداء الاستقلال القومي عامدين واعين .

إن الاستعمار يحرك هذه الاسلاك كلها بلا خشية ولا حياء، سعيداً كل السعادة بأنه يثير الافريقيين بعضهم على بعض بعد ان اتحدوا بالامس ضده . وتبرز في بعض الاحيان فكرة مذبحة دينية من نوح مذبحة (سان بارتلمي)، ويضحك الاستعمار ساخراً في هدوء حين يسمع بعدئذ تلك التصريحات الفخمة التي تتحدث عن الوحدة الافريقية. لقد أخذ الدين، في نطاق أمة واحدة، يجزىء الشعب ويثير الطوائف الدينية بعضها على بعض، والاستعمار واجهزته من وراء ذلك تغذيه وتقويه .

وتتفجر هنا وهناك أحداث لم تكن في الحسبان . ففي بلاد تهيمن عليها الكاثوليكية أوالبروتستانتية نرى الأقليات الاسلامية تظهر تمسكا باهداب الدين لم يكن مألوفا من قبل، ونرى الاعياد الاسلامية تنشط وتقوى ، فالمسلمون يدافعون عن أنفسهم ضد التعصب المتطرف المعهود في الكاثوليك. ونسمع وزراء يخاطبون الافراد بقولهم : إذا كنتم غير راضين فما عليكم الا ان تذهبوا الى القاهرة. وقد تحمل البروتستانتية الاميركية الى الارض الافريقية تعصبها ضد الكاثوليك ، فتثير بواسطة الدين خصومات قبلية .

وعلى مستوى القارة الافريقية يمكن أن يتخذ هذا التوتر الديني وجها بغيضا رخيصا. فتراهم يقسمون افريقيا قسمين : قسما أبيض وقسما أسود ؛ حتى اذا استبدلوا بهذه التسمية تسمية أخرى قالوا: افريقية جنوب الصحارى وافريقية شمال الصحارى ، لم تخف هذه التسمية الجديدة ما وراءها من تعصب عرقي . فهنا يزعمون أن لافريقيا البيضاء حضارة عريقة ترجع الى ألوف السنين ، وانها تنتمي الى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وانها امتداد لأوربا ، وانها تشارك في الحضارة الاغريقية اللاتينية ؛ في حين أن افريقيا السوداء منطقة جامدة ، بدائية ، غير متحضرة ... متوحشة . وهناك ما ينفكون يتحدثون حديثا بغيضا كريها عن تحجب النساء عند العرب، وعن تعدد الزوجات عند العرب، ويزعمون أن العرب يحتقرون المرأة . ان هذه الاحاديث يذكر تهجمها بالاحاديث التي طالما دارت بها ألسنة المستعمِرين. إن البورجوازية الوطنية في كل منطقة من هاتين المنطقتين الكبيرتين، هذه البورجوازية التي تشربت أحقر مبادىء التفكير الاستعماري تحمل العبء عن الاوربيين وتنوب عنهم في ترسيخ فلسفة عرقية تستشري في القارة وتحمل الى مستقبل القارة أشد الأذى . ان هذه البورجوازية ، بكسلها وتقليدها الاعمى تشجع وتعزز غرس التعصب العرقي الذي كان يتميز به العهد الاستعماري . لذلك يجب ألا يدهشنا أن نسمع في بلد يسمي نفسه افريقيا أفكارا أقل ما توصف به هو أنها أفكار عرقية ، وأن نرى تصرفات تفرق بين

الناس في القيمة، حتى ليحس المرء في البلد الأفريقي بأنه في باريز أو بروكسل أو لندن، شاعرا بكثير من المرارة.

بل اننا لنرى تلك الفكرة الجارحة التي تفرق بين الناس في القيمة ، تلك الفكرة المأخوذة عن الثقافة الغربية ، القائلة أن الأسود لا يمكن أن ينفذ المنطق الى عقله ولا يمكن أن يفهم العلوم ، تتجلى عارية كل العري مسيطرة كل السيطرة في بعض مناطق أفريقيا . حتى لقد يتاح لنا أن نرى الأقليات السوداء تعامل هناك معاملة أشباه العبيد ، وهو أمر يسوّغ ماتشعر به بلدان أفريقيا السوداء من تحفظ بل من حذر وسوء ظن . ليس نادراً أن يقع لمواطن من أفريقيا السوداء حين يتنزه في مدينة من مدن أفريقيا البيضاء ، أن يسمع أطفالاً ينادونه " زنجي " أو أن يسمع موظفين يسمونه " عبداً " .

لا وليس مستبعداً ، وا أسفاه ، أن يقع لطلاب من افريقيا السوداء في كليات بافريقية شمال الصحارى أن يسألهم رفاقهم في المدرسة : هل في بلادكم بيوت ، هل تعرفون الكهرباء، هل يأكل أهلكم لحوم البشر ؟ لا و ليس مستبعداً وا أسفاه أن نرى في بعض مناطق الشمال افريقيين آتين من الجنوب ، يبتهلون الى وطنيين أن يأخذوهم " الى أي مكان ، ولكن مع زنوج ". و كذلك نرى، في بعض الدول الناشئة بافريقيا السوداء، رجالا من أعضاء المجالس النيابية بل من الوزراء، يقولون غير ضاحكين : ليسر الخطر أن يعود الاستعمار الى احتلال بلادهم، بل الخطر أن يغزوهم " عرب الشمال ".

وهكذا نرى أن افلاس البورجوازية لا يتجلى في الصعيد الاقتصادي فحسب . إن البورجوازية، وقد وصلت الى السلطة باسم قومية ضيقة، باسم العرق ، رغم تصريحات جميلة جدا من ناحية الشكل ولكنها تصريحات فارغة كل الفراغ من ناحية المضمون، تصريحات تستعمل على غير شعور بالمسؤولية جملاً مستمدة رأساً من كتب الاخلاق أو الفلسفة السياسية التي تصدرها مطابع أوروبا ، ان هذه البورجوازية تبرهن على عجزها عن تحقيق النصر لحد أدنى من العقيدة الانسانية . ان البرجوازية حين تكون قوية وحين تنظم العالم على أساس سلطتها لا تتردد عن تكيد أفكار ديموقراطية تساوي بين البشر، ولا بد لهذه البورجوازية، القوية اقتصاديا ، من ظروف استثنائية حتى تضطر الى الخروج على نظريتها الانسا نية هذه . والبورجوازية الغربية تتوصل في أكثر الأحيان، رغم أنها في حقيقة امرها عرقية، الى اخفاء هذه العرقية بأقنعة كثيرة تتيح لها الابقاء على مناداتها المعروفة بالكرامة الانسانية . لقد هيأت البورجوازية الغربية عددا كافيا من

الحواجز والسدود حتى لا تخاف حقاً من منافسة هؤلاء الذين تستغلهم وتحتقرهم . ان التعصب العرقي البورجوازي الغربي تجاه الزنجي انما هو تعصب احتقار، تعصب استهانة. ولكن النظرية البورجوازية التي تنادي بأن البشر متساوون في جوهرهم، تحتال على الامر من أجل أن تظل منطقية مع نفسها، فتدعو هؤلاء البشر المتخلفين الى أن يصبحوا بشراً أسوياء من خلال النموذج الانساني الغربي الذي تجسده .

أما التعصب العرقي لدى البورجوازية الوطنية في البلاد المستعمَرة فهو تعصب دفاعي، تعصب قائم على الخوف. انه لا يختلف في جوهره عن القبلية الرخيصة ، بل لا يختلف عن الخصومات بين الفرق الصوفية أو الجماعات الدينية . لذلك رأينا المراقبين الدوليين الأذكياء لا يأخذون مأخذ الجد تلك النداءات الحماسية التي تدعو الى الوحدة الافريقية. فالصدوع التي يرونها بأم أعينهم تجعلهم يشعرون شعورا واضحا بأنه لا بد من أن تنحل جميع هذه التناقضات قبل أن يأتي أوان الوحدة.

إن الشعوب الافريقية قد اكتشفت نفسها مؤخرا، وقررت باسم القارة الأفريقية كلها أن تحطم النظام الاستعماري . ولكن البورجواريات الوطنية التي تسارع ، إقليماً بعد إقليم ، إلى تشييد كيانها الخاص وإلى إقامة نظام وطني استغلالي ، تنشىءالحواجز تلو الحواجزمن أجل الحيلولة دون تحقيق هذا " الحلم " . إن البورجوازيات الوطنية التي تعرف أغراضها حق المعرفة قد قررت أن تسد الطريق أمام هذا الجهد المتسق الذي يقوم به مائتان وخمسمون مليوناً من البشر في سبيل الانتصار على الحيوانية والجوع واللاانسانية . لذلك يجب علينا ان نعلم أن الوحدة الافريقية لا يمكن أن تتحقق الا باندفاع الشعوب وبقيادة الشعوب ، أي رغم أنف البورجوازية ومصالحها.

وعلى الصعيد الداخلي، في الإطار الدستوري ، نجد البورجوازية تبرهن على عجزها أيضا ، ففي عدد من البلدان المتخلفة نرى النظام البرلماني فاسداً فساداً عميقاً .

الزعيم :

وشيئاً فشيئاً تزداد البورجوازية إهمالا للداخل، وتزداد إهمالاً لواقع البلاد البور ، وتأخذ تنظر باعجاب الى البلد الاوروبي الذي كان يستعمرها تأخذ تنظر باعجاب الى الرأسماليين الأجانب الذين يضمنون أن تقدم لهم خدماتها . ولما كانت لا تقتسم أرباحها مع الشعب ولا تتيح له أبدا أن يستفيد من المغانم التي تصبها عليها الشركات الاجنبية الكبرى ، فإنها سرعان ما تكتشف ضرورة وجود زعيم شعبي تقع على عاتقه مهمة مزدوجة هى ضمان استقرار العهد القائم

وضمان استمرار سيطرة البورجوازية في آن واحد . فالدكتاتورية البورجوازية في البلاد المتخلفة انما تستمد متانتها من وجود زعيم . ان البورجوازية الدكتاتورية في البلاد المتطورة هي كما تعلمون نتيجة القوة الاقتصادية التي تتمتع بها البرجوازية . أما في البلاد المتخلفة فان الزعيم هو القوة المعنوية التي تريد البورجوازية ، الهزيلة الفقيرة، أن تغتني في ظلها وتحت حمايتها.

والشعب الذي ظل خلال سنين طويلة يرى الزعيم ويسمع خطبه ويتابع من بعيد، وهو فيما يشبه الحلم، ما يقوم بين الزعيم وبين السلطة الاستعمارية من مشاجرات، يمحض هذا الزعيم ثقة من تلقاء نفسه . لقد كان الزعيم قبل الاستقلال يجسد امال الشعب بوجه عام : الاستقلال، الحريات السياسية، العزة القومية. ولكنه بعد الاستقلال ، بدلا من أن يجسد حاجات الشعب تجسيدا محسوسا ، وبدلا من أن يكون رائد العزة القومية الحقيقية ، العزة القومية التي تمر بالخبز والأرض وإعادة البلاد الى أيدي الشعب المقدسة، تراه يكشف عن وظيفته الصميمية ألا وهي أن يكون (الرئيس العام لشركة المنتفعين) المسرعين الى التمتع ، أعني البورجوازية الوطنية .

ان الزعيم ، رغم أنه كثيرا ما يكون في الاصل شريفا وكثيرا ما يقول أقوالا صادقة ، انما هو من الناحية الموضوعية المدافع المتحمس عن مصالح أصبحت اليوم مترابطة ، هي مصالح البورجوازية الوطنية ومصالح الشركات الاستعمارية السابقة. أضف إلى ذلك أن شرفه وصدقه ما يلبثان أن ياخذا بالتفتت شيئاً بعد شيء. ذلك أن اتصاله بالشعب اتصال غير واقعي، فسرعان ما يقتنع أن الشعب أصبح متنكراً لسلطته ، وأن الناس أخذوا يشكون في الخدمات التي قدمها لوطنه. ويقسو الزعيم قسوة شديدة في الحكم على هذه الجماهير التي لا تعترف بالجميل ، وما ينفك ينحاز يوما بعد يوم الى معسكر المستغِلين، ثم ينقلب انقلابا واعيا الى شريك للبورجوازية الناشئة التي تتخبط في أحضان الفساد واللذة .

وتنحدر الحياة الاقتصادية للدولة الفتية نحو بنيان الاستعمار الجديد. لقد كان الاقتصاد القومي محمياً ، فأصبح اقتصادا موجهاً . والميزانية تغذيها قروض وهبات . ورؤساء الدولة أو الوفود الوزارية تزور كل بضعة أشهر العواصم الأوروبية التي كانت مستعمِرة أو غيرها من البلدان تطلب المال.

والدولة التي كانت مستعمِرة تضاعف الآن مطاليبها وشروطها ، وتقتضي مزيدا من التنازلات والضمانات، ولا تقوم بما كانت تقوم به قبل ذلك من احتياطات لإخفاء سيطرتها على السلطة الوطنية . ويركد الشعب ركوداً محزناً على بؤس لايُطاق، ويدرك إدراكا بطيئاً تلك

الخيانة التي يرتكبها قادته والتي لا يمكن أن تسمى باسم . وتقوى حدة هذا الشعور لدى الشعب على قدر عجز البورجوازية عن تكوين نفسها كطبقة. فان تنظيمها لتوزيع الثروات لا يجعل هذا التوزيع متدرجا على طبقات، وانما يحصر الثروة في أيدي فئة محتكرة . وهذه الفئة المحتكرة الجديدة تبعث على الشعور بالمهانة ، وتثير الحنق والتمرد، ولاسيما أن الأكثرية الساحقة من السكان، وهي تؤلف تسعة أعشار السكان، ما تزال تموت جوعاً . ان هذا الإثراء الفاضح السريع الذي لا يرحم، هذا الإثراء الذي تحققه لنفسها الفئة المحتكرة ، يوقظ الشعب ايقاظا حاسما. ويتصور الشعب عندئذ أنه لابد من غد عنيف يحمل اليه الفرج ويعده بالخير. وهذه الفئة البورجوازية المحتكرة ، هذا الجزء من الشعب الذي يستأثر بمجموع ثروات البلاد ، ينتهي، بمنطق مفهوم وإن يكن غير متوقع ، الى أن يرى في سائر الزنوج أو في سائر العرب آراء تحط من قيمتهم، وتذكر من عدة وجوه بالنظرية العرقية التي كان يدين بها ممثلو الدولة المستعمِرة. فهذا البؤس الذي يعانيه الشعب ، وهذا الإثراء الفوضوي الذي تحققه الفئة البورجوازية المحتكرة، وهذا الاحتقار العلني الذي تشعر به هذه الفئة نحو سائر الامة ، هذا كله هو الذي سيعمّق الآراء ويقوي الاتجاهات .

غير أن هذه الاخطار التي تلوح في الافق، تؤدي الى تشديد السلطة وظهور الدكتاتورية . فالزعيم الذي يجر وراءه حياة مناضل جريء وطني مخلص هو حاجز يقوم بين الشعب وبين البورجوازية الجشعة ، لأنه يحمي أعمال هذه الفئة ، ويغمض عينيه عن وقاحة هؤلاء البورجوازيين وحقارتهم ومجافاتهم للأخلاق . ان الزعيم يساهم في لجم وعي الشعب . انه يهب الى نجدة الفئة المحتكرة ، ويخفي عن الشعب مناوراتها ، ويصبح بذلك من أشد العاملين حماسة في تضليل الجماهير وتخديرها . انه كلما خاطب الشعب ذكره بحياته وهي حياة بطولية في كثير من الأحيان . وذكره بالمعارك التي خاضها باسم الشعب ، وبالانتصارات التي حققها باسم الشعب ، مشيرا بذلك الى أن على الجماهير أن تستمر في محضه ثقتها . ما أكثر الامثلة على أولئك الوطنيين الافريقيين الذين أدخلوا على السياسة النضالية المتحفظة التي كان يتبعها سابقوهم أسلوبا حاسما قوميا! ان هؤلاء الرجال قد جاؤوا من الارياف وكانوا يتكلمون باسم الزنوج، وكان ذلك مثار دهشة المستعمِر المتسلط ومثار خجل الوطنيين المقيمين بالعاصمة ! ان هؤلاء الرجال يصبحون اليوم – وأسفاه !- على رأس فئة من الناس تدير ظهرها للارياف ، وتعلن أن رسالة الشعب هي ان يكون تابعاً ، وأن يظل تابعاً .

ان الزعيم يهدىء الشعب . انه لعجزه عن دعوة الشعب الى أعمال محسوسة ملموسة ، لعجزه عن أن يفتح للشعب باب المستقبل حقاً ، وان يدفع الشعب في طريق بناء الأمة ، وبالتالي في طريق بناء نفسه، يظل سنين طويلة لا يزيد على أن يجتر تاريخ الحصول على الاستقلال ، وعلى أن يذكر بالوحدة المقدسة التي رافقت نضال التحرير . ان الزعيم، لرفضه تحطيم البورجوازية الوطنية، يطلب أن ينكفىء الى الماضي وأن يسكر بذكرى الملحمة التي أدت الى الاستقلال . وفي وسعنا أن نقول ان الزعيم يوقف سير الشعب- موضوعيا- ويعمل جاهداً اما على (طرده من التاريخ) واما على (منعه من دخول التاريخ) . لقد كان الزعيم أثناء كفاح التحرير يوقظ الشعب، ويعده بزحف بطولي جذري . أما اليوم فهو يضاعف جهوده من أجل تخدير الشعب وتنويمه، ويذكره ثلاث مرات أو أربعاً كل عام بعهد الاستعمار طالبا أن يقدر الطريق الطويل الذي قطعته البلاد.

ولكن يجب أن نعترف بأن الجماهير تعجز عجزا كاملا عن تقدير الطريق الطويل المقطوع. ان الفلاح الذي ما يزال يجهد في الارض، والعاطل الذي ما يزال عاطلا، لا يستطيعان رغم الاحتفالات ورغم الاعلام الجديدة أن يقتنعا بأن شيئا في حياتهما قد تغير حقاً . ومهما تكثر البورجوازية الحاكمة من التظاهرات، فان الجماهير تظل عاجزة عن أن تؤخذ بالأوهام . الجماهير ما تزال جائعة، ومفوضو الشرطة الذين اصبحوا الآن افريقيين بعد أن كانوا أوروبيين لا يطمئنون هذه الجماهير كثيرا. وتأخذ الجماهير بالحرون والإشاحة ببصرها وعدم الاكتراث بهذه الامة التي لا تفسح لها أي مجال ولا تخلق لها أي مكان .

الحزب :

وأثناء ذلك يعبىء الزعيم قواه من حين الى حين، فيتحدث في الراديو، ويقوم بجولة لتهدئة الخواطر وتضليل العقول. والزعيم ضروري خاصة حين لا يكون ثمة حزب . لقد كان هناك حزب يقوده هذا الزعيم نفسه أثناء مرحلة الكفاح في سبيل التحرير. ولكن هذا الحزب قد تحلل بعد ذلك، ولم يبق منه الا الشكل والاسم والرمز . ان الحزب المنظم الذي كان يتيح سريان فكرة تكونت على أساس الحاجات الحقيقية للجماهير، قد استحال الآن الى نقابة لضمان مصالح أفراد. لقد أصبح الحزب منذ الاستقلال لا يساعد الشعب في التعبير عن مطالبه ، وفي وعي حاجاته مزيدا من الوعي وفي توطيد قوته مزيدا من التوطيد . لقد اصبحت وظيفة الحزب الآن هي أن يوصل الى الشعب التعليمات الآتية من القمة . وزال ذلك الذهاب والاياب من القاعدة الى القمة

ومن القمة الى القاعدة ، زال ذلك التواصل الخصب الذي هو أساس الاحزاب وضمانة ديموقراطيتها . ان ما بقي من الحزب هو نقيض ذلك تماما : لقد أصبح الحزب حاجزا بين الجماهير و بين القيادة . أصبح الحزب بغير حياة . ان الخلايا الحزبية التي نظمت في عهد الاستعمار قد سرحت الآن من الخدمة تسريحا كاملا .

ويقضم المناضل لجامه. ويدرك الناس صواب المواقف التي اتخذها بعض المناضلين أثناء كفاح التحرير. ان كثيرا من المناضلين قد طلبوا من أجهزة القيادة إبان المعركة أن تنشىء عقيدة ، وأن توضح أهدافا معينة ، وأن تضع برنامجا . ولكن القادة رفضوا يومئذ رفضا باتا ان يواجهوا هذه المهمة ، بحجة المحافظة على الوحدة الوطنية . كانوا يرددون قولهم : عقيدتنا هي الوحدة الوطنية ضد الاستعمار . بتسلحهم بهذا الشعار القوي الذي اتخذوه عقيدة، وبقصرهم النشاط العقائدي على أقوال شتى عن حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها، يمضون مع تيار التاريخ الذي لا بد أن يعصف بالاستعمار وأن يطوّح به . حتى اذا طالبهم المناضلون بأن يحللوا تيار التاريخ هذا مزيداً من التحليل جابهوهم بقولهم : ان الاستعمار صائر الى زوال لا محالة ..

ويجيء الاستقلال، ويوشك الحزب أن يصبح جثة هامدة. انهم الآن لا يعبئون أعضاء الحزب الا لمظاهرات يسمونها شعبية ، ولمؤتمرات دولية ، ولاحتفالات بأعياد الاستقلال . ان القيادات الحزبية المحلية قد عُيّنت لوظائف ادارية ، والحزب استحال الى دائرة حكومية ، وعاد الحزبيون الى أماكنهم يحملون هذا الاسم الاجوف : مواطن .

انهم بعد أن قاموا بمهمتهم التاريخية، وهي ايصال البورجوازية الى سدة الحكم ، مدعوون بقوة الى الانسحاب، حتى يتيحوا للبورجوازية أن تقوم برسالتها الخاصة في جو هادىء. ولكن البورجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة عاجزة ، كما رأينا ذلك، عن تحقيق أية رسالة. وما هي الا بضع سنين حتى يصبح تحلل الحزب واضحا لكل عين، ويدرك كل مراقب عندئذ ، ولو كان سطحيا ، ان الحزب القديم الذي أصبح الآن هيكلاً عظمياً ، لا يفيد الا في تجميد الشعب . ان الحزب الذي جذب اليه أثناء معركة الكفاح مجموع الامة يتحلل الآن . والمثقفون الذين انضموا الى الحزب غداة الاستقلال يؤكدون بسلوكهم أن انضمامهم الحزب وسيلة نجاح فردي .

على أن هنالك تفاوتاً في الإثراء والاحتكار في داخل العهد الجديد. فبعض الأفراد يأكلون على عدة موائد، ويُظهرون في مجال الانتهازية مقدرة فائقة وانتصاراً باهراً . وتتكاثر الامتيازات، وتنتصر الرشوة ويعم الفساد وتنهار الاخلاق . لقد أصبحت الغربان أكثر عددا وأشد

شراهة من أن تكفيها المغانم الوطنية الهزيلة. والحزب الذي أصبح أداة للسلطة في أيدي البورجوازية ، يقوي جهاز الدولة ويجمد الشعب، وما ينفك يصبح أداة قمع وعدواً للديمقراطية . لقد أصبح الحزب شريكاً للبورجوازية المتاجرة ، عن غير وعي وعن وعي . وكما تنسحب البورجوازية من مرحلة البناء وتغوص في حمأة الملذات، كذلك هي على الصعيد الدستوري تقفز فوق المرحلة البرلمانية وتختار دكتاتورية من النوع الفاشستي . واننا نعلم اليوم أن تلك الفاشستية الصغيرة التي انتصرت في أمريكا اللاتينية خلال نصف !؟ فى هي الا ثمرة منطقية لقيام ثولة شبه استعمارية في عهد الاستقلال.

ففي هذه البلاد الفقيرة المتخلفة التي نرى فيها، وفقا للقاعدة.، أكبر ثراء يتاخم أبأس فقر، يكون الجيش والشرطة أعمدة النظام القائم، وهما جيش وشرطة يشرف على توجيههما خبراء أجانب، وهذه قاعدة أخرى يجب أن نتذكرها. وتكون هذه الشرطة وسلطة هذا الجيش متناسبتين مع حالة الركود التي يعيش فيها سائر الامة . ان البرجوازية الوطنية تبيع نفسها للشركات الاجنبية بصراحة ما تنفك تزداد . وبالرشوة ينتزع الاجنبي الامتيازات تلو الامتيازات، وتتكاثر الفضائح ، ويغتني الوزراء وتستحيل نساؤهم الى دمى ؛ ويدبر النواب أمورهم ايضا ، ولا يبقى شرطي ولا موظف من موظفي الجمرك الا ويشارك في هذه القافلة من الرشوة ويزداد تهجم المعارضة، ويدرك الشعب دعايتها بنصف كلمة. وتبرز معاداة البورجوازية. ان البورجوازية الفتية التي دلفت الى الشيخوخة و هي في ريعان الشباب لا تقيم وزناً للنصائح التي تبذل لها، وتبدو عاجزة عن أن تفهم أن من مصلحتها أن تحجب استغلالها ولو بغلالة رقيقة.

ان جريدة مسيحية جداً ، جريدة " الاسبوع الافريقي " ، هي التي كتبت تخاطب أمراء العهد القائم بقولها : " يا أيها الرجال الذين تحتلون المراكز ، وانتن يا نساءهم انكم تنمتعون الآن بالثراء والرخاء، وربما كنتم تنعمون ايضاً بالتعليم والثقافة كما تنعمون بمنزلكم الجميل، وبعلاقاتكم الاجتماعية، وبالمهمات التي تسند اليكم فتفتح لكم آفاقاً جديدة. ولكن ثراءكم يعصب أعينكم فيحول بينكم وبين رؤية البؤس الذي يحيط بكم . ألا فاحذروا العواقب " . ولعل القارىء يدرك أن هذا التحذير الذي توجهه جريدة " الاسبوح الافريقي " الى أعوان السيد " يولو " لا يشتمل على أي روح ثورية ، فانما الامر الذي تريد جريدة " الاسبوع الافريقي " أن توصله الى أسماع مجوّعي الشعب الكونغولي هو أن الله سيعاقبهم على سلوكهم هذا : " اذا لم يكن في قلوبكم مكان للعطف على هؤلاء الناس الذين هم دونكم، فلن يكون لكم في بيت اهل مكان ".

وواضح إن البورجوازية الوطنية لا تهتم كثيرا بهده الاتهامات . انها ، وهي معلقة بأوروبا ، تظل مصممة تصميما قويا على انتهاز الفرصة . والارباح التي تجنيها من استغلال الشعب ما تلبث أن تصدّرها الى الخارج . ان البورجوازية الوطنية الفتية كثيرا ما يكون سوء ظنها بالنظام الذي أقامته أشد من سوء ظن الشركات الاجنبية به . فهي تأبى أن تستثمر اموالها في الوطن، وتتصرف تجاه الدولة التي تحميها وتغذيها تصرفا يتصف بنكران الجميل، وهو أمر واضح يجب أن نشير اليه. انها تشتري أسناداً مالية من أوربا، وتمضي الى باريس أو هامبورج لقضاء عطلة الاسبوع . ان سلوك البورجوازية الوطنية في بعض البلدان المتخلفة أشبه (بسلوك افراد عصابة) من اللصوص، ما ان يفرغوا من القيام بعملية من العمليات حتى يخفوا مرابحهم عن شركائهم ويستعدوا للانسحاب في حكمة وتعقل . وهذا السلوك يدل على ان البورجوازية الوطنية تشعر قليلا أو كثيرا أن لعبتها خاسرة على المدى الطويل . انها تدرك أن هذا الوضع لن يدوم الى غير نهاية ، ولكنها تريد ان تستفيد منه الى اقصى حد ممكن من الاستفادة . غير ان هذا الاستغلال وهذا الظن السيء بالدولة لابد أن يثيرا الاستياء في صفوف الجماهير. وفي هذه الظروف يصلب النظام ويقسو، ويصبح الجيش سندا لا بد منه للقيام بأعمال قمع منظم . فالجيش يصبح هو الحَكَم وهو المرجع، لانه ليس ثمة مجلس نيابي . ولكن الجيش يكتشف عاجلا أو آجلا أهميته، ويصبح خطرا يهدد البورجوازية في كل لحظة بانقضاضه على الحكم .

الانقلابات :

هكذا نرى أن البورجوازية الوطنية في بعض البلاد المتخلفة لم تتعلم من الكتب شيئا. فلو انها أنعمت النظر في بلدان أميركا اللاتينية، لادركت الاخطار التي تتربص بها. ونخلص اذاً الى هذه النتيجة : ان هذه البورجوازية الصغيرة التي تحدث كثيرا من الضجيج مآلها الى التحرك وهي في مكانها . ذلك أن المرحلة البورجوازية مستحيلة في البلاد المتخلفة. فقد تنشأ دكتاتورية بوليسية وقد تنشأ فئة من المنتفعين ، ولكن قيام مجتمع برجوازي أمر مخفق لا محالة . ان فئة المنتفعين الذين ينتزعون لانفسهم أموالا طائلة من رزق البلاد ، لابد أن يروا أنفسهم، عاجلا أو آجلا، كقشة بين يدي الجيش الذي يحركه خبراؤه الاجانب في مهارة . وهكذا نرى العاصمة الاوربية التي كانت مستعمِرة تحكم البلاد حكما غير مباشر ، بواسطة البورجوازيين الذين تغذيهم وبواسطة الجيش الوطني الذي ينظمه خبراؤها والذي يجمّد الشعب ويرهبه .

هذه الملاحظات التي سقناها بصدد البورجوازية الوطنية تقودنا الى نتيجة يجب الا تدهشنا : في البلاد المتخلفة يجب ألا تتوافر للبورجوازية شروط الوجود والازدهار. وبتعبير آخر : يجب ان ينصب الجهد المتعاون المنسق الذي تقوم به الجماهير المنظمة في حزب ويقوم به المثقفون الواعون وعيا رفيعا والمسلحون بمبادىء ثورية ، يجب أن ينصب هذا الجهد على سد الطريق أمام قيام هذه البورجوازية العقيمة الضارة ة .

ان المسألة النظرية التي تطرح منذ خمسين عاما حين يعالج تاريخ البلاد المختلفة أعني : هل يجب الوثوب فوق مرحلة البورجوازية أم لا، هذه المسألة يجب حلها على صعيد النضال الثوري لا بواسطة الاستدلال النظري . ان مرحلة البورجوازية في البلاد المتخلفة لا تكون مسوغة الا اذا كانت البورجوازية الوطنية تملك من القوة الاقتصادية والتكنيكية ما يكفي لبناء مجتمع برجوازي ، لخلق شروط نمو طبقة عاملة كبيرة ، لتصنيع الزراعة ، وأخيرا لقيام ثقافة وطنية أصيلة.

ان بورجوازية كالبورجوازية التي نشأت في أوربا قد استطاعت أن تضع ايديولوجيا ، مع تعزيزها لقوتها الخاصة. ان تلك البورجوازية النشيطة الفعالة المتعلمة ، العلمانية ، قد نجحت نجاحا كبيرا في مهمة جمع رؤوس الاموال ، وأعطت الشعب حدا أدنى من الرخاء . أما في البلاد المتخلفة، فقد رأينا أنه ليس هناك بورجوازية حقيقية، بل فئة محتكرة طويلة الانياب نهمة شرهة تسيطر عليها فكرة الربح التافه وتتمتع بحصص من المنافع .تخصها بها الدولة المستعمِرة القديمة . وهذه البورجوازية الرخيصة عاجزة عن تمثل أفكار كبرى، وعن القيام بأعمال تتجلى فيها روح الابتكار. انها تتذكر ما قرأته في الكتب المدرسية الغربية ، فاذا هي تستحيل شيئا فشيئا لا الى نسخة عن أوروبا ، بل الى كاريكاتور لاوروبا .

ان النضال ضد بورجوازية البلدان المتخلفة ليس موقفا نظريا . ليس الامر ها هنا أمر ادانة لها مستمدة من حكم التاريخ . يجب علينا ألا نكافح البورجوازية الوطنية في البلدان المتخلفة على أساس أنها قد تعوق نمو الامة نموا شاملا منسجما، وانما يجب علينا أن نعارضها معارضة قاطعة لانها في حقيقة الامر لا تقوم بأي دور وليس لها اية فائدة . ان هذه البورجوازية، التافهة في أرباحها و في أعمالها وفي فكرها تحاول أن تحجب هذه التفاهة بأقنعه شتى: بأبنية فخمة على المستوى الفردي، بسيارات أمريكية غنية بالكروم ، باجازات تقضيها على شواطىء الريفييرا، بعطل اسبوعية في الكاباريهات المتوهجة باضواء النيون . ذلك كل شأنها.

ان هذه البورجوازية التي تزداد تحولا عن الشعب برمته يوما بعد يوم لا تظفر حتى بحمل الغرب على تقديم بعض التنازلات : كتوظيف رؤوس اموال تهم اقتصاد البلاد ، أو كاقامة بعض الصناعات. وفي مقابل ذلك نرى مصانع التجميع تزداد وتنكاثر ،، معززة نموذج " الاستعمار الجديد " الذي يتخبط فيه الاقتصاد القومي . يجب ألا نقول اذاً ان البرجوازية الوطنية تؤخر تطور البلاد ، وانها قد تسير بالامة الى طرق مسدودة غير نافذة . فالواقع هو أن المرحلة البورجوازية في تاريخ البلاد المتخلفة مرحلة لا لزوم لها . وحين ستزول هذه الفئة اذ تلتهمها تناقضاتها، فسندرك أنه لم يتحقق شيء منذ الاستقلال ، وان علينا أن نستأنف كل شيء من أوله، أن نعود فنبدأ من الصفر . ولن يتم قلب الامور عندئذ على مستوى البنيانات التي أنشأتها البورجوازية خلال حكمها ، لان هذه الفئة لا تكون قد فعلت شيئا غير تسلّم ميراث الاقتصاد الاستعماري والتفكير الاستعماري والمؤسسات الاستعمارية دون أي تغيير أو تبديل .

ومما يسهل تجميد هذه الطبقة البورجوازية انها كما رأينا ضعيفة سواء من ناحية العدد ومن ناحية الثقافة ومن ناحية الاقتصاد. ان الطبقة البورجوازية في البلاد المستعمَرة تستمد قوتها الأساسية من الاتفاقات المعقودة مع السلطة الاستعمارية القديمة . وحظ البورجوازية الوطنية من الحلول محل المضطهد الاستعماري يكون على قدر ما اتيح لها من خلوة مع السلطة الاستعمارية القديمة. ولكن تناقضات عميقة تُحدث الاضطراب والبلبلة في صفوف هذه البورجوازية، وهذا ما يجعل المراقب اليقظ يشعر بأنه ليس ثمة استقرار. انه لم يتحقق لهذه الفئة حتى الآن شيء من التجانس . فكثير من المثقفين مثلا يُدينون هذا النظام القائم على سيطرة عدد من الأفراد . ان في البلدان المتخلفة مثقفين وموظفين ونخبة صادقة تشعر شعورا قويا بضرورة التخطيط الاقتصادي ، وبضرورة ابعاد المنتفعين ومنع التضليل منعا صارما . أضف الى ذلك أن هؤلاء الرجال يناضلون الى حد ما في سبيل اشراك الشعب اشراكا كبيرا في ادارة الشؤون العامة.

انك تكاد تجد دائما في البلاد المتخلفة التي نالت الاستقلال عددا صغيرا من المثقفين الشرفاء الذين ليس لهم أفكار سياسية معينة واضحة ، ولكنهم بغريزتهم يكرهون هذا السعي الحثيث الى المراكز والى المغانم ، الذي تتميز به الايام التالية للاستقلال في البلدان المتخلفة . ان الظروف الخاصة بهؤلاء الرجال (كاعالة اسرة كبيرة العدد) وتاريخهم الشخصي (تجارب صعبة ، تربية اخلاقية صارمة) هما السبب فيما يشعرون به من احتقار نحو الانتهازيين والمنتفعين . فيجب استعمال هؤلاء الرجال في المعركة الحاسمة التي يُراد خوضها لتوجيه الأمة توجيها سليما . واذا كان سد الطريق امام البرجوازية الوطنية يحقق إبعاد الاثراءات السريعة التي تعقب

الاستقلال ، وتحاشي مزالق الوحدة القومية ، وتفسخ الأخلاق وهيمنة الرشوة والفساد والتقهقر الاقتصادي وقيام حكم دكتاتوري مستند الى القوة والتخويف ، فانه ايضا السبيل الوحيد الى التقدم .

ان مما يضعف عزيمة العناصر التي تؤمن بالديموقراطية والتقدمية ايمانا عميقا بين أبناء الامة الفتية، ومما يجعلها خائفة وجلة، هو أن البورجوازية تبدو في الظاهر قوية وطيدة الاركان . ذلك أن جميع القيادات في البلاد المتخلفة التي نالت استقلالا حديثا انما تتجمع في المدن التي بناها الاستعمار. فيظن المراقب الذي لا يحلل مجموع السكان أن هناك بورجوازية قوية منظمة تنظيما كاملا . والحقيقة أن الامر ليس كذلك. فنحن نعلم الآن أن البلدان المتخلفة ليس فيها بورجوازية . ان البورجوازية لا يخلقها فكر ولا ذوق ولا آداب ، حتى ولا آمال ، وانما البورجوازية ثمرة مباشرة لوقائع اقتصادية معينة .

- والواقع الاقتصادي في المستعمرات انما هو واقع بورجوازي أجنبي . ان بورجوازية البلد المستعمِر هي الموجودة في مدن المستعمرات بممثليها . ان البورجوازية في المستعمَرات هي قبل الاستقلال بورجوازية غربية، هي فرع لبورجوازية البلد المستعمِر يستمد منها مشروعيته وقوته واستقراره . وفي أثناء فترة الاضطراب التي تسبق الاستقلال تحاول عناصر ثقافية وتجارية من السكان الاصليين الذين يعيشون في نطاق هذه البورجوازية المستوردة، ان تتشبه بها. ان المثقفين والتجار من السكان الاصليين يريدون دائما ان يتشبهوا بممثلي بورجوازية البلد المستعمِر.

فهذه البورجوازية التي تبنت متحمسةً ، وبلا تحفظ ، الأساليب الفكرية التي تتميز بها عاصمة البلد المستعمِر، هذه البورجوازية التي ضيعت تفكيرها الخاص تضييعا عجيبا وأقامت وعيها على أسس أجنبية صرفة، لا بد أن تدرك وقد جف حلقها ، أنه يعوزها ذلك الشيء الذي يصنع البورجوازية، أعني المال . ان بورجوازية البلدان المتخلفة هي بورجوازية بالفكر. فلا قوتها الاقتصادية ولا نشاط أفرادها ولا سعة نظراتها هي التي تكفل لها صفة البورجوازية . لذلك نراها في بداياتها وخلال مدة طويلة تظل بورجوازية موظفين . فالوظائف التي تحتلها في الادارة الوطنية الجديدة هي التي تهب لها الهدوء والمتانة . حتى اذا أتاح لها الحكم الوقت الكافي والامكانات اللازمة أستطاعت أن تنسج لنفسها جوربا صغيرا من الصفوف يعزز سيطرتها. ولكنها تظل عاجزة عن خلق مجتمع بورجوازي حقيقي مع كل النتائج الاقتصادية والصناعية التي يفترضها قيام هذا المجتمع .

ان البورجوازية الوطنية تتجه منذ البداية الى (فعاليات وساطية) . فالاساس الذي تقوم عليه سلطتها انما هو براعتها في (التجارة) وقدرتها على (خطف الوكالات) . فليست أموالها هي التي تعمل، بل مهارتها في عقد الصفقات . انها لا تستثمر أموالا، ولا تستطيع تحقيق ذلك التجميع لرأس المال، الضروري لقيام وازدهار بورجوازية حقيقية . ولو سارت بهذه الخطا لاحتاجت الى قرون من أجل ان تنشىء نواة تصنيع، ولاصطدمت على أقل تقدير بمعارضة الدولة المستعمِرة القديمة التي تكون في إطار الاتفاقات التي تنتمي الى نوع " الاستعمار الجديد " قد اتخذت جميع احتياطاتها.

فإذا أراد الحكم أن يخرج البلاد من الركود وأن يسير بها في طريق النمو والتقدم بخطا سريعة ، كان يجب عليه قبل كل شيء أن (يؤمم قطاع الوساطة) ذلك أن البورجوازية التي تغلّب روح الربح واللذة وتقف من الجمهور مواقف احتقار ، وتتهالك على الفائدة بل على السرقة ذلك التهالك الفاضح، انما تصب كل نشاطها على ذلك القطاع ؛ ان البورجوازية الوطنية الناشئة تغزو ميدان الوساطة الذي كان يحتله المستوطنون المستعمِرون. ان ميدان الوساطة هو في الاقتصاد الاستعماري أهم الميادين . فإذا أردنا التقدم كان علينا أن نؤمم هذا القطاع منذ الساعات الأولى . ولكن من الواضح أن هذا التأميم يجب ألا يأخذ طابع سيطرة الدولة على هذا القطاع سيطرة صلبة جامدة. يجب ألا نعيّن لهذه المصالح رؤساء لا يملكون وعياً سياسياً . فقد لاحظنا في جميع الحالات التي تم فيها التأميم بهده الطريقة السيئة أن السلطة قد ساهمت في انتصار ديكتاتورية يمارسها موظفون تلقوا ثقافتهم في عاصمة البلاد المستعمِرة، فسرعان ما ظهروا عاجزين عن فهم الامور على أساس مجموع الامة . ان هؤلاء الموظفين سرعان ما يأخذون في تخريب الاقتصاد القومي، وتفكيك الاجهزة ، فإذا الفساد والرشوة والتحيّز والمحاباة والتهريب و التحايل والسوق السوداء، اذا كل ذلك يظهر ويستقر . يجب ان يكون تأميم قطاع الوساطة تنظيما ديموقراطيا لتعاونيات البيع والشراء ، وأن تكون هذه التعاونيات لا مركزية لجعل الجماهير تهتم بإدارة الشؤون العامة . وذلك كله لا يمكن تحقيقه ، كما ترون ، الا بادخال الجماهيرفي الحياة السياسية . والواقع أن مبدأ ادخال الجماهير في الحياة السياسية أصبح مبدأ معروفاً في البلدان المتخلفة . ولكن ليس يبدو أن هذه المهمة الاساسية مفهومة فهما صحيحا . فحين يؤكدون ضرورة ادخال الشعب في الحياة السياسية فانما يعنون في الوقت نفسه أنهم يريدون أن يدعمهم الشعب في عملهم . ان الحكومة التي تصرح بأنها تريد ادخال الشعب في الحياة السياسية انما تعبر عن رغبتها في أن تحكم مع الشعب ومن أجل الشعب . ولكن يجب ألا يكون هذا

لغةَ غايتها تقنيع اتجاه بورجوازي . ان الحكومات البورجوازية في البلاد الرأسمالية قد تجاوزت منذ زمن طويل هذه المرحلة الصبيانية من الحكم . انها الآن تحكم، بهدوء وبرود، بواسطة قوانينها وقوتها الاقتصادية وشرطتها. انها، وقد أصبحت سلطتها متينة ووطيدة، غير مضطرة الى أن تضيع وقتها في مواقف ديماغوجية. انها تحكم بما يحقق مصالحها، جريئة غير هيابة. لقد أوجدت مشروعية ، فهي قوية بحقها.

اشراك الشعب في الحياة السياسية :

أما الفئة البورجوازية في البلاد التي استقلت حديثا فانها لا تتصف بعد بما تتصف به البورجوازيات القديمة من استخفاف ورباطة جأش قائمين على القوة . ومن ثم نرى لديها ذلك الاهتمام باخفاء قناعاتها العميقة ، وبالتظاهر بالشعبية ... ولكن ادخال الشعب في الحياة السياسية لا يكون بحشد عشرات الألوف أو مئات الألوف من الرجال والنساء ثلاث مرات أو أربع مرات في العام . ان هذه الاجتماعات التي تعقد من حين الى حين تشبه الاسلوب القديم الذي كان يُتبع قبل الاستقلال حين كان هؤلاء الناس يعرضون قواهم بغية أن يبرهنوا لأنفسهم وللآخرين على أن الشعب معهم . ان ادخال الشعب في الحياة السياسية لايعني أن ترده طفلاً، بل أن تجعله راشداً .

وهذا يقودنا الى الكلام على دور الحزب السياسي في بلد متخلف . لقد رأينا في الصفحات السابقة أن هناك أناساً ممن ينظرون الى الامور نظرة تبسيطية، وهم ينتمون من جهة أخرى الى البورجوازية الناشئة ، ما يفتؤون يرددون في كثير من الأحيان أن من الضروري أن تُقاد الامور في البلد المتخلف بسلطة قوية وحتى بحكم دكتاتوري. و على هذا الاساس يكلف الحزب بمهمة مراقبة الجماهير، ويكون سنداً لرجال الادارة والشرطة ، فيراقب الجماهير لا ليتأكد من أنها تشارك في شؤون الأمة حقاً ، بل ليذكرها دائما بأن السلطة تنتظر منها الطاعة والنظام والخضوع . ان هذه الدكتاتورية التي تظن أنها ضرورية غداة الاستقلال . انما تشير في الواقع الى أن الفئة البورجوازية قد قررت أن تحكم البلد المتخلف بمساندة الشعب أولاً ، وضد الشعب بعد ذلك . وما تحول الحزب شيئا فشيئا الى (مصلحة مخابرات) الا دليل على أن الحكومة أخذت تقف موقفاً دفاعياً أكثر فأكثر . ان الحكومة التي تنظر الى الشعب نظرتها الى كتلة ليست بذات شكل، تعد الشعب قوة عمياء يجب ترويضها سواء بالتضليل أو بالخوف الذي توقظه في نفسها قوى الشرطة . وليس الحزب الا بارومتراً ، الا مصلحة مخابرات. انهم يحيلون عضو الحزب الى جاسوس .

ويعهدون اليه بمهمات تأديبية في القرى . فاذا كان هنالك نواة حزب معارض ضُرب أعضائه بالعصا والحجارة من أجل تصفيتهم . حتى أن مرشحي المعارضة يرون الحريق يشب في بيوتهم . وتضاعف الشرطة استفزازاتها . يجب علينا أن نعترف أن سلوك عدد من حكومات افريقيا هو هذا السلوك . ان جميع أحزاب المعارضة - وهي أحزاب تقدمية على وجه العموم – التي عملت على أن يكون للجماهير مزيد من التأثير في ادارة الشؤون العامة، والتي تمنت ازاحة البورجوازية الحقيرة التجارية ، قد اضطرت الى الصمت بقوة السياط والسجون، ثم الى التنظيم السري .

ان الحزب السياسي في كثير من المناطق الافريقية التي أصبحت الآن مستقلة يعاني إفلاساً خطيراً كل الخطورة . والشعب لا يزيد اذا حضر عضو من أعضاء الحزب على أن يصمت وعلى أن يتظاهر بأنه حمل وديع، وعلى أن يكيل الاماديح جزافاً للحكومة وللزعيم . ولكن ليتكم تسمعون في الشارع عند المساء ، في ظاهر القرية أو في المقهى أو على النهر، ليتكم تسمعون تعبير الشعب عن خيبة ظنه ، عن المرارة التي تعتمل في نفسه ، عن اليأس الذي يملأ قلبه، ولكن أيضا عن الحنق المكظوم الذي يضطرم في أعماقه. ان الحزب، بدلا من أن يشجع على تعبي عن شكاواه وأوجاعه ، وبدلا من أن يجعل مهمته تسهيل انتقال أفكار الشعب الى القيادة انتقالا حرا ، ينصب نفسه حاجزا ومانعا . ان قادة الحزب يتصرفون تصرف جنود برتبة عريف ، وما يفتؤون يذكرون الشعب بضرورة " الصمت في الصف " . ان هذا الحزب الذي كان يعلن أنه خادم الشعب، وأنه يعمل على تحقيق الازدهار للشعب ، ما إن تعهد اليه السلطة الاستعمارية بالحكم حتى يسارع الى اعادة الشعب إلى كهوفه. وعلى صعيد الوحدة القومية أيضا يرتكب الحزب الاخطاء تلو الاخطاء . ان الحزب الذي يزعم أنه حزب قومي يتصرف تصرف حزب قبلي . انه قبيلة صارت حزبا. أن هذا الحزب الذي ينادي بالقومية ويؤكد أنه يتكلم بلسان الشعب كله، يمارس في السر دكتاتورية قبلية حقيقية ، حتى لقد تكون هذه الدكتاتورية القبلية صريحة مكشوفة في بعض الاحيان . ونحن لا نشهد عندئذ دكتاتورية بورجوازية . بل دكتاتورية قبلية . فالوزراء، ورؤساء المكاتب ، و السفراء، و المحافظون، انما يتم ا ختيارهم من بين أفراد قبيلة الزعيم ، حتى لقد يتم اختيارهم من بين افراد أسرته رأساً في بعض الأحيان . ان هذه الانواع العائلية من الحكم تذكر بالقوانين القديمة التي كانت تفرض ألا يتزوج الرجل الا امرأة من أسرته . والمرء لا يشعر ازاء هذه الحماقة بالغضب بل بالعار ؛ انه يشعر بالعار تجاه هذا الانحطاط العقلي والروحي . ان رؤساء الحكومات هؤلاء هم الخونة الحقيقيون ، همالذين يخونون أفريقيا ، لأنهم يبيعونها لعدو هو ألد اعدائها طراً : الحماقة . ولا شك في انكم تقدرون أن سيطرة هذه القبيلة على الحكم لا بد ان تؤدي إلى

الاقليمية والى الانفصالية . فاذا نحن نرى اتجاهات لامركزية تظهر وتنتصر، واذا الشعب يتفكك وتتقطع أوصاله. ان الزعيم الذي :كان ينادي " وحدة افريقيا " وهو لا يفكر الا في عائلته، يستيقظ ذات صباح فاذا هنالك خمس قبائل تطالب هي أيضا بأن يكون لها سفراؤها ووزراؤها، فيأخذ يندد " بالخيانة " وهو لا يزال على ما كان عليه من فقدان الشعور بالمسؤولية ، ومن فقدان الوعي، ومن صغار النفس .

لقد أشرنا مراراً الى أن الدور الذي يقوم به الزعيم كثيرا ما يكون دورا ضاراً مشؤوماً . ان الحزب في بعض المناطق يكون منظماً كتنظيم عصابة يتولى قيادتها الشخص الذي يكون أشد أعضائها قسوة . ويحلو لبعضهم أن يتحدث عن سيطرة هذا الزعيم وعن قوته ، حتى لقد لا يتورع أن يقول بلهجة فيها الرضا والاعجاب إن هذا الزعيم يرعب أقرب المقربين اليه من معاونيه. فلكي نتحاشى هذه المخاطرالكثيرة يجب أن نناضل في كثير من العناد والصمود في سبيل ألا يستحيل الحزب أبداً الى أداة طيعة بين يدي زعيم . ان كلمة زعيم الانجليزية Leader مشتقة من فعل : ساق يسوق . فيجب ان نعلم ان الشعب لا يُساق الآن سوقاً . ليست الشعوب الآن قطعاناً تُساق ، ولا هي في حاجة الى أن تُساق . واذا ساقني الزعيم فانني أريد أن يعلم في الوقت نفسه أنني أسوقه . ما ينبغي أن تكون الامة كتلة يصرّف شؤونها رجل . ومن هنا نفهم ذلك الذعر الذي يستولي على الاوساط الحاكمة حين يُصاب واحد من هؤلاء الزعماء بمرض . ذلك أن المسألة التي تشغل بال هذه الاوساط وتقض مضاجعها هي مسألة الخلف الذي سيخلف الزعيم اذا مات. ما عسى أن تصير اليه البلاد اذا مات الزعيم ؟ ان الاوساط الحاكمة التي امّحت أمام الزعيم غير شاعرة بالمسؤولية غير واعية للوضع ، مشغولة بالحياة المرفهة التي تعيشها، وبالحفلات التي تشهدها ، وبالأسفار المأجورة التي تقوم بها والارباح الكثيرة التي تجنيها ، ان هذه الاوساط الحاكمة تشعر من حين الى حين بالفراغ الروحي الذي يرين في قلب الشعب .

ان البلاد التي تريد حقا أن تحل القضايا التي يطرحها عليها التاريخ ، التي تريد حقا ان تحقق لمدنها الازدهار ، وأن تنمي عقول سكانها ، يجب أن يكون لها حزب حقيقي . وليس الحزب أداة بين يدي الحكومة ، بل الحزب اداة بين يدي الشعب . الحزب هو الذي يقرر السياسة التي تطبقها الحكومة . ليس الحزب ، وما ينبغي للحزب – أن يكون المكتب السياسي الذي يلتقي فيه أعضاء الحكومة وكبار المسؤولين على راحتهم . ان المكتب السياسي كثيرا ما يكون الحزب كله وا أسفاه ! وأعضاء المكتب السياسي يقيمون دائما في العاصمة . مع ان من الضروري في البلاد المتخلفة أن يفرّ المسؤولون الحزبيون من المدن فرارهم من الطاعون . ان عليهم أن يقيموا في المناطق الريفية ،

الا عدداً قليلا منهم . يجب ان نتحاشى تركيز كل شيء في المدينة الكبيرة . وما من عذر من الاعذار الادارية يمكن أن يسوّغ هذا الغليان الشديد في العاصمة التي تشكو منذ الآن من فرط عدد السكان ومن فرط النمو بالقياس الى تسعة اعشار مساحة البلاد . يجب تخليص الحزب من التمركز الى اقصى حد ممكن . فتلك هي السبيل الوحيدة الى تنشيط المناطق الميتة التي لم تستيقظ على الحياة بعد .

يجب عملياً أن يقيم عضو واحد على الاقل من أعضاء المكتب السياسي في كل منطقة من المناطق، ويجب أن نتحاشى تعيينه رئيسا للمنطقة . يجب ألا يتسلم سلطات ادارية. ليس من الضروري أن يحتل عضو المكتب السياسي أعلى مركز في الجهاز الاداري للمنطقة . يجب ألا يكون جزءاً من السلطة بالضرورة . يجب ألا يكون الحزب في نظر الشعب هو السلطة، بل الجهاز الذي بواسطته يستطيع الشعب من حيث هو شعب أن يمارس سلطته ويحقق ارادته . وكلما فرقنا بين الحزب والحكم، أزلنا ازدواج السلطة ، كنا نكفل للحزب أن يحقق رسالة كمرشد وموجه، وكنا نكفل له أن يكون في نظر الشعب ضمانة حاسمة. أما اذا كان هناك اندماج بين الحزب والسلطة ، كان الانتساب الى الحزب يعني سلوك الطريق الأقصر الى تحقيق غايات أنانية ، الى الحصول على منصب في جهاز الحكم ، الى نيل ترفيع في الوظيفة أو تغيير في الوضع ، أو ما الى ذلك .

ان من شأن القيادات المحلية النشيطة في البلاد المتخلفة ان توقف عملية تضخم المدن ، وأن تحول دون تدفق الجماهير الريفية الى هذه المدن تدفقا مضطربا غير متسق. ان خلق قيادات محلية منذ الايام الاولى للاستقلال ، قيادات تملك في المنطقة كل الصلاحيات اللازمة لإيقاظ المنطقة واحيائها وتعجيل وعي المواطنين فيها، ان خلق هذه القيادات المحلية ضرورة ليس في وسع أي بلد يريد التقدم أن يفلت منها. والا رأينا المسؤولين الحزبيين ورجال الحكم يتجمعون حول الزعيم، ورأينا الادارات تتضخم ، لا لأنها تنمو وتتنوع، بل لان أقرباء جدداً وحزبيين جدداً ينتظرون منصبا ويأملون أن يتسربوا الى عجلة الوظائف ، ورأينا كل مواطن يحلم أن يجيء الى العاصمة لينال نصيبه من الحلوى، ورأينا المناطق البعيدة تخلو من سكانها، والجماهير الريفية التي ما نظمت ولا ربيت ولا دعمت، تتحول عن الارض التي لم تحسن حرثها وتتجه الى الضواحي المحيطة بالمدن فتتضخم بها البروليتاريا الدنيا تضخما لا يقف عند حد.

وتوشك الامة أن تعاني أزمة وطنية اقتصادية جديدة. اننا نعتقد أن المناطق الداخلية في البلاد هي التي يجب أن تخص بالامتياز. بل قد لا يكون هناك أي ضرر من انتقال الحكومة الى

مكان غير العاصمة. يجب الا تظل العاصمة عاصمة الى الابد . يجب أن نبرهن للجماهير المحرومة أننا من أجلها انما نقرر أن نعمل . وهذا ما حاولته الحكومة البرازيلية ، بمعنى من المعاني، حين شيدت برازيليا. ان امتيازات ريو دو جانيرو اهانة للشعب البرازيلي . ولكن من المؤسف أن العاصمة الجديدة برازيليا لا تقل عن العاصمة الاولى شموخا أشوه . والفائدة الوحيدة التي تحققت من تشييد هذه العاصمة الجديدة أنه يوجد الآن طريق يشق الغابات ليدخل اليها. نعم ليس هناك أي باعث ذي بال يمكن أن يحول دون اختيار عاصمة أخرى، وأن يمنع انتقال مجموع الحكومة الى منطقة من المناطق المحرومة . ان فكرة العاصمة في البلاد المتخلفة هي فكرة تجارية من مخلفات عهد الاستعمار يجب علينا في البلاد المتخلفة أن نضاعف الاتصال بالجماهير الريفية . علينا أن نجعل سياستنا قومية تتناول الجماهير . يجب ألا نفقد اتصالنا بالشعب الذي كافح في سبيل استقلاله وفي سبيل تحسين حياته تحسينا محسوسا ملموسا .

ان على الموظفين والفنيين من أهل البلاد أن يغوصوا لا في الخطوط البيانية والاحصاءات، بل في جسم الشعب. يجب عليهم ألا يغضبوا أشد الغضب كلما أريد نقلهم الى " المناطق الداخلية ". يجب ألا نرى بعد الآن أولئك النساء الشابات في البلدان المتخلفة يهددن أزواجهن بالطلاق اذا هم لم يتوسلوا بجميع الذرائع الممكنة ليحولوا دون تعيينهم لوظيفة في الريف . لذلك كان لزاما على المكتب السياسي للحزب ان يجعل المناطق المحرومة هي المناطق التي يخصها بالامتياز . وينبغي لحياة العاصمة ، الحياة المصطنعة السطحية اللازقة بالواقع القومي لزوق جسم غريب عنه، ألا تحتل الا أقل مكان ممكن في حياة الامة التي هي الحياة الاساسية المقدسة .

وعلى الحزب في البلاد المتخلفة ألا يكتفي بالاتصال بالجماهير، وانما ينبغي له أن يكون تعبيرا مباشرا عن الجماهير . ليس الحزب جهازا مهمته نقل أوامر الحكومة ، بل الحزب هو الناطق القوي بلسان الجماهير، وهو المدافع الصامد عن الجماهير. وللوصول الى فهم الحزب هذا الفهم يجب قبل كل شيء أن نتحرر من تلك الفكرة الغريبة جدا ، البورجوازية جدا، وبالتالي المسيئة جدا، الفكرة القائلة إن الجماهير عاجزة عن قيادة نفسها. ان التجربة تبرهن في الواقع على أن الجماهير تفهم اعقد المشكلات فهماً كاملاً . ان من أهم الخدمات التي أدتها الثورة الجزائرية للمثقفين الجزائريين أنها وصلتهم بالشعب، وأتاحت لهم أن يروا ذلك البؤس الفظيع الرهيب الذي يعانيه الشعب، و أن يشهدوا في الوقت نفسه يقظة الذكاء وتقدم الوعي لدى هذا الشعب. ان الشعب الجزائري، هذه الكتلة من الجائعين والاميين من الرجال والنساء الذين ظلوا غارقين في

أحلك ظلمات الجهل قرونا طويلة، قد صمد للدبابات والطائرات، للقذائف المحرقة والدوائر السيكولوجية، وصمد خاصة لمحاولات الرشوة والافساد وغسل الدماغ، وصمد للخونة والجيوش " الوطنية " التي يقودها الجنرال بيلوني . صمد هذا الشعب رغم الضعاف والمترددين والاجراء، صمد لأن كفاحه خلال سبع سنين قد فتح له ميادين كان لا يتصور حتى وجودها. واليوم تعمل مصانع الاسلحة في الجبال على عمق عدة أمتار تحت الارض ، واليوم تعمل محاكم الشعب بجميع درجاتها، وتتولى لجان محلية للتخطيط حصر الملكيات الكبيرة، استعدادا لبزوغ جزائر الغد. قد يعجز رجل منعزل عن فهم مشكلة من المشاكل، أما الجماعة، أما القرية بكاملها فانها تفهم الامور بسرعة تحيّر العقل . صحيح أنك اذا حرصت كل الحرص على أن تستعمل لغة لا يفهمها الا الحاصلون على شهادة الليسانس في الحقوق أو العلوم السياسية ، تستطيع أن تبرهن على أن الجماهير يجب أن تساق سوقا . أما اذا استعملت اللغة المحسوسة الواضحة، ولم تكن ممن يستبد بهم حرص شاذ على تلبيس الامور، وعلى التخلص من الشعب، فانك ما تلبث أن تدرك أن الجماهير تدرك أدق المشكلات وأرهف المسائل. ان لجوءك الى لغة تكنيكية معناه انك قررت ان تعد الجماهير جاهلة. ان هذه اللغة تدل على رغبة أصحابها من المحاضرين في أن يخدعوا الشعب وفي أن يدعوه خارج القضية. ليس استعمال لغة غامضة الا قناعا يخفي وراءه حرصا على النهب . ان من يستعمل هذه اللغة الغامضة انما ينتزع من الشعب رزقه وسيادته معاً . ان المرء يستطيع أن يشرح للشعب كل شيء متى أراد حقا أن يفهمه الشعب . فإذا ظن أنه ليس في حاجة الى الشعب ، اذا حسب أن الشعب يعرقل سير الشركات الخاصة ذات المسؤولية المحدودة، التي تهدف الى جعل الشعب يعاني مزيدا من البؤس والفقر، فقد حُسمت المشكلة...

من ظن أن في الامكان أن يُقاد بلد من البلدان دون أن يُقحم الشعب أنفه في ذلك، من ظن أن الشعب يبلبل مجرد حضوره الامور، فيؤخر التقدم أو يخرب الوضع بجهله الطبيعي، من ظن ذلك فلا تردد عنده : يجب ابعاد الشعب. و لكن الواقع هو أن الشعب اذا دعي الى قيادة البلاد لا يؤخر الحركة بل يعجلها . و قد تيح لنا نحن معشر الجزائريين خلال هذه الحرب التي نخوضها أن نلمس بأيدينا عدة أشياء. ان المسؤولين السياسيين العسكريين من رجال الثورة قد واجهوا في بعض المناطق الريفية ظروفا اقتضت حلولا جذرية. وسنعرض الآن لبعض هذه الظروف .

في أثناء عامي ١٩٥٦ و ١٩٥٧، حرّم الاستعمار الفرنسي بعض المناطق ، فأصبح تنقل الاشخاص في هذه المناطق خاضعا لقيود صارمة. وأصبح الفلاحون لا يستطيعون أن يذهبوا الى المدينة بحرية لتجديد مؤنهم . فأخذ البقالون يكدسون أرباحا ضخمة، حتى بلغت أسعار الشاي

والقهوة والسكر والتبغ أرقاما خارقة، وانتصرت السوق السوداء انتصارا هائلا. وأصبح الفلاحون الذين لا يستطيعون المقايضة يرهنون محاصيلهم بل أراضيهم ، أو يأخذون يبيعون إرث الأسرة قطعة قطعة ، ثم ينتهون في مرحلة ثانية الى العمل في الارض لحساب البقال. فما أن ادرك المفوضون السياسيون هذا الخطر حتى بادروا الى اتخاذ الاجراءات اللازمة فورا ، فوضعوا نظاما عقليا للتموين : فالبقال الذي يذهب الى المدينة عليه أن يشتري بضائعه من تجار وطنيين يعطونه فواتير تذكر فيها أسعار البضائع ؛ حتى اذا عاد الى القرية كان عليه أن يذهب فورا الى المفوض السياسي الذي يدقق في الفواتير ، ويحدد الربح ويعين تسعيرة البيع . وعلى البقال بعد ذلك أن يسجل على البضائع في حانوته أسعارها المفروضة، ويكون هنالك رجل من رجال القرية يبصر الفلاح بأسعار البضائع ويكون أشبه برقيب على البقال . غير أن البقالين ما لبثوا أن اكتشفوا حيلة يلجؤون اليها، فما هي الا أيام ثلاثة أو أربعة حتى يدعوا أن البضاعة قد نفدت، ثم يأخذون يبيعون خفية بأسعار فاحشة.

وكان رد السلطة السياسية العسكرية جذريا : فُرضت غرامات ضخمة على المخالفين ، وجُمعت الغرامات وأودعت صندوق القرية لإنفاقها في البر أو لاستعمالها في أعمال ذات مصلحة مشتركة. حتى لقد تقرر في بعض الاحوال إغلاق الحانوت الى أجل مسمى . فإذا تكررت المخالفة صودر المحل فورا وعهد الى لجنة منتخبة بادارته، وأعطي صاحب المحل مرتبا شهريا.

وعلى أساس هذه التجارب شرحنا للشعب القوانين الاقتصادية الكبرى بالاستناد الى حالات محسوسة . فلم يبق قانون تجميع رأس المال نظرية من النظريات، بل سلوكا واقعيا جدا راهنا جدا: أدرك الشعب كيف أن في وسع فرد من الأفراد يعمل في تجارة أن يصيب ثراء كبيرا وأن يوسع تجارته . وعندئذ فقط أخذ الفلاحون يقصون كيف أن هذا البقال كان يقرضهم أموالا بربا فاحش ، و ذكر آخرون كيف أنه طردهم من أراضيهم وكيف أصبحوا عمالا بعد أن كانوا مالكين . وكلما ازداد الشعب فهماً للامور، ازدادت يقظته وأصبح يدرك أن كل شيء متوقف عليه، وأن سلامته رهن باتحاده، وبمعرفة مصالحه وبتعيين أعدائه . وفهم الشعب أن الغنى الذي حصله الاغنياء لم يكن ثمرة العمل بل كان ثمرة سرقة منظمة محمية . وأصبح لا ينظر الى الأغنياء نظرته إلى أناس محترمين بل إلي حيوانات مفترسة، الى ذئاب، الى غربان تتمرغ في دماء الشعب. وفي مضمار اخر قرر المفوضون السياسيون ألا يعمل أحد أجيرا لأحد، فالارض لمن يزرعون الارض . هذا مبدأ أصبح بالشرح قانوناً أساسياً في الثورة الجزائرية، وحُمل المزارعون الذين كانوا يستعملون عمالا زراعيين على ان يدفعوا لهؤلاء الذين عملوا لهم أنصبة من الارباح .

ولاحظنا عندئذ أن غلّة الهكتار قد تضاعفت ثلاثة أضعاف، وذلك رغم هجمات الفرنسيين وقصف الطائرات وصعوبة الحصول على الاسمدة. وأراد الفلاحون الذين استطاعوا عند الحصاد أن يقدروا محاصيلهم وأن يزنوها، أرادوا أن يفهموا هذه الظاهرة ، فسرعان ما اكتشفوا أن العمل ليس أمراً بسيطاً ، وأن العبودية لا تتيح العمل، وان العمل يفترض الحرية والمسؤولية والوعي .

في هذه المناطق التي استطعنا أن نطبق فيها هذه التجارب البناءة ، في هذه المناطق التي شهدنا فيها تحقق الانسان بالتشريع الثوري، أدرك الفلاحون إدراكا واضحا جدا ذلك المبدأ الذي يقول إن الانسان يستمتع بالعمل على قدر اقدامه على بذل الجهد عن وعي واضح. لقد استطعنا أن نفهم الجماهير أن العمل ليس انفاق طاقة أو تشغيل عضلات فحسب ، فإنما يعمل المرء بعقله وقلبه أكثر مما يعمل بعضلاته وعرقه . وكذلك اضطررنا في هذه المناطق التي تحررت ولكنها أبعدت في الوقت نفسه عن الدورة التجارية القديمة، اضطررنا أن نبدل الانتاج الذي كان قبل ذلك متجها نحو المدن ونحو التصدير فحسب . فنظمنا الانتاج على أساس حاجة الشعب وحاجة وحدات جيش التحرير الوطني الى الاستهلاك . ضاعفنا انتاج العدس أربعة أضعاف ونظمنا صنع فحم الخشب . وأصبحت الخضر والفحم الحجري تأتي من مناطق الشمال الى الجنوب عن طريق الجبال ، وأخذت مناطق الجنوب ترسل اللحوم الى الشمال . وكانت جبهة التحرير الوطني هي التي قررت احداث هذا التنسيق ووضعت خطة نقل المحاصيل. ولم يكن لدينا مختصون في التخطيط متخرجون من مدارس الغرب الكبرى ، ولكن هذه المناطق المحررة قد بلغ الراتب الغذائي اليومي فيها حدا لم تعرفه من قبل وهو ٣٢٠٠ حريرة . ولم يكتف الشعب بتحقيق النصر في هذه التجربة بل أخذ يطرح مسائل نظرية . مثال ذلك : لماذا كان بعض المناطق لايرى البرتقال قبل حرب التحرير مع أن البلاد كانت تصدر منه الى الخارج ملايين الاطنان سنوياً ، ولماذا كان عدد كبير من الجزائريين لا يعرف العنب مع أن ملايين العناقيد من عنب الجزائر كانت تتلذذ بها الشعوب الأوروبية ؟ لقد أصبح الشعب يعرف اليوم ما يملكه معرفة واضحة . أصبح الشعب الجزائري يعلم اليوم أنه المالك الوحيد لارض بلاده ولما يضمه جوف هذه الارض من ثروات. واذا كان هناك أناس لا يفهمون لماذا تحرص جبهة التحرير الوطني هذا الحرص كله على ألا تتهاون أي تهاون في حق التملك هذا ، ولا يفهمون عزمها العنيد الوحشي على رفض أية تسوية حول هذه المبادىء ، فليتذكروا أن الشعب الجزائري أصبح اليوم شعباً راشداً ، مسؤولاً ، واعياً . ان الشعب الجزائري قد أصبح اليوم شعباً مالكاً .

لقداستشهدنا بمثال الشعب الجزائري في توضيح كلامنا، لامن أجل ان نمجد شعبنا ، بل لأننا أردنا أن نبين الدور الكبير الذي حققته معركته في تنمية وعيه . وواضح أن هناك شعوباً أخرى وصلت الى هذه النتيجة نفسها بطرق شتى . إن لجوء الشعب الجزائري الى استعمال القوة أمر لم يكن منه بد، والناس يدركون اليوم ذلك اكثر مما كانوا يدركونه من قبل ، غيرأن هناك مناطق أخرى استطاعت بالنضال السياسي والشرح والتنوير الذي تولاه الحزب، أن تصل الى هذه النتائج نفسها . لقد أدركنا في الجزائر أن الجماهير في مستوى المشكلات التي تجابهها. والتجربة تدل على أن المهم في بلد متخلف ليس هو أن يفهم وان يقرر ثلاثمائة شخص، وإنما المهم ان يفهم الشعب كله وأن يقرر الشعب كله، ولو اقتضى ذلك وقتاً مضاعفاً ضعفين أو ثلاثة أضعاف. فالوقت الذي تنفقه في الشرح ، الوقت الذي " تضيعه " في توعية العاملين، لا يذهب هدراً، بل يُتدارك ويُسترد في التنفيذ. يجب ان يعرف الناس الى اين هم ماضون، ولماذا يمضون الى حيث هم ماضون ؟؟ ينبغي لرجل السياسة ألا يجهل أن المستقبل سيظل مسدوداً ما ظل وعي الشعب قاصراً ضعيفاً كثيفاً . إن علينا، نحن رجال السياسة الافريقيين ، أن تكون أفكارنا عن حالة شعبنا واضحة جداً. ولكن هذا الادراك الواضح يجب أن يظل ديالكتيكياً الى الاعماق . إن يقظة الشعب كله لن تتم دفعة واحدة، وانخراط الشعب في عمل البناء القومي انخراطاً منظماً أمر طويل، أولاً لأن طرق المواصلات ووسائل النقل غير متطورة تطوراً كافياً ، وثانيا لان الزمانية لن تكون زمانية اللحظة الراهنة أو المحصول القادم بل زمانية العالم ، وأخيرا لان اليأس الراسخ في قرارة العقول بنتيجة السيطرة الاستعمارية ما يزال متأهباً . ولكن يجب علينا ألا نجهل أن الانتصار على عقد الانزلاق في الطريق الاسهل، وهي من مواريث السيطرة على البلاد مادياً وروحياً ، ضرورة ليس في وسع أية حكومة أن تتملص منها. انظروا مثلا الى العمل في عهد الاستعمار . إن المستوطنين المستعمِرين لم ينقطعوا لحظة عن القول إن السكان الاصليين كسالى بطيئون. واليوم نرى في بعض البلاد المستقلة أناساً مسؤولين يعودون الى هذه النغمة ويرددون هذه الادانة. وواقع الأمر أن المستوطن الممستعمِر كان يريد ان يكون العبد متحمساً . كان يريد بنوع من التضليل، أن يقنع العبد بأن الارض التي يزرعها هي له، وأن المناجم التي يفقد فيها عافيته هي ملكه.

توعية الشعب :

وكان المستوطن المستعمر ينسى نسياناً عجيباً أنه انما يغتني بفضل احتضار العبد ، لقد كان المستوطن يقول للمستعمَر عملياً : ((لتفطس أنت ولاغتن أنا)) . وعلينا الآن ألا نفعل مثل هذا . علينا ألا نقول للشعب : ((لتفطس انت ولتغتن البلاد)) . اذا نحن أردنا أن نزيد الدخل

القومي ، وإذا نحن أردنا أن نمنع استيراد بعض المنتجات غير المفيدة بل الضارة ، واذا نحن أردنا أن نزيد الانتاج الزراعي، وأن نحارب الامية ، فعلينا أن نشرح للشعب . الأسباب التي تدفع الى ذلك كله. يجب أن يفهم الشعب أهمية ما نقدم عليه من عمل . يجب أن يعرف الشعب الشؤون التي تتصل بالشعب . ومن هنا تفهمون ضرورة إكثار خلايا القاعدة . إن ما يحدث في كثير من الاحيان هو أننا نكتفي بإنشاء منظمات وطنية في القمة وفي العاصمة دائما: " اتحاد النساء "، " اتحاد الشباب " ، " النقابات " ، الخ ... حتى إذا بدا لك أن ترى ماذا وراء المكتب الذي مقره العاصمة ، إذا بدا لك أن تنتقل الى القاعة الخلفية التي يجب ان توجد فيها الاضبارات والملفات ، هالك ما ستراه من فراغ ، من عدم ، من خديعة . لا بد من قاعدة ، لا بد من خلايا هي التي تبث الحركة مضموناً ونشاطا. ينبغي ان تمكن الجماهير من أن تجتمع وتناقش وتقترح وتتلقى تعليمات. ينبغي أن يستطيع المواطنون أن يتكلموا وأن يعبروا وأن يبتكروا. إن اجتماع الخلية أو اجتماع اللجنة أشبه بصلاة . انه فرصة فذة تتاح للانسان فيستطيع أن يصغي وأن يتكلم . وفي كل اجتماع ، يغتني عقل الانسان وتطل عيناه على آفاق ما تنفك تتسع .

الشبيبة:

وكثرة الشباب في البلاد المتخلفة تطرح على الحكومة مشكلات خاصة يجب أن تعالج معالجة واضحة. إن الشبيبة التي تعيش في المدن ولا تقوم بعمل ، والتي هي أمية في كثير من الاحيان، تنساق في طرق كثيرة من طرق الانحلال والتفسخ . أن أُلهيات البلاد المصنعة معروضة على شبيبة البلاد المتخلفة في أكثر الأحيان . والأمر الطبيعي في الواقع هو أن هناك تجانساً بين المستوى العقلي والمادي لأفراد مجتمع من المجتمعات وبين اللذات التي يستمتع بها هذا المجتمع . ولكن الشبيبة في البلاد المتخلفة تنعم بأُلهيات خلقت لشبيبة البلاد الرأسمالية : الروايات البوليسية ، ماكينات القمار ، الصور الفوتوغرافية الماجنة ، الأدب الخليع ، الأفلام الممنوعة عمن هم دون السادسة عشرة من العمر ، والمشروبات الكحولية خاصة . ففي الغرب نرى الجو العائلي، والمواظبة على المدارس، و مستوى معيشة الطبقات الكادحة ، العالي نسبياً ، نرى كل ذلك يحول بعض الشيء دون انجراف الشبيبة في هذه الأُلهيات انجرافاً مؤذياً . أما في بلد أفريقي ، حيث النمو النفسي متفاوت ، وحيث يصطدم عالمان اصطداماً عنيفاً فتتزعزع من ذلك التقاليد القديمة تزعزعاً كبيراً ويتفكك عالم الادراك ، فان عواطف الفتى الأفريقي وحساسيته يخضعان لهجمات الحضارة الغربية ويتأثران بها تأثراً كبيراً ، وكثيراً ما تعجز أسرة الفتى عن محاربة هذه الاندفاعات العنيفة بالاستقرار والتجانس .

يجب ان يعمل الشباب :

ففي هذا المجال يجب على الحكومة أن تكون مصفاة وأن تكون عامل استقرار وصمود. ان قادة " منظمات الشبيبة " في البلاد المتخلفة كثيرا ما يرتكبون خطأ فادحا، اذ يتصورون رسالتهم على غرار رسالة قادة " منظمات الشبيبة " في البلاد المتطورة . انهم يتكلمون على ضرورة تقوية النفس ، وتربيه الجسم ، وخلق الصفات الرياضية. وعندنا ان على هؤلاء القادة أن يعزفوا عن هذا المفهوم الخاطىء . ان شبيبة البلد المتخلف شبيبة عاطلة عن العمل في كثير من الاحيان، فيجب شغلها بالعمل أولا وقبل كل شيء . لذلك يجب أن يكون قادة منظمات الشبيبة تابعين لوزارة العمل . ووزارة العمل التي هي حاجة ماسة في البلاد المتخلفة يجب أن تكون على تعاون وثيق مع وزارة التخطيط التي هي حاجة ماسة أخرى في البلاد المتخلفة . يجب ألا توجه الشبيبة الأفريقية نحو الملاعب الرياضية ، بل نحو الحقول ، نحو الحقول ونحو المدارس . ويجب ألا يكون ملعبهم ذلك المكان المخصص للعرض في المدن ، بل فسحة في طرف من أطراف الأرض التي يحرثونها ويزرعونها ويقدمونها للأمة . ان المفهوم الرأسمالي للرياضة مختلف اختلافاً أساسيا عن المفهوم الذي يجب أن تأخذ به البلدان المتخلفة . يجب على السياسي الافريقي ألا يعنى بخلق رياضيين بل بخلق رجال واعين يكونون من جهة أخرى رياضيين . اذا لم نجعل الرياضة متكاملة مع الحياة القومية أي مع البناء القومي ، اذا نحن خلقنا رياضيين لا رجالا واعين ، فسرعان ما نشهد تفسخ الرياضة لعباً . يجب ألا تكون الرياضة أُلهية تلهو بها بورجوازية المدن . ان المهمة الكبرى التي تقع على عاتقنا هي ان ندرك في كل لحظة ما يحدث في بلادنا . يجب الا ينصرف همنا الى ايجاد الفرد الفذ ، الى خلق البطل ، يجب أن نرفع مستوى الشعب ، أن ننمي عقل الشعب ، أن نجهز الشعب ، أن ننوعه ، أن نجعله انسانياً .

ادخال الجماهير في السياسة :

وها نحن أولاء نعود الى تلك الفكرة الهامة التي نريد أن يعتنقها جميع السياسيين الأفريقيين ، أعني ضرورة تنوير الجهد الشعبي ضرورة تنوير العمل ، وتخليصه من الظلام الذي تراكم عليه عبر التاريخ . ان على من يتحمل مسؤولية الحكم في بلد متخلف أن يدرك أن كل

شيء مرهون أخيراً بتربية الجماهير ، بتثقيف الجماهير ، برفع مستوى تفكير الجماهير ، بما يسمى ادخال الجماهير في السياسة .

وكثيرا ما يظن في خفة وطيش اجرامي ان ادخال الجماهير في السياسة انما يكون بإلقاء خطاب سياسي كبير من حين الى حين . كثيرا ما يظن أنه يكفي أن يتولى الزعيم أو أحد المسؤولين أن يتحدث الى الجماهير. بلهجة متفيهقة متعالمة عن كبريات مشكلات الساعة حتى يكون قد قام بواجبه في مضمار توعية الجماهير وادخالها في الحياة السياسية. ولكن التوعية السياسية انما تعني في الواقع فتح الأفهام ، ايقاظ العقول ، اقحام الاذهان في العالم . انها كما يقول سيزار : " خلق نفوس ". ان ادخال الجماهير في الحياة السياسية لا يكون ولا يمكن أن يكون بالقاء خطاب سياسي ، وانما يكون بالعمل العنيف الدائب على افهام الجماهير ان كل شيء رهن بها ، فإذا ركدنا فهي المسؤولة عن ركودنا واذا تقدمنا فهي المسؤولة ايضا عن تقدمنا ، وأن الشعب هو الخالق ، وأنه ما من رجل شهير يمكن أن يكون مسؤولاً عن كل شيء ، وأن الايدي الساحرة التي تحقق المعجزات انما هي أيدي الشعب . ومن أجل تحقيق هذه الأمور ومن أجل تجسيدها حقاً ، لا بد من الابتعاد عن السيطرة المركزية الى أبعد حد ممكن من الابتعاد . ان الانتقال من القمة الى القاعدة ومن القاعدة الى القمة يجب أن يكون هو المبدأ الصلب الذي نتمسك به أشد التمسك لا من قبيل الحرص على الشكل ، بل لأن التقيد بهذا المبدأ هو الذي يكفل لنا السلامة . فمن القاعدة انما تصعد القوى التي تحرك القمة وتتيح لنا أن نحقق وثبه جديدة . وأعود فأقول اننا معشر الجزائريين قد أدركنا هذه الأمور بسرعة عظيمة ، فما من عضو من اعضاء اية قمة أحتكر لنفسه مهمة تحقيق الخلاص . ان القاعدة هي التي تقاتل في الجزائر، وهذه القاعدة لاتجهل أن القمة لا يمكن أن تصمد الا بما تخوضه القاعدة من كفاح يومي بطولي شاق ، لا ولا تجهل أنه ما لم يكن هناك قمة وما لم يكن هنالك قيادة فان الفوضى والبلبلة ما تلبثان أن تهدما القاعدة. ان القمة لا تستمد قيمتها وقوتها الا من وجود الشعب في ساحة القتال ، بل قل ان الشعب هو الذي يخلق لنفسه قمة ، وليست القمة هي التي تخلق الشعب .

يجب أن تعلم الجماهير أن الحكومة والحزب هما في خدمتها. والشعب الذي يشعر بكرامته ، الشعب الذي يعي كرامته ، لا يمكن أن ينسى هذه الحقائق . لقد قيل للشعب أثناء الاحتلال الاستعماري ان عليه أن يضحي بحياته في سبيل الكرامة . ولكن الشعوب الافريقية سرعان ما أدركت أن كرامتها لايجحدها المحتل فحسب ، سرعان ما أدركت أن هناك تساويا مطلقا بين الكرامه والسيادة . فالشعب الذي يتمتع بالكرامة هو الشعب الذي ينعم بالسيادة . ان الشعب الذي

يتمتع بالكرامة هو الشعب الذي يتحمل المسؤولية . وليس يجديكم أن " تبينوا " أن الشعوب الافريقية كالاطفال أو كضعاف العقول. ان للحكومة والحزب شعبا هوالذي يستحقانه ، وأن للشعب بعد زمن يقصر أو يطول حكومة هي التي يستحقها .

المسؤولية الجماعية

ان التجربة المحسوسة في بعض المناطق تدل على وجود مثل هذه المواقف . ففي أثناء بعض الاجتماعات يتفق لبعض أعضاء الحزب أن يعودوا ، من أجل حل المسائل الصعبة، الى هذه الصيغة : " لا شيء الا ... " وهذا الاختصار القطعي الذي تسيطر عليه العفوية والتبسيطية سيطرة خطرة ولا يقوم على انضاج عقلي هو الذي ينتصر في كثير من الاحيان . فعلينا حين نصادف هذا الصدوف عن المسؤولية لدى عضو من أعضاء الحزب ألا نكتفي بتخطئته ، وانما يجب ان نجعله مسؤولا ، أن ندعوه الى المضي، في تفكيره الى أقصاه ليلمس بأصبعه ما يتصف به هذا القول : " لا شيء الا ... " من قسوة وشراسة ، ومن بعد عن الروح الانسا نية، ومن عقم في آخر الامر. مامن أحد يستأثر بالحقيقة ، لا القائد ولا العضو . ان البحث عن الحقيقة في أوضاع محلية انما هو من شأن الجماعة كلها . قد تكون تجربة بعض الافراد أغنى من تجربة بعضهم الآخر ، قد يكون بعض الافراد أقدر من بعض في سرعة البت في الامور، قد يكون بعض الافراد أوسع من بعضهم نظرة بحكم ما أتيح لهم من خبرة. ولكن على هؤلاء ألا يطغوا على الشعب طغياناً ، لأن نجاح القرار المتخذ متوقف على التزام الشعب كله لهذا القرار التزاما منسجما واعيا . ما من أحد يمكن أن يتنصل من القضية . ان جميع الناس سيُصرعون أو سيعذبون ، وان جميع الناس في إطار الاستقلال سيجوعون وسيشاركون في الفقر والركود .

المتفرجون :

ان المعركة الجماعية تستلزم مسؤولية جماعية في القاعدة ومسؤولية مشتركة في القمة . نعم ، يجب أن نورّط جميع الناس في المعركة حتى نضمن السلامة العامة والخلاص العام . ليس هناك أيدٍ نقية ، ليس هناك أبرياء ، ليس هناك " متفرجون " نحن جميعا بسبيل تلطيخ أيدينا في مستنقعات أرضنا وفي الفراغ الرهيب الذي يرين على عقولنا . كل " متفرج " جبان أو خائن .

القيادة الثورية :

ان من واجب القيادة أن تكون الجماهير معها. والمناصرة تفترض الوعي ، تفترض فهم المهمة التي يجب النهوض بها.، تفترض حدا أدنى من ادراك الأمور ادراكا عقليا. يجب ألا نفتن الشعب ، يجب ألا نغرق الشعب في الانفعال والابهام . ان البلاد المتخلفة التي تقودها صفوة ثورية منبثقة عن الشعب تستطيع وحدها اليوم أن تتيح للجماهير أن تصعد الى مسرح التاريخ . ولكنني أعود فأقول يجب علينا أن نعارض معارضة شديدة حاسمة في نشوء بورجوازية وطنية ، في قيام طبقة من أصحاب الامتيازات. ان أدخال الجماهير في السياسة معناه أن نجعل الأمة كلها حاضرة في كل مواطن ، معناه أن نجعل تجربة الامة تجربة كل مواطن، وكما قال الرئيس احمد سيكوتوري في رسالته التي وجهها الى المؤتمر الثاني للكتاب الافريقيين : " يستطيع الانسان على صعيد الفكر أن يتشوف الى أن يكون دماغ العالم ، أما على صعيد الحياة المحسوسة الملموسة حيث نرى كل عمل يؤثر في الوجود المادي والروحي فان العالم هو دماغ الانسان دائما، اذ على هذا المستوى انما تتجمع القدرات والوحدات المفكرة والقوى المحركة التي تحقق التقدم والكمال، على هذا المستوى انما يتم انصهار الطاقات ويتحقق مجموع القيم الفكرية للانسان ".

الحس القومي لدى الفرد :

ان التجربه الفردية متى كانت قومية، متى كانت خيطاً في نسيج الوجود القومي ، لم تبق فردية محدودة ضيقة، بل تصبح قادرة على أن تطل على حقيقة الامة والعالم . وكما كان كل مقاتل في مرحلة الكفاح يحمل الامة كلها على ذراعيه، فكذلك يجب في مرحلة البناء القومي أن يستمر كل مواطن على أن يرتبط في عمله اليومي المحسوس بمجموع الأمة ، على أن يجسد حقيقة الامة في حركتها، على أن يريد انتصار الانسان هنا والآن . اذا كان بناء جسر لا يغني وعي أولئك الذين يبنون الجسر ، فلا كان الجسر.. وليظل المواطنون يعبرون النهر سباحة أو على قارب .. يجب ألا يهبط الجسر من السماء، يجب ألا ينزل الجسر على المجتمع من أعلى ، بل يجب أن يخرج الجسر من عضلات المواطنين ومن أدمغتهم . صحيح أننا ربما احتجنا الى مهندسين والى معماريين قد يكونون أجانب تماما ، غير أن على المسؤولين المحليين في الحزب أن يعملوا على أن ينفذ التكنيك إلى دماغ المواطن ، بحيث يستطيع المواطن أن يفهم الجسر جملة

وتفصيلا وعلى أن يتصوره ويتبناه . يجب ان يستطيع المواطن أن ينسب الجسر اليه . وعندئذ فقط انما يصبح كل شيء ممكنا .

الجيش الوطني :

ان على حكومة تنادي بأنها قومية أن تحمل مجموع الامة، والشبيبة في البلاد المتخلفة هي أهم قطاعات الأمة ، فيجب أن نرفع مستوى وعي الشبيبة ، يجب ان ننور الشبيبة . وهذه الشبيبة هي التي يجب أن نجدها في الجيش الوطني . فمتى قمنا بالشرح والتنوير على مستوى الشبيبة ، متى حقق " اتحاد الشبيبة الوطني " مهمته ، أعني دمج الشبيبة في الأمة ، كان في وسعنا عندئذ أن نتفادى الأخطاء التي آذت بل خرّبت مستقبل جمهوريات أمريكا اللاتينية . ليس الجندي مدرسة حرب بل مدرسة تنوير للمواطنين ، مدرسة سياسية . ليس الجندي في أمة راشدة جنديا مستأجرا بل هو مواطن يدافع عن الامة بالسلاح . لذلك كان من الامور الاساسية أن يعرف الجندي انه في خدمة بلده لا في خدمة ضابط من الضباط مهما يكن لهذا الضابط من هيبة وتأثير . يجب ان نستفيد من الخدمة الوطنية ، المدنية والعسكرية في رفع مستوى الوعي القومي ، في القضاء على القبلية ، في توحيد الصفوف . ويجب في البلاد المتخلفة أن نعمل بأقصى سرعة ممكنة على تعبئة الرجال والنساء . يجب على البلاد المتخلفة أن تتحاشى الاستمرار على التقاليد الاقطاعية التي تغلب عنصر الرجال على عنصر النساء . يجب ان ينال النساء منزلة كمنزلة الرجال سواء بسواء لا في مواد الدستور بل في الحياة اليومية ، في المصنع ، وفي المدرسة ، وفي المجالس. واذا كانت البلاد الغربية تضع العسكريين في ثكنات ، فليس هذا أحسن الحلول دائما. لسنا مضطرين الى جعل المجندين عسكريين . ان خدة العلم يمكن أن تكون مدنية مثلما يمكن أن تكون عسكرية، ويجب على كل حال أن يكون كل مواطن سليم قادرا على أن ينضم في كل لحظة إلى وحدة من وحدات القتال دفاعا عن المكتسبات القومية والاجتماعية.

ان الانشاءات الكبرى ذات المصلحة المشتركة يجب أن نستطيع تنفيذها بواسطة المجندين . تلكم وسيلة رائعة لتنشيط المناطق الراكدة ، ولاطلاع أ عدد كبير من المواطنين على واقع البلاد. يجب أن نتحاشى تحويل الجيش الى هيئة مستقلة يحملها الفراغ والتعطل وعدم وجود مهمة تضطلع بها على أن ((تعمل في السياسة)) عاجلا أو آجلا . ان جنرالات الصالونات يحلمون بتسلم السلطة من كثرة ما يختلفون الى مكاتب السلطة . والسبيل الوحيد الى تفادي ذلك هي أن نحمل الوعي السياسي الى الجيش، هي أن ندخل الجهيش في حياة الامة . وكذلك يجب أن

نبادر الى مضاعفة الحرس الوطني . فاذا قامت حرب كانت الأمة كلها تقاتل وتعمل. يجب الا يكون هنالك جنود محترفون، ويجب أن نخفض عدد الضباط المحترفين الى أدنى حد ، أولا لأن الضباط ينتقون في أكثر الأحوال من بين صفوف الجامعيين الذين يمكن أن يكونوا أنفع كثيرا في غير هذا المجال : ان الأمة أحوج ألف مرة الى مهندس منها الى ضابط ، وثانيا لأن علينا ان نتحاشى تبلور عقلية طبقية عسكرية . لقد رأينا في الصفحات السابقة أن الدعوة القومية ، هذه الانشودة الرائعة التي أثارت الجماهير على المتسلط الغاشم، تتحلل غداة الاستقلال، لانها لم تكن عقيدة سياسية ولم تكن برنامجا اجتماعيا . فاذا أردنا حقا أن نجنب البلاد أمثال هذه النكسات وهذه الوقفات وهذه التدهورات كان علينا أن نسارع الى الانتقال من الوعي القومي الى الوعي السياسي والاجتماعي . لا وجود للامة الا ببرنامج تنضجه قيادة ثورية وتعتنقه الجماهير اعتناقا قائما على الفهم الواضح والحماسة الثابتة . ويجب علينا دائما أن نضع الجهد القومي في هذا الاطار العام ، اطار البلاد المتخلفة ، يجب أن تكون الجبهات التي نقاتل فيها، جبهة الجوع ، جبهة الجهل، جبهة البؤس، جبهة تأخر الوعي، يجب أن تكون هذه الجبهات ماثلة في أذهان رجالنا ونسائنا وفي عضلاتهم، يجب أن يكون عمل الجماهير وعزمها على تحطيم الحواجز التي أبعدتها عن تاريخ العقل الانسا ني قرونا طويلة ، يجب أن يكون هذا العمل وهذا العزم مرتبطين بعمل وعزم سائر الشعوب المتخلفة . هناك نوع من الجهد الجماعي والمصير المشترك في مستوى الناس المتخلفين . ان الأنباء التي تهم شعوب العالم الثالث ليست هي الانباء التي تتحدث عن زواج الملك بودوان أو عن فضائح البورجوازية الايطالية. ان ما نريد أن نعرفه هو التجارب التي قام بها الارجنتينيون أو البرمانيون في مضمار مكافحة الامية أو محاربة النزعات الدكتاتورية لدى الحكام . تلكم عناصر تقوينا، وتعلمنا، وتضاعف جدوى عملنا . هكذا ترون ان وجود برنامج أمر لا بد منه لحكومة تريد حقا أن تحرر الشعب سياسيا واجتماعيا : هو برنامج اقتصادي، ولكنه أيضا مذهب في توزيع الثروات وفي العلاقات الاجتماعية . فالواقع أنه يجب أن يكون لنا مفهوم عن الانسان، يجب أن يكون لنا مفهوم عن مستقبل الانسانية. معنى ذلك أنه ما من أسلوب ديماغوجي ، وما من تواطؤ مع المحتل القديم يمكن أن يغني عن برنامج . ان الشعوب التي كان ينقصها الوعي ثم أصبحت تسير في طريق الوعي سيراً حثيثاً تطالب بهذا البرنامج مطالبة قوية . ان الشعوب الافريقية، الشعوب المتخلفة، تبني وعيها السياسي والاجتماعي بسرعة كبيرة خلافا لما يُظن .

خطر انفصال الوعي الاشتراكي عن الوعي القومي :

والأمر الذي يمكن ان يكون خطرا هو أن تصل الى هذا الوعي الاجتماعي قبل المرحلة القومية ، لذلك قد نجد في البلدان المتخلفة مطالبة بالعدل الاجتماعي مرتبطة ارتباطا غريبا بقبلية كثيرا ما تكون بدائية. ان سلوك الشعوب المتخلفة هو سلوك أناس جائعين . معنى هذا أن أيام أولئك الذين يتسلون ويلهون في افريقيا هي أيام معدودات. أريد أن أقول ان حكمهم لا يمكن أن يستمر الى غير نهاية . ان البورجوازية التي لا تقدم للجماهير غذاء غير الحماسة القومية مخفقة في تحقيق مهمتها، متورطة حتماً في سلسلة من المزالق والمهالك. انك ما لم تبرز مضمون الدعوة وتعمقها، وما لم تحلها بسرعة الى وعي سياسي واجتماعي، الى تطلع انساني ، كانت تسير في طريق مسدودة غير نافدة. ان القيادة البورجوازية في البلاد المتخلفة تحيل الشعور القومي الى شكلية عقيمة. لا شيء غير انخراط الرجال والنساء في القيام باعمال نيّرة خصبة يمكن أن يبث في هذا الشعور القومي مضمونا وان يهب له كثافة . وعندئذ لا يظل العلم الوطني وقصر الحكومة هما الرمزين اللذين يمثلان الامة ، وانما تهجر الامة هذه الاماكن المضاءة بالأنوار، هذه الاماكن الاصطناعية، وتمضي الى الارياف تستمد منها الحياة والحركة. ان التعبير الحي من الامة انما هو الوعي الذي يحرك مجموع الشعب، هو العمل المتسق النيّر يندفع فيه الرجال والنساء. ان تولي الجماعة بناء مصيرها هو تحمل مسؤولية على مستوى التاريخ . والا فثمّ الفوضى ، والقمع ، وظهور الأحزاب القبلية ، وظهور الدعوة الفدرالية ، وما الى ذلك .

الحكم بالمحرومين ومن أجل المحرومين :

على الحكومة القومية، اذا هي ارادت أن تكون قومية، ان تحقم بالشعب ومن أجل الشعب ، أن تحكم من اجل المحرومين وبالمحرومين . ما من زعيم، مهما تكن قيمته، يمكن أن يحل نفسه محل الارادة الشعبية. وعلى الحكومة القومية، قبل أن تُعنى بمهابتها الدولية، أن ترد الكرامة الى كل مواطن، أن تجهز العقول، ان تملأ الأعين باشياء انسانية ، ان تملأ الأفق بمنظر انساني، انساني لانه يسنه اناس سادة واعون .

في الثقافة القومية

" ليس يكفي أن تؤلف أغنية ثورية حتى تشارك في الثورة الافريقية، وانما ينبغي ان تصنع هذه الثورة مع الشعب. مع الشعب ثم تأتي الاغاني من تلقاء ذاتها .

من اجل أن تؤثر تأثيرا صادقا، يجب أن تكون أنت نفسك جزءا حيا من أفريقيا وفكرها ، يجب أن تكون عنصرا من عناصر هذه الطاقة الشعبية المجندة كلها لتحرير أفريقيا وتقدمها وسعادتها . ليس هناك أي مكان في خارج هذه المعركة . لا للفنان ولا للمثقف الذي ليس منخرطا هو نفسه وليس معبأ كله مع الشعب ، في المعركة الكبرى التي تخوضها أفريقيا والانسانية المعذبة "

سيكوتوري

لا بد لكل جيل أن يكتشف رسالته وسط الظلام ، فاما أن يحققها واما أن يخونها . والاجيال السابقة في البلدان المتخلفة قد قامت بعملين في آن واحد : قاومت أعمال الاستنزاف التي تابعها الاستعمار ، وهيأت نضج الكفاح الذي نخوضه الآن . فيجب علينا ونحن في قلب المعركة أن نقلع عن تلك العادة التي تعودناها وهي ان نبخس الأعمال التي قام بها آباؤنا حقها ، وأن نتعجب من صمتهم أو سلبيتهم . فالحق أن آباءنا قد ناضلوا كما استطاعوا ، ناضلوا بالاسلحة التي كانوا يملكونها ايامئذ ، واذا لم تترجع أصداء نضالهم على المستوى الدولي ، فليس مرد ذلك الى نقص بطولتهم بل إلى أن الظرف الدولي في ذلك العهد يختلف عن الظرف الدولي الحالي اختلافا كبيرا . لقد كان لا بد أن يقول أكثر من مستعمَر : " لا يمكن أن يدوم هذا الوضع " ، وكان لا بد ان تقوم أكثر من قبيلة بعصيان ، وكان لا بد أن تُخمد أكثر من ثورة ، وأن تقمع أكثر من مظاهرة ، كان لا بد من ذلك كله حتى نستطيع نحن اليوم أن نقوم بكفاحنا مؤمنين بالنصر .

ان مهمتنا التاريخية ، نحن الذين قررنا أن نمزق أحشاء الاستعمار ، هي أن نرتب جميع الثورات وجميع الاعمال المستميتة وجيع المحاولات التي أجهضت أو غرقت في الدم .

وسأحلل في هذا الفصل تلك المسألة التي نشعر أنها أساسية ، أعني مشروعية المطالبة بانشاء امة . يجب أن نعترف أن الحزب السياسي الذي يعبىء الشعب لا يُعنى كثيرا بمسألة المشروعية هذه. فالاحزاب السياسية تنطلق من الواقع الحي المعيش، وهي باسم هذا الواقع ، باسم هذا الواقع الراهن الذي يجثم على الحاضر والمستقبل، انما تدعو الى العمل. قد يتحدث الحزب السياسي عن الأمة بعبارات تؤجج العاطفة ، ولكن الشيء الذي يهمه هو أن يفهم الشعب الذي يسمع حديثه ضرورة المشاركة في المعركة اذا هوكان يطمح الى الوجود والبقاء .

المطمح القومي :

لقد أصبحنا نعرف الآن أن الاستعمار، في المرحلة الأولى من مراحل الكفاح الوطني ، يحاول أن يشل المطمح القومي ، باسباغ طابع اقتصادي عليه ، فتراه منذ بزوغ المطالب الأولى يتظاهر بالفهم ويعترف في تواضع مسرحي بأن البلاد تشكو من تخلف خطير ويوجب بذل جهد اقتصادي واجتماعي كبير .

حتى ليحدث في الواقع أن يتخذ الاستعمار بعض الاجراءات الخداعة ، كفتح ورشات لتشغيل العاطلين هنا وهناك ، فإذا بهذه الاجراءات تؤخر تبلور الوعي القومي بضع سنين . ولكن الاستعمار يدرك عاجلا أو آجلا أنه ليس في وسعه أن يحقق اصلاحات اقتصادية اجتماعية يمكن أن ترضي مطامح الجماهير المستعمَرة . فحتى على مستوى البطن يبدو الاستعمار عاجزا عجزا راسخا. وسرعان ما تدرك الدولة الاستعمارية أن اسكات الاحزاب الوطنية في المجال الاقتصادي الصرف سيوجب عليها أن تفعل في المستعمرات ما لم تشأ أن تفعله في أراضيها نفسها . وليس من قبيل المصادفة أن نرى النظرية الكارتييرية تزدهر اليوم بعض الازدهار في كل مكان .

ان المرارة التي شعر بها كارتييه ازاء اصرارفرنسا على أن تربط بها أناسا يجب عليها أن تطعمهم في حين أن كثيرا من الفرنسيين يعيشون في حالة اعسار ، ان تلك المرارة تظهر عجز الاستعمار عن أن يصبح برنامجا مجردا عن المنفمة للمعونة والمساعدة . لذلك أعود فأقول ان علينا ألا نضيع وقتنا في ترديد ذلك الشعار القائل ان الجوع مع الكرامة خير من الخبز مع العبودية. فانما يجب أن نقتنع بأن الاستعمار عاجز عن أن يوفر للشعوب المستعمَرة الظروف المادية التي يمكن أن تنسيها اهتمامها بالكرامة . وكلما فهم الاستعمار الى أين يمكن أن يجره أسلوب الاصلاحات الاجتماعية رأيناه يعود الى طرائقه السابقة ، فيعزز قوى الشرطة ، ويرسل فرق الجيش، ويقيم نظاما ارهابيا يتلاءم مع مصالحه و نفسيته تلاؤما أكمل .

اننا نرى بين رجال الاحزاب السياسية حينا، وعلى موازاة هذه الاحزاب أحيانا، أناساً من أهل الثقافة المستعمَرين يتخذون المطالبة بحضارة قومية والبرهان على وجود هذه الحضارة القومية ميدانا لمعركة مفضلة. فبينما نجد السياسيين يتخذون الواقع الراهن ميدانا لعملهم ، نرى رجال الثقافة هؤلاء يضعون نشاطهم في إطار التاريخ . ومن الملاحظ أن الاستعمار لا يهتم كثيرا بالرد على المثقف المستعمَر الذي قرر أن يفند تفنيداً عنيفاً النظرية الاستعمارية القائلة ان الهمجية هي التي كانت تسود المستعمَرات قبل استعمارها ، ولاسيما أن الأفكار التي تقول بها الطبقة المثقفة المستعمَرة الناشئة يقول بها المختصون الأوروبيون أنفسهم على نطاق واسع ، فإن عدداً كبيرا من الباحثين الأوروبيين قد أخذوا منذ عدة قرون من السنين يحاولون ، على وجه الاجمال ، أن يردوا الاعتبار الى حضارات افريقيا والمكسيك وبيرو . وقد استغرب بعضهم الحماسة الشديدة التي يظهرها المثقفون المستعمَرون في الدفاع عن وجود حضارة قومية. ولكن الذين يستنكرون هذه الحماسة المتأججة ينسون أن نفسيتهم ، أن ذواتهم تعتصم مرتاحة وراء حضارة فرنسية أو ألمانية برهنت على نفسها ولا يستطيع أحد أن يجحدها .

الماضي وسيلة لبعث الحاضر :

واني لأسلّم بأن وجود حضارة أزتكية قديمة ليس له ، على صعيد الحياة ، كبير شأن ، فهو لايبدل شيئا من النظام الغذائي الذي يعيش عليه الفلاح المكسيكي اليوم . وأني لأسلم أيضا بأن جميع البراهين التي يمكن الإتيان بها على أن حضارة سونغائية رائعة قد قامت في الماضي لا تبدل شيئا من الواقع الذي يعيشه شعب سونغاي اليوم ، وهو أن أفراد هذا الشعب لاينالون نصيبهم من الغذاء، ولا يعرفون القراءة والكتابة، وأنهم مقيمون بين السماء والماء قد فرغت رؤوسهم وفرغت أعينهم . ولكن سبق أن قلنا غير مرة ان هذا البحث المحموم عن حضارة قومية سابقة على العهد الاستعماري انما يستمد مشروعيته من حرص المثقفين المستعمَرين على أن يبتعدوا قليلا الى الوراء أمام الحضارة الغربية التي يهمون أن يغوصوا فيها . ان هؤلاء الرجال يشعرون بأنهم يوشكون أن يفقدوا أنفسهم ، وان يفقدهم شعبهم ، فتراهم يندفعون اندفاعا عنيفا ، وقد تأججت قلوبهم وطاشت عقولهم ، الى الاتصال بأقدم ينابيع شعبهم ، بأبعدها عن عهد الاستعمار .

ولنوغل في التحليل أكثر من ذلك . ان هذه الحماسة الشديدة وهذا التأجج المحموم ربما كان يغذيها أو يوجهها على الأقل ذلك الأمل الخفي الذي يقوم في نفوس هؤلاء المثقفين ، وهو أن يكتشفوا وراء البؤس الراهن ، وراء هذا الاحتقار للذات ، وراء هذا الانسحاب وهذا الانكار ، عصرا

جميلا جدا ساطعا جدا يرد الينا الاعتبار في نظر أنفسنا وفي نظر الآخرين معاً . أقول أنني أردت أن أوغل في التحليل : لعل المثقفين المستعمَرين قد أرادوا ، لا شعورياً ، حين رأوا أنهم لا يستطيعون أن يحبوا التاريخ الراهن الذي تعيشه شعوبهم المضطهَدة ، ولا أن يعجبوا بتاريخ همجياتهم الحالية ، أرادوا أن يذهبوا الى أبعد من ذلك ، أن يهبطوا الى أعمق من ذلك ؛ ويجب ألا نشك أبداً في انهم حين اكتشفوا أن الماضي لم يكن عاراً بل كرامة ومجدا وعظمة قد شعروا بنشوة لا تدانيها نشوة . ان البرهان على وجود حضارة قومية قديمة ، لا يرد الاعتبار فحسب ، لا يدل على أن حضارة قومية جديدة ستقوم في المستقبل فحسب وانما هو ايضا ، على صعيد التوازن النفسي العاطفي ، يحقق للمستعمر وثبة كبيرة . لعل الباحثين لم يوضحوا توضيحا كافيا الى الآن كيف أن الاستعمار لا يكتفي بفرض قانونه على حاضرة البلاد المستعمَرة وعلى مستقبلها، ولا يكتفي بتكبيل الشعب، ولا يكتفي بأن يفرغ عقل المستعمَر من كل شكل وكل مضمون، بل هو يتجه أيضا الى ماضي الشعب المضطهَد فيحاول بنوع من فجور المنطق أنيهدمه وان يشوهه وان يبيده . ان هذه المحاولة التي يحاولها الاستعمار اذ يجرد تاريخ البلاد المستعمَرة ، السابق على الاستعمار، من كل قيمة ، انما تتخذ اليوم دلالتها الجدلية .

اننا اذا فكرنا في الجهود التي بُذلت من أجل تحقيق الضياع الحضاري الثقافي الذي يتميز به العهد الاستعماري، أدركنا أنه ما من شيء تم، مصادفة، وأن النتيجة الكلية التي ابتغتها السيطرة الاستعمارية هي أن تقنع السكان الاصليين بأن الاستعمار قد انتشلهم من الظلام . ان النتيجة التي سعى اليها الاستعمار سعيا واعيا هي أن يدخل في روع السكان الاصليين أن رحيل المستوطن الاوروبي سيردهم الى الهمجية والوحشية والحيوانية. فالاستعمار لم يكن يحاول اذاً أن يجعل السكان الاصليين ينظرون اليه نظرتهم الى أم تترفق بهم وتعطف عليهم وتحاول أن تحمي أطفالها من بيئة ضارة ، بل نظرتهم الى أم تعمل بغير انقطاع على أن تمنع طفلا فاسد التكوين من أن يؤذي نفسه وأن يستطيع الانتحار، وأن ينجرف مع غرائزه الخبيثة . ان هذه الام المستعمِرة تحمي الطفل من نفسه ، من ذاته ، من تكوينه د الفزيولوجي، من تكوينه البيولوجي، من شقائه الوجودي .

وفي مثل هذا الظرف لا يكون مطمح المثقف المستعمَر ترفاً كمالياً بل ضرورة عملية منسجمة. ان المستعمَر الذي يضع معركته على مستوى المشروعية، الذي يريد أن يأتي ببراهين ، الذي يرتضي أن يعرّي جسمه في سبيل أن يعرض تاريخ جسمه عرضاً أصح ، انما هو محمول حملا على الغوص في اعماق شعبه .

وليس هذا الغوص قوميا فحسب. ان المثقف المستعمِّر الذي يقرر أن يعلن الحرب على الاكاذيب الاستعمارية، انما يخوض المعركة على مستوى القارة كلها . انه يحاول أن يظهر قيمة الماضي بالنسبة الى جميع الشعوب الافريقية. ان الحضارة التي ينتزعها من غياهب الماضي لينشرها بكل ما فيها من روعة وسناء ، ليست حضارة وطنه وحده . ان الاستعمار لم يفرق في جهوده التي بذلها في هذا المضمار بين بلد وبلد ، وانما أكد دائما أن الزنجي متوحش، والزنجي عنده ليس هو الانغولي أو النيجري، وانما هو الزنجي عامة على إطلاق القول . لقد تحدث الاستعمار عن " الزنجي " . قال ان هذه القارة الواسعة هي مرعى متوحشين ، بلد موبوء بالخرافات والتعصب، بلد منحط محتقر ملعون من السماء ، بلد يسكنه أكلة لحوم البشر، بلد زنوج . ان الاحتقار الذي يمحضنا إياه الاستعمار يتناول القارة الأفريقية كلها . ان قول الاستعمار ان العهد السابق عليه كان ظلاما وهمجية ووحشية يشمل مجموع القارة الافريقية . فمن المنطقي والحالة هذه أن تتم الجهود التي يبذلها المستعمَر في سبيل استرداد اعتباره وفي الإفلات من هذا الشتم الذي يكيله له الاستعمار، من المنطقي أن تتم هذه الجهود على النطاق الذي يتناوله الاستعمار نفسه . فالمثقف المستعمَر الذي وعى ثقافة الغرب وقرر أن ينادي بوجود حضارة قومية، لن يفعل ذلك باسم أنغولا أو باسم داهومي ، بل ستكون الحضارة التي يؤكد وجودها هي الحضارة الافريقية عامة . ان الزنجي الذي لم ينقطع يوما عن أن يكون زنجيا منذ تسلط عليه الأبيض ، لا بد أن يدرك حين يقرر أن يبرهن على ثقافة وحين يقرر أن يصنع حضارة ، لابد أن يدرك أن التاريخ يفرض عليه أفقا معينا، ويدله على طريق معينة ، وأن عليه أن يظهر حضارة زنجية .

ولا مشاحة في أن المسؤولين عن اضفاء هذا الطابع العرقي على الفكر أو على الخطوات التي خطاها الفكر انما هم الاوروبيون . ان الاوربيين هم المسؤولون عن هذا، وسيظلون مسؤولين عنه لانهم هم الذين ظلوا وما يزالون يقابلون بين حضارة البيض وبين اللاحضارات الاخرى . لقد رأى الاستعمار أن عليه ألا يضيع وقته في انكار حضارات الامم الافريقية فرادى، واحدة بعد أخرى .، وانما أنكرها كلها دفعة واحدة ، لذلك كان رد المستعمَر عليه يشمل القارة بأسرها كذلك . ان أدب البلاد المستعمَرة الذي ظهر في افريقيا في السنين العشرين الاخيرة ليس أدباً قوميا بل هو أدب زنجي . وما هذا الاعتزاز بالانتماء الى الادب الزنجي الا الرد العاطفي، ان لم يكن المنطقي، على الاهانة التي يلحقها الانسان الابيض بالانسانية . ان مثقفي غينيا أو كينيا الذين وجدوا أنفسهم عرضة لتعصب عرقي شامل، ولاحتقار منظم يمحضهم اياه المستعمِر المتسلط قد رلوا على ذلك بالزهو بانفسهم والتغني بذواتهم . لقد تباهى الغرب بالحضارة الاوروبية بغير تحفظ ،

فأعقب ذلك أن تباهى الافريقيون بالحضارة الافريقية بغير تحفظ أيضا، فرأينا الشعراء الذين يتغنون بالانتماء الى الزنج يقابلون بين أوروبا التي دبت فيها الشيخوخة وبين افريقيا الفتية، بين العقل المضجر وبين الشعر ، بين المنطق الخانق وبين الطبيعة المنطلقة المتدفقة، بين التجمد والاحتفالات والبروتوكول والريبية وبين صفاء القلب والاندفاع والحرية والفيض والغزارة.

ولا يردد المتغنون بالزنج عن تجاوز حدود القارة الافريقية. وها هي ذي أصوات زنجية من أمريكا تتلقف النشيد وتزيده سعة وقوة . سيبزغ فجر " العالم الزنجي ". وهؤلاء هم بوزيا الغاني، وبيراغو ديوب السنغالي، وهامباتي السوداني، وسان كلير دراك الشيكاغوي، يؤكدون في غير تردد، وجود صلات مشتركة واتجاهات واحدة .

ونستطيع أن نضرب هنا مثالا بالوطن العربي أيضا. انكم تعرفون أن القسم الاكبر من الاراضي العربية قد شملته السيطرة الاستعمارية. وقد بذل الاستعمار في هذه المناطق جهودا كبيرة من أجل أن يرسّخ في عقول أهلها أن تاريخهم السابق على الاستعمار تاريخ تسوده الهمجية. فرأينا كفاح التحرير القومي مصحوبا بظاهرة ثقافية تُعرف باسم يقظة العرب : رأينا الكتاب العرب يتحمسون أشد التحمس لتذكير شعوبهم بالصفحات الرائعة من تاريخهم ، رداً على أكاذيب المستعمِرين، فهم يستعرضون أسماء عظماء الادب العربي، ويُشهرون تاريخ الحضارة العربية بعنف وقوة كما فعل الافريقيون بشأن الحضارات الافريقية ، ورأينا القادة العرب يحاولون بعث تلك الحضارة الشهيرة، حضارة العرب ، التي سطعت سطوعا عظيما في القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر .

واذا نحن أردنا أن نعرف من خلال آثار الكتاب المستعمَرين المراحل المختلفة التي يقطعها هذا التطور ، رأينا أمام أعيننا مشهدا ذا ثلاثة أزمان . ففي مرحلة أولى يبرهن المثقف المستعمَر على أنه قد هضم ثقافة المستعمِر المحتل فآثاره توازي آثار أمثاله الغربيين خطوة خطوة ، وإلهامه أوروبي، حتى ليمكن بسهولة أن تُربط هذه الآثار بتيار معين من تيارات الادب الغربي . هذه هي مرحلة التمثل الكامل، وأثناء هذه المرحلة نجد بين الادباء المستعمَرين برناسيين، ورمزيين ، وسرياليين

وفي مرحلة ثانية يهتز المستعمَر ويقرر ان يتذكر نفسه . وهذه المرحلة من الخلق تقابل على وجه التقرب خطوة الفوضى التي وصفناها منذ قليل . ولكن لما كان المثقف المستعمَر غير متغلغل في شعبه ، لما كانت علاقاته بشعبه علاقات خارجية ، فانه في هذه المرحلة لا يزيد على أن

يتذكر. انه الآن ينتشل من أعماق ذاكرته مشاهد قديمة من طفولته ، ويعود الى أساطير عتيقة فيحاول اعادة تأويلها على ضوء استطيقا مستعارة، على ضوء فلسفة في العالم وُضعت تحت سماء غيرهذه السماء . وهذا الادب السابق على المعركة يكون في بعض الاحيان أدب سخرية ورمز . هذه مرحلة قلق، مرحلة انزعاج، مرحلة يعاني فيها الاديب تجربة الموت ، وتجربة الغثيان أيضا. انه يتقيأ ، ولكن الضحك ينطلق ها هنا خفية من تحت .

وفي مرحلة ثالثة، مرحلة أخيرة تسمى مرحلة المعركة ، نرى المثقف المستعمَر بعد أن حاول أن يغرق في الشعب، يعمد الى عكس ذلك، فهو الآن يهز الشعب . انه الآن بدلاً من أن يغفو غفوة الشعب، يستحيل الى موقظ للشعب . انه الآن ينتج أدب معركة ، ينتج أدبا ثوريا، أدبا قوميا. وفي أثناء هذه المرحلة نج عددا كبيرا من الرجال والنساء الذين لم يخطر ببالهم يوما أن ينشئوا أثرا أدبيا، يحسون فجأة حين يوضعون في ظروف استثنائية، حين يوضعون في السجن مثلا أو حين تقرر السلطات تنفيذ حكم الاعدام فيهم ، يحسون أن عليهم أن يعبروا عن أمتهم ، أن يكتبوا الجملة التي تفصح عن شعبهم، أن يكونوا الناطقين بلسان واقع جديد يتحقق .

وفي أثناء ذلك يدرك المثقف عاجلاً أو آجلا أن المرء لا يبرهن على وجود أمته بثقافة ، بل يخوض المعركة التي يخوضها الشعب ضد قوى الاحتلال . ما من استعمار يبرهن على مشروعيته بكون البلاد التي يحتلها ليس فيها ثقافة. انك لن تُخجل الاستعمار حين تنشر أمام بصره الكنوز الثقافية المجهولة . ان المستعمَر المثقف حين يهمه أن يضع أثراً أدبيا ينسى أن التكنيك الذي يستعمله واللغة التي يكتب بها انما هما مستعاران من المستعمِر المحتل ؛ ويكتفي بأن يكسو هذه الادوات بثوب يريد له أن يكون قوميا، ولكنه كالادب الغربي الذي يتكلم عن البلاد الاخرى، ان المثقف المستعمَر الذي يعود الى شعبه بواسطة مؤلفات أدبية انما يتصرف في الواقع تصرف أجنبي . وهو في بعض الاحيان لا يتردد عن الكتابة بلهجات محلية اظهارا لرغبته في أن يكون قريبا من الشعب الى أقصى حد ممكن ، ولكن الافكار التي يعبر عنها والمشاغل التي تسكنه لا صلة بينها وبين الظرف المحسوس الذي يعيش فيه الرجال والنساء في بلاده . ان الثقافة التي يعكف عليها المثقف المستعمَر ليست في أكثر الأحيان الا مجموعة من التفردات . لقد أراد أن يلتصق بالشعب، فاذا هو يلتصق بمظهره المنظور. وليس هذا المظهر في الواقع الا انعكاس حياة داخلية خفية كثيفة ما تنفك في حركة وتجدد. ان المظهر الموضوعي الذي يخطف البصر ويبدو مميزا للشعب ليس في حقيقة الأمر الا ثمرة جامدة منكرة منذ الآن ، لتكيفات متعددة ، غير منسجمة دائما ، حققها جوهر أساسي هو الآن في حركة تجددية قومية . فالمثقف بدلاً من أن يمضي باحثا عن ذلك

الجوهر تراه يُفتن بهذه المزق المحنطة التي كان ينبغي أن يدفعه تجمدها الى الانكار والتجاوز والابتكار. ينبغي أن تشف الثقافة عن الاعمال ، وأن تبتعد عن النظرة التبسيطية. ان الثقافة هي في جوهرها نقيض العادات الجامدة التي ليست الا حطام الثقافة . فاذا أردت أن تلتصق بالتقاليد أو أن تحيي التقاليد البالية كنت تعاكس تيار التاريخ بل كنت تعاكس شعبك . حين يخوض شعب من الشعوب كفاحا مسلحا، أو حتى كفاحا سياسيا ضد استعمار غاشم ، فإن التقاليد تتبدل دلالتها . وما كان اسلوبا للمقاومة يمكن الآن أن يُدان ادانة جذرية . ان التقاليد في بلد متخلف مكافح ، ليست ثابتة بل متحركة ما تنفك تشقها تيارات متجهة الى المنبع . لذلك فإن المثقف كثيرا ما يوشك أن يقف في وجه الزمن. ان الشعوب التي خاضت غمار الكفاح تنفر من الديماغوجية شيئا بعد شيء، ويصبح من المستحيل أن تؤثر فيها الديماغوجية. فاذا أسرفت في ممالأتها فسرعان ما تكتشف فيك ائتهازيا رخيصا بل عائقا يعرقل تقدمها.

لننظر الى الفنون التشكيلية مثلا. ان الفنان المستعمَر الذي يريد أن يضع أثراً قوميا مهما كلف الأمر يفرض على نفسه أن ينقل التفاصيل نقلا جامدا . ان أولئك الفنانين الذين تعمقوا التكنيك الحديث وشاركوا في كبرى تيارات التصوير الحديث أو العمارة الحديثة، يديرون الآن ظهورهم للثقافة الاجنبية و ينكرونها ، ويفضلون ، في بحثهم عن الطابع القومي الحقيقي، ما يحسبون أنه المقوّمات الثابتة في الفن القومي . ولكن هؤلاء الخالقين ينسون أن أشكال التفكير ، وأنواع الغذاء، والاساليب الحديثة في الاعلام واللغة والملبس قد طوّرت دماغ الشعب، وأن المقومات الثابتة التي كانت سياجا حارسا في عهد الاستعمار تعاني الآن طفرات جذرية هائلة.

ان ذلك الفنان الذي يقرر أن يصف الحقيقة القومية، يتجه صوب الماضي، صوب ما ليس له وجود راهن . والحق أن ما يصوره عندئذ انما هو فضلات الفكر، انما هو الظاهر الخارجي، انما هو الجثث الميتة، انما هو المعرفة المحنطة. يجب على المثقف المستمعَر الذي يربد أن يصنع أثراً أصيلا صادقاً أن يدرك أن الحقيقة القومية انما هي الواقع القومي أولاً وقبل كل شيء . ان عليه أن يغوص الى المنبع الفوار الذي تتهيأ فيه صورة المعرفة الجديدة .

لقد كان المصوّر المستعمَر لا يحس قبل الإستقلال مشهد الحياة القومية، فكان يؤثر الفن الذي لا يمثل شيئا، أو كان في أكثر الاحيان ينصرف الى تصوير الطبيعة الصامتة. حتى اذا جاء عهد الاستقلال، رأينا حرصه على الالتحاق بالشعب أصبح يحمله على أن ينقل الواقع القومي نقلا دقيقا، نقلا لا ايقاع فيه ، نقلا هادئاً ، ساكناً، جامداً ،، لا يذكرّ بالحياة بل بالموت. واذا أخذت

الاوساط المثقفة تسكر أمام الحقيقة التي صوَرها الفنان تصويراً أميناً ، فان من حقنا أن نتساءل هل هذه الحقيقه واقعية ، أم أن الملحمة التي من خلالها يشق الشعب لنفسه طريقاً نحو التاريخ قد تجاوزت تلك الحقيقة، ونفتها، وأعادت النظر فيها.

ونستطيع أن نقول هذه الملاحظات نفسها بصدد الشعر. فبعد المرحلة التي تمثل فيها الشعراء الوطنيون الشعر الغربي الذي يلتزم القافية ، ظهر الايقاع الشعري الذي يستلهم الموسيقا الشعبية (تم. تم). ولكن يجب أن يفهم الشاعر أن لا شيء يمكن ان ينوب عن الأنضمام الى صفوف الشعب انضماماً عقليا لاينكص .

نعم ان أول واجب يقع على عاتق الشاعر المستعمَر هو أن يحدد، بوضوح ، الشعب الذي هو موضوع ابداعه . وليس في وسعه أن يتقدم في عزم الا اذا وعى أولاً ضياعه . لقد أخذنا كل شيء عن الجهة الأخرى . ومن المحقق أن هذه الجهة الاخرى لا تعطينا شيئا الا اذا استطاعت بألف حيلة أن تعطفنا الى اتجاهها ، الا اذا استطاعت بألف مخاتلة ، بمائة ألف مراوغة، أن تجذبنا ، أن تسجننا. متى أخذنا فقد أصبحنا مأخوذين ، على مستويات كثيرة . فليس يكفي اذاً أن نفك أنفسنا بالمطالبة تلو المطالبة والانكار بعد الانكار . ليس يكفي أن نلحق بركب الشعب في ذلك الماضي الذي لم يبق له وجود، بل ينبغي أن نلحق بركب الشعب في هذه الحركة المقاتلة التي شرع يقوم بها، والتي ستفضي فجأة إلى اعادة النظر في كل شيء. الى ذلك الموضع من التحرك المختبىء ، الى ذلك الموضع الذي يقيم فيه الشعب، انما يجب أن ننتقل، فهنالك ولاشك انما تتكون روح الشعب، ويضيء ادراكه ويتوهج الهامه .

فجر إفريقي

(موسيقا قيثارة)

كان ذلك عند طلوع الفجر . القرية الصغيرة التي رقصت طوال نصف الليل على أصوات الطبل ، أخذت تستيقظ شيئاً فشيئاً . الرعاة الذين يرتدون اسمالا بالية وينفخون في الناي ، يسوقون قطعانهم في الوادي . الصبايا اللواتي يتسلحن بطيور الكناري يدلف بعضهن وراء بعض في الممر المتعرج الذي يفضي الى النبع . وفي فناء بيت الشيخ ترتل طائفة من الصبية آيات من القرآن .

(موسيقا قيثارة)

كان ذلك عند طلوع الفجر. النهار يصارع الليل . ولكن الليل قد نضبت قواه، فهو ينسحب على هون . أشعة قليلة من الشمس تظهر في الأفق طلائع لهذا النصر الذي يفوز به النهار، طلائع بطيئة وجلى شاحبة ، و النجوم الأخيرة تنسحب في رفق وراء الغيوم أشبه بشعل ملتهبة من أزهار .

(موسيقا قيثارة)

كان ذلك عند طلوع الفجر . هناك في آخر السهل الواسع الذي يحف به الارجوان، كان رجل منحنياً على الارض يعزقها : انه نعمان، الفلاح . فكلما هوى بفأسه على التراب طارت العصافير مذعورة، ومضت تحط بخفق الجناح على الضفاف الهادئة من نهر نيجر العظيم . سروال نعمان، المنسوج من قطن، المخضل بالندى ، يصفع العشب على الجانبين. ونعمان يتصبب عرقه، ولكنه لا يتعب ، لا يعرف التعب سبيلا اليه، وما ينفك يقوم وينحني، هاوياً بفأسه على الأرض في حذق ومهارة . ذلك أن عليه أن يدفن بذوره في التراب قبل ان تمطر السماء من جديد .

(موسيقا بوق)

كان ذلك عند طلوع الفجر . الطيور تتواثب بين أوراق الشجر مؤذنة بالنهار . وعلى السهل المبتل كان يركض طفل صغير ، معلقا جعبة سهامه على كتفيه ، متجهاً الى نعمان ، لاهثاً ، ينادي : " أيها الأخ نعمان ، رئيس الضيعة يطلب أن يجتمع بك تحت الشجرة " .

(موسيقا بوق)

دهش الفلاح من استدعائه في الصباح المبكر، ووضع فأسه على الأرض ثم مضى الى القرية التي أصبحت تتلألأ الآن بأشعة الشمس الطالعة. كان " المحاربون القدماء " قد بدؤوا اجتماعاتهم وظهرت في وجوههم امارات الجد والوقار. والى جانبهم رجل يرتدي ملابس عسكرية قد جلس هادئاً يدخن غليونه.

(موسيقا بوق)

جلس نعمان على جلد خروف. ونهض رئيس القرية ليبلغ المجلس ارادة المحاربين القدماء : " لقد أرسل البيض رسولاً يطلب بلسانهم أن يمضي رجل من رجال القرية الى الحرب في بلادهم . وتشاور وجوه القرية في الأمر فاستقر رأيهم على أن يختاروا لهذه المهمة فتى هو بين فتيان بلادنا أشجعهم ، حتى يبرهن في معركة البيض على ما امتاز به رجالنا دائماً من بسالة واقدام . "

(موسيقا قيثارة)

ان نعمان الذي تشيد الفتيات كل ليلة بقوامه المهيب وعضلاته القوية هوالفتى الذي وقع عليه الاختيار. اضطربت زوجته الحلوة ، قاصية، أشد الاضطراب، فانقطعت عن الدق، ووضعت جرنها تحت النبر، ولزمت حجرتها تبكي شقاءها نشيجاً مخنوقاً . لقد خطف الموت زوجها الاول، وهي لا تستطيع ان تتصور ان يخطف البيض زوجها الثاني الذي تستريح عليه جميع آمالها الجديدة .

(موسيقا قيثارة)

في الغداة، رغم دموعها وآهاتها، قرعت طبول الحرب تشيّع نعمان الى مرفأ القرية الصغير، حيت إستقل قارباً الى مركر المنطقة . فلما جاء الليل لم ترقص الصبايا في ساحة القرية على عادتهن، بل جئن الى كوخ نعمان يتجاذبن أطراف القصص حتى الصباح حول نار الحطب.

(موسيقا قيثارة).

انقضت عدة شهور ولا نبأ من نعمان . بلغ القلق بقاضية الصغيرة أنها لجأت إلى ساحر القرية المجاورة تستفتيه. وتحدث الشيوخ أنفسهم في الامر حديثاً قصيراً لم يتسرب منه الى احد شيء.

(موسيقا بوق)

ووصلت اخيرا الى القرية رسالة من نعمان بعثها الى قاضية. فما كان من قاضية التي كان مصير زوجها يؤرقها، الا أن ذهبت في تلك الليلة نفسها إلي مركز المنطقة ، بعد ساعات شاقة من السير على الاقدام، ومضت الى مترجم يقرأ لها الرسالة ..

كان نعمان في أفريقيا الشمالية . ان صحته جيدة وهو يسأل أن يوافوه بأنباء الحصاد ، والاحتفالات ، والرقصات ، والشجرة التي تنعقد في ظلها الاجتماعات ، والقرية ...

(نقرات دف)

في تلك الليلة أهدت النساء الى قاضية حق حضور أحاديثهن المألوفة عند المساء في بيت كبراهن . وسر رئيس القرية بالنبأ ، فأولم وليمة لجميع شحاذي القرى المجاورة.

(نقرات دف)

انقضت عدة أشهر أخرى، وعاد الناس جميعاً يقلقون على مصير نعمان ، لأنهم لا يعرفون عنه شيئاً . وكانت قاضية قد عقدت نيتها على الذهاب الى الساحر مرة أخرى تستفتيه ، حين وصلت اليها رسالة ثانية . ان نعمان ، بعد أن ذهب الى كورسيكا ثم الى ايطاليا ، اصبح الآن في المانيا . وهو يهنىء نفسه بحصوله منذ الآن على أوسمة .

(نقرات دف)

ومرة اخرى وصلت بطاقة تقول إن نعمان قد أسره الالمان . ثقل النبأ على صدر القرية . وعقد " القدماء " مجلسهم ، فقرروا أن يكون لنعمان ، بعد الآن ، حق الاشتراك في رقصة الدوجا ، رقصة العقاب المقدسة التي لايجوز لأحد أن يرقصها مالم يقم بعمل باهر ، رقصة الاباطرة الماليين التي تلخص كل خطوة من خطواتها مرحلة من مراحل تاريخ مالي . كا ذلك عزاء للصغيرة قاضية ... لقد واساها ان يرتفع زوجها الى منزلة الابطال من رجال البلاد .

(موسيقا قيثارة)

الزمان ينقضي ... سنتان تمضيان ... ونعمان ما يزال في المانيا . انه لا يكتب .

(موسيقا قيثارة)

في ذات صباح تلقى رئيس القرية من داكار بضع كلمات تقول ان نعمان واصل الى القرية قريبا . فما إن ذاع النبأ في القرية حتى قرعت الطبول ، وأخذ الناس يرقصون ويغنون حتى مطلع الفجر . وألفت الصبايا ألحانا جديدة لاستقبال العائد ، لأن الالحان القديمة لم تتحدث عن رقصة الدوجا ، عن رقصة العقاب الشهيرة .

(قرع طبول)

ولكن بعد شهر أرسل العريف موسى وهو صديق عزيز من أصدقاء نعمان هذه الرسالة الفاجعة الى قاضية : " كان ذلك عند طلوع الفجر . كنا في (تياري على البحر) ففي أثناء مشاجرة كبيرة قامت بيننا وبين رؤسائنا البيض اخترقت رصاصة قلب نعمان . انه الآن راقد في أرض سنغالية " .

(موسيقا قيثارة)

حقاً لقد كان ذلك عند طلوع الفجر. كانت اولى أشعة الشمس التي لا تكاد تلامس سطح البحر تذهب أمواجه الصغيرة المتجعدة . وكانت أشجار النخيل التي تهب عليها أنسام خفيفة تحني جذوعها نحو البحر في رفق وحنان ، كأنما هدّتها هذه المعركة الصباحية . والغربان تتوافد علىالقرية أسراباً صاخبة تحمل بنعيقها نبأ المأساة التي ادمت فجر تياروي . وفي الأفق المحترق ، فوق جثمان نعمان تماماً ، كان ثمة عقاب ضخم يحلق في ثقل ، كأنه يقول له : " يا نعمان ، انك لم ترقص هذه الرقصة التي تحمل اسمي . لسوف يرقصها آخرون." .

الأسس المشتركة بين الثقافة الوطنية وكفاح التحرير

ان السيطرة الاستعمارية التي تتصف بأنها شاملة كلية لم تلبث أن هدّمت الوجود الثقافي للشعب المستعمَر . فانكار الواقع القومي، واقامة علاقات حقوقية جديدة ، ونبذ السكان الاصليين وعاداتهم، وتجريد الاهالي من أملاكهم، واستعباد الرجال والنساء استعبادا منظما، هذه الامور كلها التي عمد اليها الاستعمار قد أتاحت ذلك الامحاء الثقافي شيئاً فشيئاً بعد شيء.

لقد أوضحت، منذ ثلاث سنين ، أمام مؤتمرنا الاول ، أن الظرف الاستعماري سرعان ما أحل محل الحيوية والحركة مواقف تمجيدية . فنرى البلاد المستعمَرة تحيط مجالها الثقافي بسياجات وأوتاد . وهذا نوع بدائي من الدفاع عن النفس يشبه منعكسات غريزة البقاء في كثير من

الوجوه. وترجع أهميه هذه المرحلة الى أن المستعمِر المضطهد يبلغ في تماديه أنه لا يكتفي بأن يلغي الوجود الموضوعي للامة وللثقآفة المضطهدتين ، وانما يبذل جميع الجهود اللازمة من أجل أن يحمل المستعمَر على الاعتراف بتخلف ثقافته التي استحالت الى تصرفات غريزية ، وعلى الاعتراف بأن أمته لا وجود لها، بل على الاعتراف بأن تكوينه البيولوجي نفسه غيرمنظم وغيركامل .

ولم يكن رد المستعمر على هذا الوضع رداً وحيد الاتجاه . فبينما رأينا الجماهير تتمسك بالتقاليد التي لا تماشي الظرف الاستعماري ، وبينما رأينا أسلوب الحرفة يتقوى حتى ليجمد على شكل ثابت، رأينا المثقف يرتمي ارتماء محموماً على تحصيل ثقافة المستعمِر، فاما أن يستخف بثقافته القومية، واما أن يأخذ يشيد بهذه الثقافة اشادة تفصيلية منهجية فياضة بالحماسة عقيمة.

وتتصف هاتان المحاولتان بصفة مشتركة هي أنهما كلتيهما تدخلان في تناقضات لا يمكن احتمالها. ان المستعمَر، سواء أهرب من الثقافة القومية أم أخذ يمجدها، يظل عاجزاً عن احداث أي تأثير، لانه لم يحلل الوضع الاستعماري تحليلا صحيحاً دقيقاً ، ان الوضع الاستعماري الذي يكاد يتناول كل شيء يوقف الثقافة القومية . فليس هناك ولا يمكن أن يكون هناك ثقافة قومية ، أو حياة ثقافية قومية ، أو ابتكارات ثقافية قومية أو تبدلات ثقافية قومية ، ما دامت السيطرة الاستعمارية قائمة. وتنبجس في بعض الاحيان هنا وهناك محاولات جريئة لاستئناف الحيوية الثقافية، واعادة توجيه الموضوعات والاشكال والانغام . وأنت اذا بحثت عن أهمية مباشرة محسوسة لهذه الانتفاضات لم تجد شيئاً . ولكنك اذا تابعت نتائجها الى حدودها القصوى أدركت أنها تهيىء لنزع الغشاوة عن وعي الشعب، وللتنديد بالاضطهاد، ولفتح باب كفاح التحرير.

ان الثقافة الوطنية هي في ظل السيطرة الاستعمارية ثقافة مجمّدة تابع الاستعمار تحطيمها متابعة منظمة. وسرعان ما تصبح مضطرة الى التخفي والسرية ، حتى لنلاحظ معنى السرية هذه في ردود الغاصب المحتل الذي يرى في كل مجاراة للتقاليد ثباتاً على الروح القومية ورفضاً للخضوع، فالمستعمِر يرى في الاستمرار على الاشكال الثقافية التي يستنكرها مظهرا قوميا عليه أن يحاربه. غير أن هذا المظهر انما يرد الى قوانين العطالة والجمود، فليس ثمة هجوم ولا اعادة تحديد للعلاقات، بل انكماش على نواة ما تنفك تزداد ضيقاً وعطالة وفراغاً .

وما هو الا قرن او قرنان من الزمان حتى نرى الثقافة الوطنية قد هزلت ويبست حقاً ، فإذا هي مجموعة من العادات الحركية والتقاليد المتعلقة بالملابس ، والنظم المجزأة المفتتة ، فليس فيها حركة ولا ابداع ولا فوران . ان افقار الشعب ، واضطهاد الأمة ، ومنع الثقافة شيء واحد . اننا لا نرى ، بعد قرن من السيطرة الاستعمارية الا ثقافة متيبسة متجمدة متحجرة . ان بين نضوب الواقع القومي واحتضار الثقافة علاقات تبادل متبادل . فكيف تتطور هذه العلاقات في أثناء كفاح التحرير ؟ ان ما يعمد اليه المستعمِر من انكار للثقافة القومية ، واحتقار لكل المظاهر القومية الحركية أو الانفعالية ، وتحريم لكل تخصص في التنظيم ، يساهم في توليد سلوك هجومي لدى المستعمَر . ولكن هذا السلوك هو من نوع المنعكسات الغريزية التي تتصف باللاتميز وبالفوضوية ، وليس فيه جدوى . ويستمر الاستغلال الاستعماري، ويستمر بؤس الشعب وجوعه، فيضطر المستعمَر شيئاً بعد شيء الى خوض كفاح صريح منظم . وتشعر أكثرية الشعب تدريجاً، أنه لا بد من معركة حاسمة. وتكثر التوترات التي لم يكن لها وجود قبل ذلك . وتأتي الاحداث الدولية وانهيارات الامبراطوريات الاستعمارية والتناقضات القائمة في قلب النظام الاستعماري، يأتي ذلك كله فيغذي و يعزز روح القتال ويرقى بالوعي الشعبي ويقوية.

هذه التوترات الجديدة التي تنشأ على جميع مستويات الواقع الاستعماري تترجع أصداؤها على المستوى الثقافي . ففي الأدب مثلا نرى زيادة نسبية في الانتاج . ونرى الانتاج الادبي القومي يتميز من الانتاج الادبي الغربي و تتجلى فيه إرادة خاصة ، بعد أن كان محاكاة لذلك الانتاج الغربي . و ينحصر هذا الانتاج أول الامر في النطاق الشعري والتراجيدي، ثم يتناول الرواية والقصة والبحث ، فكأن هناك نوعاً من التنظيم الداخلي، كأن هناك قانوناً من قوانين التعبير يُلزم بالاقلال من التجليات الشعرية كلما توضحت أهداف كفاح التحرير وطرائقه . وتندر شيئاً بعد شيء تلك الصرخات المرة اليائسة ، وتلك الاندفاعات المدوية المجلجلة التي لا يخاف منها المحتل في حقيقة الأمر بل تطمئنه . والواقع أن الاستعماريين قد شجعوا هذه المحاولات في الفترة السابقة وسهلوا وجودها. فحرارة التنديد والتشهير ، ووصف البؤس، والتعبير عن الانفعال الجامح ، ذلك كله انما يشبهه المستعمِر بعملية تفريغ، فإذا هو شجّع عليه كان بمعنى من المعاني يتحاشى تحول الأمر الى كارثة ، ويساعد على شيء من انفراج الجو .

غير أن هذا الظرف لا يمكن الا أن يكون مرحلة مؤقتة. والحق أن تقدم الوعي القومي لدى الشعب يبدل ويوضح التعبير الادبي الذي يتولاه المثقف المستعمَر . ان استمرار اتحاد الشعب يهيب بالمثقف أن يتجاوز مرحلة الصراخ . فإذا الشكوى تصبح نداء، ثم اذا النداء يصبح في مرحلة تالية

شعارا . ان تبلور الوعي القومي يقلب الأنواع الادبية والموضوعات الادبية رأساً على عقب ، فإذا المثقف المستعمَر الذي كان في اول الأمر ينتج أدبه للقارىء المستعمِر وحده ، سواء للحظوة باعجابه أو للتنديد به من خلال الاطار القرقي أو الذاتي ، اذا هو بعد ذلك يتعود أن يتجه بانتاجه الى شعبه شيئا بعد شيء.

وابتداء من هذه اللحظة انما نستطيع أن نتحدث عن أدب قومي . ذلك أننا نرى، على مستوى الخلق الأدبي، استئنافا وتوضيحا للموضوعات القومية الحقيقية. نحن ها هنا أمام أدب كفاح بالمعنى الاصلي للكلمة ، لأنه أدب يحدو شعبا بأسره الى النضال في سبيل الوجود القومي . هو أدب كفاح لانه ينير الوعي القومي ، ويسبغ عليه شكلا وحواشي ويفتح له آفاقا جديدة غير محدودة . هو أدب كفاح ، لأنه يحمل تبعة ، لانه ارادة تحقيق في الزمان .

وعلى مستوى آخر نرى أدب الرواة ، والحكايات ، والملاحم ، والأغاني الشعبية ، التي كانت قبل ذلك تستمد من المخزون المجمّد، نرى ذلك كله يأخذ بالتجدد . ان الرواة الذين كانوا يقصون على جمهورهم حكايات ميتة ، يبثون الآن في هذه الحكايات حياة ، ويبدلونها تبديلا أساسيا. انهم يحاولون أن يسبغوا عليها أقاصيص القتال التي يروونها حكايات راهنة ، ويحاولون أن يسبغوا عليها أشكالاً معاصرة، ويستمدون أسماء الابطال وأنواع الاسلحة من الزمان الحاضر . كانوا قبل ذلك يبدؤون حكاياتهم بقولهم : " كان في القديم ... " أما الآن فهم يبدؤونها بقولهم : " ما سأقصه عليكم قد حدث في مكان ما، ولكن يمكن أن يحدث هنا ، اليوم أو غداً . " . ومثال الجزائر بليغ الدلالة بهذا الصدد. ان الرواة قد أخذوا منذ ١٩٥٢- ١٩٥٣ يقلبون طرائقهم في قص حكاياتهم ، وأخذوا يقلبون مضمون هذه الحكايات رأساً على عقب ، بعد أن كانت أقاصيصهم قبل ذلك جامدة مملة . فإذا بالجمهور الذي يستمع اليهم يكثر عدده وتتراص صفوفه ، بعد أن كان قليلا مبعثرا. وعادت الملحمة الى الظهور، وأخذت تصور أبطالا نموذجيين . هذا انبثاق ثقافي . ولم يغفل الاستعمار عن ذلك، فاذا هو يعمد منذ عام ١٩٥٥ الى اعتقال جميع الرواة الذين يتحلق حولهم الناس ليستمعوا الى قصص البطولة .

ان اتصال الشعب بالحركة الجديدة يجعل للانفاس المترجعة في الصدور ايقاعا جديداً ، ويوقظ العضلات النائمة من سباتها ، ويطلق الخيال من عقاله . فكلما قص الراوي على جمهوره مرحلة جديدة من مراحل حكايته، كان يناديهم ويهيب بهم ويحدوهم .انه يكشف للجمهور عن نموذج انسان جديد. فما يبقى الحاضر مغلقا على نفسه بل ينشق عن آفاق جديدة . ان الراوية يرد

لخياله الآن حريته ، ويجدد ، ويخلق . حتى ليتفق له أن يعمد الى وجوه أناس من قطاع الطرق أو من المتشردين الخارجين على قوانين المجتمع ، فاذا هو يقدّ نها وجوها جديدة يجعلها وجوه ابطال ، مع أن ذلك ليس بالامر اليسير. ليتكم تتبعون في بلد مستعمَر انبجاس الخيال والخلق في الأغاني وفي الحكايات البطولية الشعبية ، خطوة خطوة . اذاً لرأيتم أن الراوية انما يستجيب بخطوات متعاقبة لإرادة الشعب، ويمضي باحثاً عن نماذج جديدة، عن نماذج قومية قد نظن أنه يسعى اليها وحده، ولكن في حقيقة الأمر يستحثه اليها جمهوره الذي يصغي اليه . وتختفي الكوميديا أو تفقد جاذبيتها . أما المأساة فما تظل قابعة في ضمير المثقف أزمة تعذبه ، بل تفقد طابع اليأس والتمرد وتصبح من نصيب الشعب كله جزءاً من عمل يتهيأ أو من عمل قد انطلق .

وعلى مستوى الحرفة نجد الاشكال المترسبة المتجمدة تتحرك شيئا بعد شيء . فأعمال الخشب مثلاً ، التي كانت تنسخ وجوها معينة أو أوضاعا معينة بآلاف النسخ ، تتنوع الآن وتتميز . القناع الذي كان لا يعبّر . أو كان يعبّر عن التعب والارهاق ، ينتعش الآن ، والذراعان تهمّان أن تتركا الجسم وأن تندفعا في فعل . وظهر الجمع بين شخصيتين أو ثلاث أو خمس . أصبحت المدارس التقليدية مدعوة الى الابداع بظهور موجات كبيرة من الهواة أو المنشقين . ان هذه القوة الجديدة في هذا القطاع من الحياة الثقافية تتحقق في كثير من الأحيان دون أن يلاحظها أحد . ولكن مساهمتها في الكفاح الوطني مساهمة كبيرة . فحين يحرك الفنان الوجوه والاجسام وحين يجعل موضوع ابداعه جماعة متراصة من الناس على قاعدة واحدة، فانه يدعو الى الحركة المنظمة.

واذا نحن درسنا أصداء يقظة الوعي القومي في مجال القيشاني والفخار، كان في وسعنا أن نذكر هذه الملاحظات نفسها. ان المبدعات في هذا المجال تهجر أشكالها القديمة : الجرار والخوابي والأطباق تتبدل، تتبدل في أول الامر تبدلاً طفيفاً تدريجياً ، ثم تتبدل بعد ذلك تبدلاً قوياً جارفاً . والتلوينات التي كانت في أول الامر محدودة خاضعة لقوانين تقليدية في الانسجام تتكاثر وتترجع فيها الاندفاعية الثورية. ان بعض ألوان الأحمر وبعض ألوان الأزرق، التي كانت محرّمة منذ الأزل، كما يبدو، في مجال ثقافي معيّن، تفرض الآن نفسها دون أن تثير الاستهجان. وكذلك نرى " اللاتعبيرية " في الوجه الانساني ، وهي صفة تتميز بها في رأي علماء الاجتماع المناطق الموصدة تماماً ، تخف وطأتها. وسرعان ما يلاحظ الاختصاصي من أبناء البلاد المستعمِرة هذه الطفرات ؛ فتراه على وجه الإجمال يستنكرها باسم أسلوب فني له قواعده ، باسم حياة ثقافية نشأت في جو الوضع الاستعماري . ان الاختصاصيين الاستعماريين ينكرون هذا الشكل الجديد،

ويروحون يستنجدون بتقاليد المجتمع المستعمَر في التشهير به. أن الاستعماريين هم الذين يصبحون الآن مدافعين عن الاسلوب المحلي . انكم تتذكرون كل التذكر (ولهذا المثال أهمية خاصة لان الامر فيه ليس أمر واقع قومي تماما) كيف كان موقف الاختصاصيين الاستعماريين في الجاز حين رأوا عقب الحرب العالمية الثانية تبلور أساليب جديد واستقرارها مثل الـ " بيبوب " . وذلك أن الجاز ليس الا الحنين المنكسر اليائس الذي يحسه زنجي هرم أحاطت به خمس كؤوس من الويسكي مع اللعنة والاحتقار والحقد العرقي الذي كان يحمله له البيض . فإذا أدرك نفسه ادراكا جديدا، واذا أدرك العالم على نحو مختلف ، فانبعث الأمل في نفسه وفرض على العالم العرقي أن يتراجع، فلا بد أن يميل بوقه الى الانطلاق ، ولا بد أن يجنح صوته الى التحرر من بحته . ان الاساليب الجديدة في الجاز لم تتشأ من التنافس الاقتصادي فحسب، بل هي ولا شك نتيجةمن نتائج انهزام العالم الجنوبي في الولايات المتحدة انهزاما لا مناص منه وإن يكن بطيئا . وليس من قبيل الخيال أن نفترض أن يدافع البيض وحدهم بعد خمسين عاما من نوع " الجاز الصراخ " الذي يتقيؤه زنجي مسكين ملعون ، لحرصهم على صورة مجمّدة لنموذج من الصلات وشكل من الزنجية .

وفي وسعنا أيضاً ، على مستوى الرقص والغناء الميلودي والطقوس والاحتفالات التقليدية ، أن نجد هذه الانطلاقة نفسها وأن نكشف عن هذه الطفرات نفسها ، وعن هذا التحرق نفسه الى الانطلاق . ومعنى ذلك كله أن القارىء الفطن المنتبه يستطيع ، قبل مرحلة كفاح التحرير ، السياسية أو المسلحة، أن يحس وأن يرى ظهور القوة الجديدة والمعركة المقبلة. فثمة أشكال من التعبير لا عهد بها من قبل ، وثمة موضوعات جديدة لم يسبق أن طرقت ، موضوعات مزودة لا بقدرة على الإهابة فحسب ، بل أيضا على تجميع الصفوف، وتحريضها " في سبيل هد ف " . هذا كله يساهم في ايقاظ حساسية المستعمَر ، وفي جعل مواقف التأمل و مشاعر الاخفاق شيئاً مضى زمانه واصبح لا يُقبل . ان المستعمَر حين يجدد أغراض الحرفة والرقص والموسيقا والادب وحكايات البطولة وحركاتها انما يعيد بناء ادراكه للعالم ، فيفقد العالم في نظره طابع اللعنة ، وتتجمع عندئذ الشروط اللازمة لخوض المعركة التي لا بد من خوضها .

لقد شهدنا تحرك التجليات الثقافية، ورأينا أن هذا التحرك، أن هذه الاشكال الجديدة مرتبطة بنضج الوعي القومي . وهذا التحرك يريد أن يتحقق في واقع موضوعي ، يريد أن يصير الى مؤسسة قائمة ، لذلك كان لا بد من وجود قومي مهما كلف الأمر .

ان من الاخطاء الفادحة ، التي يصعب الدفاع عنها من جهة أخرى ، أن نحاول تحقيق تجديدات ثقافية، وأن نحاول رد الاعتبار والقيمة الى الثقافة الوطنية ، ونحن ما نزال في ظل السيطرة الاستعمارية. وإني لأنتهي من هذا الى تقرير نتيجة قد تبدو غريبة مفارقة هي أن أقوى دفاع وأجدى دفاع عن الثقافة القومية انما يكون بالاخذ بالعقيدة القومية ولو في أبسط أشكالها وفي أكثر هذه الاشكال بدائية وفجاجة. ان الثقافة هي أولا وقبل كل شيء تعبير عن أمة ، عن مفضلات

هذه الامة وعن محرماتها وعن نماذجها. وعلى كل مستويات المجتمع بأسره انما تنكون محرمات أخرى وقيم أخرى ونماذج أخرى . فالثقافة القومية هي مجموع هذه التقديرات كلها، هي محصلة التوترات الداخلية والخارجية في المجتمع برمته وفي مختلف طبقات هذا المجتمع . فما دام الوضع الاستعماري قائما فالثقافة تنضب وتحتضر لأنها تكون محرومة من ركيزتيها، الامة والدولة. وعلى ذلك فان التحرر القومي وانبعاث الدولة شرط لوجود الثقافة .

واذا كانت الامة هي الشرط اللازم لقيام الثقافة وازدهارها وتجددها المتصل وعمقها، فهي أيضا حاجة وضرورة. ان الكفاح الذي تخوضه الامة هو الذي يطلق الثقافة من عقالها ويفتح لها أبواب الابداع، كما أن الامة، في مرحلة ثانية، هي التي توفر للثقافة ظروف نمائها وإطار تعبيرها. أن الامة هي التي تهيىء للثقافة شتى العناصر الضرورية التي تستطيع وحدها أن تهب للثقافة أمانة وصدقاً ونشاطاً وابداعاً . وكون الثقافة قومية هو الذي جعلها قادرة على أن تنفذ اليها الثقافات الاخرى، وعلى أن تنفذ الى الثقافات الاخرى وتؤثر فيها. فما لا وجود له لا يمكن أن يفعل في الواقع ، ولا أن يؤثر في هذا الواقع . فلا بد أولا من أن تقوم الامة ، فاذا قيامها يهب الحياة للثقافة ، بالمعنى البيولوجي لهذه الكلمة. هكذا تابعنا تكسر التحجرات الثقافية شيئا بعد شيء، وشهدنا تجدد التعبير وانطلاق الخيال قبيل المعركة الحاسمة في سبيل التحرير القومي .

ويبقى بعد ذلك أن هناك مسألة أساسية تُطرح : ما العلاقات القائمة بين الكفاح أو الصراع – سواء اكان سياسياً او مسلحاً – وبين الثقافة ؟ هل تعاني الثقافة توقفاً أثناء الصراع ؟ هل الصراع القومي مظهر ثقافي ؟ هل نقول ان الكفاح التحريري ، وان يكن خصباً فيما بعد، هو في ذاته انكار للثقافة؟ هل كفاح التحرير ظاهرة ثقافية ؟

اننا نعتقد أن الكفاح المنظم الواعي الذي يخوضه شعب من الشعوب لاسترداد سيادة الأمة هو أكمل مظهر ثقافي ممكن. ليس نجاح الكفاح وحده هو الذي يهب للثقافة قيمة وصدقا وقوة،

بل ان معارك الكفاح نفسها تنمي، في أثناء انطلاقها ، مختلف الاتجاهات الثقافية وتخلق اتجاهات ثقافية جديدة، فالكفاح لا ينيم الثقافة أثناء اندفاعه. وكفاح التحرير لا يرد الى الثقافة الوطنية قيمتها القديمة وأطرها القديمة، ولا يمكن ما دام يهدف الى اعادة تنظيم العلاقات بين البشر الا أن يبدل الاشكال والمضامين الثقافية للشعب. ان التحرر بالكفاح لا يزيل الاستعمار وحسب، بل يزيل المستعمَر أيضاً .

فهذه الانسانية الجديدة، الجديدة لذاتها وللاخرين، لا يمكنها الا أن تنشىء نظرة انسانية جديدة ، بل ان هذه النظرة الانسانية الجديدة قائمة مقدماً في أهداف ومناهج الكفاح . ان المعركة التي تعبىء جميع طبقات الشعب ، التي تعبّر عن صبوات الشعب ، وعن أشواقه المتحرقة، التي لا تخشى أن تعتمد على الشعب وحده تقريباً ، ان هذه المعركة ظافرة لا محالة. وقيمة هذا النوع من القتال انما تقوم على كونه يحقق الحد الأقصى من الشروط اللازمة للنمو الثقافي والابداع الثقافي . وبعد التحرير الذي يتم في هذه الشروط ، لا يكون ثمة ذلك النوع من الحيرة الثقافية المريرة التي نراها الآن في بعض البلدان المستقلة حديثاً . ذلك أن الأمة ، في صورة دخولها الى العالم، وفي أشكال وجودها، تؤثر في الثقافة تأثيراً أساسياً . ان أمة تنشأ من خوض الشعب نضالاً منسجماً موحداً ، ان أمة تجسد أشواق الشعب الواقعية ، ان أمة تبدل الدولة ، لا يمكن أن توجد الا في صور من خصوبة ثقافية فذة .

والمستعمَرون الذين تهمم ثقافة بلادهم ويريدون أن تكون لها أبعاد عالمية ، يجب عليهم اذاً ألا يتكلوا في تحقيق هذه المهمة على مجرد مبدأ الاستقلال الذي لابد منه ، دون ثمة نفاذ إلى وعي الشعب . فشتان بين التحرير القومي من حيث هو هدف وبين مناهج المعركة ومضمونها الشعبي . ويخيل اليّ أن مستقبل الثقافة وغنى الثقافة القومية متوقفان أيضاً على القيم التي لازمت معركة التحرير .

وهنا تحين لحظة فضح النفاق الذي نراه لدى بعضهم . يقول بعضهم هنا وهناك ان القومية مرحلة قد تجاوزتها الانسانية. وان الزمان الحاضر هو زمان التجمعات الكبيرة ، وان على المتأخرين الذين ما يزالون يؤمنون بالقومية أن يصححوا أخطاءهم . ونحن نرى، على خلاف ذلك، أن الخطأ الفادح، الخطأ المثقل بالنتائج الخطيرة، هو أن نحاول القفز فوق المرحلة القومية. واذا كانت الثقافة هي التعبير عن الوعي القومي، فانني لا أتردد عن القول، في الحالة التي نحن بصددها الآن، ان الوعي القومي هو أنضج شكل من أشكال الثقافة.

ليس وعي الذات انغلاقا دون التواصل . حتى لقد علمنا التفكير الفلسفي أن وعي الذات هو ضمانة التواصل . ان الوعي القومي، ان الشعور القومي، الذي ليس تعصباً قومياً ، هو الامر الوحيد الذي يهب لنا بعداً عالمياً . ومشكلة الشعور القومي هذه، مشكلة الثقافة القومية هذه تأخذ في افريقيا ابعاداً خاصة . ان نشوء الشعور القومي في افريقيا يتصل بالشعور الافريقي اتصال تعاصر. فمسؤولية الافريقي تجاه ثقافته القومية هي أيضا مسؤولية تجاه الثقافة الزنجية الافريقية. وهذه المسؤولية المنضمة ليست ثمرة مبدأ ميتافيزيقي بل هي ثمرة ادراك لقانون معروف يقول إن كل أمة مستقلة في افريقيا ستظل مطوقة تتربص بها الاخطار في كل لحظة، الى أن تتحرر افريقيا كلها من الاستعمار.

اذا كان الانسان هو ما يفعله هذا الانسان فاننا نستطيع أن نقول ان الشيء الملح المستعجل اليوم ، بالنسبة الى المثقف الافريقي، هو بناء أمته. فاذا جاء هذا البناء صادقاً ، أي إذا عبّر عن ارادة الشعب الواضحة ، اذا كشف عن تحرق الشعوب الأفريقية ، كان لا محالة مصحوباً باكتشاف قيم انسانية شاملة ، وكان يرتقي بهذه القيم الانسانية الشاملة . ان التحرير القومي لا يبتعد بنا عن الأمم الأخرى ، بل أنه هو الذي يجعل الأمة حاضرة على مسرح التاريخ . ففي قلب الوعي القومي انما ينهض الوعي العالمي ويحيا . وليس هذا البزوغ المزدوج ، في آخر الأمر ، الا بؤرة كل ثقافة .

خاتمة

هيا يا رفاق، انه ليجدر بنا أن نقرر منذ الآن أن ننتقل الى الضفة الاخرى . الليل الطويل الذي كنا غارقين فيه، يجب أن نهزّه وأن نخرج منه . النهار الجديد الذي أخذ يطلع، يجب أن يجدنا حازمين واعين قد عزمنا أمرنا.

ينبغي أن نترك أحلامنا، أن نترك صداقاتنا التي عقدناها قبل بزوغ هذا الفجر. لا نضيعن وقتنا في دعوات مملة ، وتلونات تبعث على التقيؤ . لنترك هذه الاوروبا التي لا تفرغ من الكلام على الانسان وهي تقتله حيثما وجدته ، في جميع نواصي شوارعها وفي جميع أركان العالم .

لقد انقضت قرون وأوروبا تجمّد تقدم البشر الآخرين وتستعبدهم لتحقيق اهدافها وأمجادها. انقضت قرون وهي ، باسم " مغامرة روحية " مزعومة، تخنق الانسانية كلها تقريباً . انظروا اليها الآن وهي تسقط بين تحلل الذرة وتحلل الروح .

ومع ذلك نستطيع أن نقول انها ، في بلادها، قد نجحت بكل شيء في مجال التحقيق.

لقد أمسكت، أوروبا زمام العالم في حماسة واستهتار وعنف ، وانظروا كم يمتد ظل مبانيها وكم يتكاثر! ان كل حركة قامت بها أوروبا قد حطمت حدود المكان وحدود الفكر. ورفضت أوروبا كل مذلة وكل تواضع، ولكنها رفضت أيضاً كل حنان وكل رفق .

لم تظهر بخيلة شحيحة الا مع الانسان .

فيا أيها الاخوة كيف لا نفهم أن هناك ما هو خير لنا من اتباع هذه الاوروبا .

ان هذه الأوروبا التي لم تنقطع لحظة عن الادعاء بأنها لا تهتم الا بالانسان ، نحن نعلم اليوم كم قاست الانسانية من آلام ثمناً لكل نصر من انتصارات روحها .

هيا يا رفاق، لقد انتهت لعبة أوروبا تماماً، وعلينا أن نجد شيئاً آخر . اننا نستطيع اليوم أن نفعل كل شيء ، على ألا نقلد أوروبا تقليدا أعمى وأخرق ، على ألا تحاصرنا الرغبة في اللحاق باوروبا.

لقد بلغت اوروبا من فرط السرعة المجنونة الطائشة في سيرها أن زمامها قد أفلت اليوم من كل قيادة ومن كل عقل، وأن دواراً رهيباً يعصف برأسها ويودي بها في هوة يحسن الابتعاد عنها بأقصى سرعة ممكنة .

صحيح أننا في حاجة الى نموذج، الى مثال، الى قدوة. وان كثيرا منا يفتنه النموذج الاوروبي أكثر من أي نموذج آخر ولكننا رأينا في الصفحات المتقدمة أنواح الاخفاق التي تقودنا اليها هذه المحاكاة يجب ألا يفقدنا توازننا الانجازات الاوروبية والتكنيك الاوروبي والاسلوب الاوروبي .

اني حين ابحث عن الانسان في التكنيك الاوروبي والاسلوب الاوروبي ، لا أرى الا سلسلة من الانكارات للانسان، الا مواكب من جرائم قتل الانسان .

ان المصير الانساني، ومشاريع الانسان، والتعاون بين البشر في أعمال تغني كيان الانسان، هذه كلها مشكلات جديدة تتطلب تجديدات مبتكرة حقاً .

فلنقرر ألا نقلد أوروبا، ولنوجه عضلاتنا وأدمغتنا في اتجاه جديد . لنحاول أن نخلق الانسان الكلي الذي عجزت أوروبا عن تحقيق الانتصار له .

منذ قرنين قررت مستعمرة أوربية قديمة أن تلحق بأوروبا، وقد بلغت من النجاح في ذلك أن (الولايات المتحدة الامريكية) اصبحت كائنا عجيبا مشوها تضخمت فيه تضخما رهيبا عيوب أوروبا وامراضها ولا انسانيتها.

أيها الرفاق ، أليس علينا أن نفعل شيئاً آخر غير خلق أوروبا ثالثة ؟ لقد أراد الغرب أن يكون مغامرة للفكر، وباسم هذا الفكر، فكر أوروبا طبعاً ، انما سوّغت أوروبا جرائمها ، وجعلت استعبادها لخمسة أرباع الانسانية شرعياً .

لقد قام الفكر الاوروبي على قواعد عجيبة، وجرى التفكير الاوروبي كله في أمكنة ما تنفك تخلو من الانسان، وما تنفك تزداد وعورة، حتى ألفنا أن يختفي منه الانسان شيئاً بعد شيء .

حوار مع الذات لا ينقطع، ونرجسية ما تفتأ تزداد دعارة، كان ذلك مهادا لما يشبه الهذيان، لهذيان يصبح فيه عمل الدماغ عذاباً ، لان الوقائع ليست فيه وقائع الانسان الحي الذي يعمل ويصنع نفسه، بل ألفاظ ومزاوجات شتى بين ألفاظ ، وتوترات ناشئة عن الدلالات التي تتضمنها الالفاظ . على أنه قد وُجد أوروبيون يهيبون بالعاملين الاوروببون أن يحطموا هذه النرجسية وأن يكفوا عن تجريد الواقع هذا التجريد .

ولكن العاملين الاوروبيين لم يستجيبوا للنداء بوجه عام، ذلك ان العاملين قد حسبوا أنهم هم أيضا مرتبطون بهذه المغامرة العظيمة التي يقوم بها الفكر الأوروبي .

ان جميع العناصر اللازمة لحل كبريات مشاكل الانسانية قد وجدت في تفكير أوربا في لحظات مختلفة. ولكن عمل البشر الاوروبيين لم يحقق الرسالة المنوطة به ، وهي ان يستند استناداً قوياً الى هذه العناصر ، أن يغير ترتيبها ، أن يغير كيانها ، أن يبدلها ، أن ينقل أخيراً مشكلة الانسان الى مستوى أعلى كثيراً .

ونحن نشهد اليوم تجمد الدم في شرايين أوروبا. فلنهرب أيها الرفاق من هذه الحركة الساكنة التي أستحال فيها الديالكتيك شيئاً فشيئاً الى (منطق توازن) .

- ولنطرح مشكلة الانسان من جديد. لنطرح مسألة الواقع الدماغي، مسألة الكتلة الدماغية للانسانية كلها، هذه الكتلة التي يجب علينا أن نضاعف ارتباطاتها ، وأن ننوع شبكاتها، وأن نعيد الى تواصلها طابع الانسان.

هيا يارفاق ! ان الاعمال التي يقع على عاتقنا أن نقوم بها أكثرمن أن نستطيع تضييع وقتنا في ألهيات تتسلى بها المؤخرة. لقد صنعت أوروبا ما كان عليها أن تصنعه ، بل لقد أحسنت، على وجه الاجمال، صُنع ما كان عليها أن تصنعه . حسبنا اتهاما لها ، ولكن علينا أن نقول لها بقوة انه ما ينبغي لها بعد الآن أن تستمر في احداث هذا الضجيج كله . لقد أصبحنا اليوم لانخشاها، و علينا اذاً أن ننقطع عن حسدها .

ان العالم الثالث يقف الآن امام أوروبا كتلة عظيمة تريد ان تحاول حل المشكلات التي لم تستطع أوروبا أن تأتي لها بحلول .

ولكن يجب علينا الا نتحدث عن وفرة الانتاج، ألا نتحدث عن الجهد العنيف، ألا نتحدث عن السرعة الكبيرة. وليس معنى هذا " أن نعود الى الطبيعة " وانما معناه ألا نشد البشر الى اتجاهات تشوههم ، يجب علينا ألا نتذرع بحجة اللحاق فنزعزع الانسان وننتزعه من ذاته ، من صميمه ، وأن نحطمه ، أن نقتله .

لا ، نحن لا نريد اللحاق بأحد ، ولكننا نريد أن نمشي طوال الوقت ، ليلاً ونهاراً ، في صحبة الانسان ، في صحبة جميع البشر . وعلينا ان نجعل القافلة متراصة غير متباعدة ، وإلا لم يستطع كل صف من الصفوف أن يرى الصف الذي تقدمه ، ولم يستطع البشر أن يعرف بعضهم بعضاً ، وأصبحوا لا يلتقون الا لماماً ولا يتحدث بعضهم الى بعض كثيرا .

إن على العالم الثالث أن يستأنف تاريخاً للانسان يحسب حساب النظرات التي جاءت بها أوروبا وكانت في بعض الاحيان رائعة، ولكنه يحسب أيضاً حساب للجرائم التي قامت بها أوروبا في الوقت نفسه، وأبشع هذه الجرائم أنها قد شتتت وظائف الانسان تشتيتاً مرضياً ، وفتتت وحدته، كما وجدت في المجتمع تحطما وتكسرا وتواترات دامية تغذيها طبقات، وكما أوجدت على مستوى الانسانية أحقادا عرقية واستعبادا واستغلالا، بل قتلاً هو ذلك النبذ لمليار ونصف مليار من البشر.

فيا أيها الرفاق، يجب علينا لا ندفع جزية لاوروبا بخلق دول ونظم ومجتمعات تستوحي أوروبا.

ان الانسانية تنتظر منا شيئاً آخر غير هذا التقليد الكاريكاتوري، الفاجر على وجه الأجمال .

اذا أردنا أن نحيل افريقيا الى أوروبا جديدة، وأن نحيل أمريكا الى أوروبا جديدة كان علينا أن نعهد بمصاير بلادنا الى أوروبيين، لانهم سيحسنون التصرف أكثر من أعظمنا موهبة.

اما اذا أردنا أن تتقدم الانسانية درجة، اذا أردنا ان نحمل الانسانية إلى مستوى مختلف عن المستوى الذي بلغته أوروبا، فعندئذ يحب علينا ان نبتكر، أن نكتشف.

اذا أردنا أن نستجيب لآمال شعوبنا فيجب علينا أن نبحث في غير أوروبا .

بل اذا نحن أردنا أن نستجيب لما يتوقعه منا الاوروبيون فيجب ألا نرد اليهم بضاعتهم، ألا نرسل اليهم صورة، ولو مثالية، عن مجتمعهم وعن تفكيرهم بعد أن أصبحوا يشعرون نحوهما باشمئزاز شديد.

فمن أجل أوروبا، ومن أجل أنفسنا، ومن أجل الانسانية، يجب علينا يا رفاق، ان نلبس جلداً جديداً ، ان ننشىء فكراً جديداً، أن نحاول خلق إنسان جديد.

الفهرس

مقدمة بقلم .. جان بول سارتر

في العنف

الانطلاق العفوي ، عظمته ومواطن ضعفه .

مزالق الشعور القومي

في الثقافة القومية .

فجر أفريقي

الأسس المشتركة بين الثقافة الوطنية وكفاح التحرير .

خاتمة